أين نحن من هؤلاء ؟!

المجلد الثالث

عبد الملك القاسم

دار القاسم

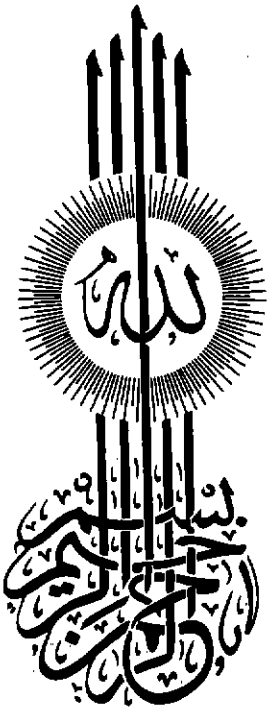
بسم الله الرحمن الرحيم

ففيهما فجاهد

الإهداء

إلى من أدرك أبويه عند الكبر، فبرهما فدخل الجنة... هنيئًا له ما قدّم.

المقدمة

الحمد لله الذي خلق فسوى، والذي قدَّر فهدى، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، قولاً وفعلاً، وصلةً وبرًّا..

أمَّا بعد:

فامتثالاً لأمر الله ـ جل وعلا ـ بوجوب التعاون على البر والتقوى، والنصح لكل مسلم، وتذكيرًا لي وللإخوة الشباب، أقدم الجزء التاسع من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟!**» تحت عنوان: «**ففيهما فجاهد**»، الذي يعني بوصية الله ـ تعالى ـ لعباده من برِّ الوالدين والإحسان إليهما، وإكرامهما وحفظ حقوقهما.

وبين دفتي الكتاب ذكرٌ لحال السلف وبرهم بأبائهم وأمهاتهم، مع حسن رعايتهم والقيام على شؤونهم بنية العبادة الخالصة لله.

وبين السطور صوت كلمة حانية.. وأنين قلب مفجوع.. ولظى عبرة مسفوحة.. ولذا جمَّلته بأحاديث الرسول ﷺ، التي تلين القلوب، وتذيب القسوة، وتجلي الغفلة، وتُنزل الوالدين منزلتهما.

والكتاب لا يخلو من دمعة تفريط واعتراف بالتقصير في حق الوالدين، متعنا الله بحياتهم، ورفع درجاتهم، وأعلى منازلهم، وأجزل مثوبتهم، وأسكنهم الفردوس الأعلى، وجمعنا وإياهم في جنات عدن، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

مدخل

قال الله ـ جل وعلا ـ في محكم كتابه: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٥].

أخرج الديلمي عن الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا: «**لو علم الله شيئًا من العقوق أدنى من (أف) لحرمه**»[(١)].

وقال **ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ هي كلمة كراهة.

وقال **مقاتل**: الكلام الرديء الغليظ.

ويقال: نُهي الولد أن يقول لهما: ﴿أُفٍّ﴾ إذا شم منهما رائحة كريهة؛ فالنهي عما فوق ذلك أعظم.

وقال **مجاهد**: إن بلغا عندك من الكبر فيبولان ويخريان فلا تتقززهما ولا تقل لهما: ﴿أُفٍّ﴾؛ وأمط عنهما الخراء والبول كما كانا يميطانه عنك صغيرًا ولا يتأففان.

وقال **عروة بن الزبير** في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ هو: ألا يمنعهما شيء[(٢)].

---

(١) فتح القدير: (٣/ ٢١٨).

(٢) الدر المنثور: (٥/ ٢٥٩).

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ خص التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، فيزيده ذلك إشفاقًا لهما وحنانًا عليهما. وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات، فإن كان والدا المسلم ذميين استعمل معهما ما أمره الله به هاهنا إلا الترحم لهما بعد موتهما على الكفر(١).

قال **الإمام أبو بكر الجصاص**: قال أصحابنا في المسلم يموت أبواه وهما كافران إنه يغسلهما ويتبعهما ويدفنهما، لأن ذلك من الصحبة بالمعروف التي أمر الله بها(٢).

وقال ـ تعالى ـ: مؤكدًا على حق الوالدين: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ [البقرة: ٨٣].

قال **ابن كثير** ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: فأمرهم ـ تعالى ـ أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم، وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يُعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين، وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين. ولهذا يقرن ـ تبارك وتعالى ـ بين حقه وحق الوالدين، كما قال ـ تعالى: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾(٣) [لقمان: ١٤].

وأثنى الله ـ تعالى ـ: على الأنبياء، وخص بالذكر منهم يحيى، ـ عليه السلام ـ، لأنه كان برًّا بوالديه على كبر سنهما، والبر في وقت الحاجة

---

(١) تفسير القرطبي: (١٠/ ٢٤٤).
(٢) أحكام القرآن للجصاص: (٢/ ٢٣٦).
(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٠).

أعظم منه في غيره، والحاجة لا تتحقق إلا في سن الشيخوخة والضعف: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾ [مريم: ١٤].

وأُطري على **عيسى ـ عليه السلام ـ** لتفانيه في خدمة أمه واعتزازه ببرها، واعترافه بفضلها، وخفض الجناح لها: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾ [مريم: ٣٢].

ولنا في أنبياء الله وسلفنا الصالح الأسوة الحسنة؛ فهذا أبو الأنبياء **إبراهيم ـ عليه السلام ـ** يتلطف في دعوة أبيه إلى الله، فلما نهره أبوه قابله بالرفق والوعد بالاستغفار له. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٨].

وأما سلفنا الصالح فكان منهم **أويس القرني**، فعن أسير بن جابر، قال: كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، إذا أتى أمدادُ أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس. فقال: أنت أويس بن عامر؟ فقال: نعم. فقال: مِنْ مُرَادٍ ثم من قَرَن.

قال: نعم، قال: فكان بك برصٌ فبَرَأْتَ إلا مَوْضع درهم؟ قال: نعم.

قال: لك والدة؟ قال: نعم. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يأتي عليكم أويس بن عامر مع أَمْدَادِ أهل اليمن من مراد، ثم من قَرَن، كان به**

برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها برٌّ. لو أقسم على الله لأبرَّه، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل». فاستغفر لي. فاستغفر له. فقال عمر: أين تريد؟

قال أريد الكوفة. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غبراء الناس أحب إليَّ.

قال: فلما كان من العام المُقْبِل حج رجل من أشرافهم. فوافق عمر ـ رضي الله عنه ـ، فسأله عن أويس.

قال: تركتُه رَثَّ البيت قليل المتاع. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُرَادٍ ثُمَّ من قَرَن، كان به برصٌ فبرأ منه إلا موضِعَ درهم، له والدة هو بها برٌّ. لو أقسم على الله لأبرَّه، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل» فأتى أويسًا فقال: استغفر لي. قال: أنت أحْدث عَهْدًا بسفر صالح، فاستغفر لي. قال: لَقِيتَ عمر؟ قال: نعم فاسْتَغْفَرَ له، فَفَطِنَ له الناس، فانطلق على وجهه[1].

وقد أجمع علماء الإسلام على أن بر الوالدين واجب، واختلفت عباراتهم في ذلك.

قال ابن حزم: إنه فرض. قال في الآداب الكبرى: قال القاضي عياض: بر الوالدين واجب في غير الحرام[2].

واستدلوا بالأدلة الصحيحة الصريحة الكثيرة منها:

* قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ

---

(١) رواه مسلم.

(٢) غذاء الألباب: (١/ ٣٨٢).

إِحْسَٰنًا . . .﴾ الآية. [النساء: ٣٦] فهذا أمر، والأمر يقتضي الوجوب، خصوصًا بعد أن قرنه بعبادته وتوحيده، ولم يوجد لهذا الأمر صارف.

* وقوله ـ تعالى ـ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

ومعنى: ﴿قَضَىٰ﴾ كما قال **ابن كثير**: وصَّى.

وقال القرطبي: أي أمر وألزم وأوجب.

وقال الشوكاني: وفي جعل الإحسان إلى الأبوين قرينًا لتوحيد الله وعبادته من الإعلان بتأكيد حقهما والعناية بشأنهما ما لا يخفى[١].

معنى بر الوالدين:

البر: الإحسان، ومنه قول الرسول ﷺ: «**البر حسن الخلق**». وهو في حق الوالدين والأقربين ضد العقوق.

فالعقوق: هو الإساءة وتضييع الحقوق.

* قال **الحسن البصري**:

البر: أن تطيعهما في كل ما أمرك به ما لم تكن معصية الله. **والعقوق**: هجرانهما، وأن تحرمهما خيرك[٢].

* وقال **القرطبي**: عقوق الوالدين مخالفتهما في أغراضهما الجائزة لهما، كما أن برهما، موافقتهما على أغراضهما. وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه إذا لم يكن ذلك الأمر معصية. وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله. كذلك إذا كان من قبيل المندوب[٣].

---

(١) فتح القدير: (٣/٢١٨).

(٢) الدر المنثور: (٥/٢٥٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: (٦/٢٣٨).

* وقال **شيخ الإسلام**: قال أبو بكر في زاد المسافر: من أغضب والديه وأبكاهما يرجع فيضحكهما. وهذا يقتضي قوله أن يُبرَّا في جميع المباحات، فما أمراه إئتمر، وما نهياه انتهى، وهذا فيما كان فيه منفعة لهما ولا ضرر عليه فيه ظاهر، مثل ترك السفر والمبيت عندهما ناحية[١].

* جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال: **أحيٌّ والداك؟**» قال: نعم. فقال: «**ففيهما فجاهد**»[٢].

* قال **الجصاص** في أحكام القرآن: قال أصحابنا: لا يجوز أن يجاهد إلا بإذن الأبوين إذا قام بإزاء العدو من قد كفاه الخروج؛ قالوا: فإن لم يكن بإزاء العدو من قام بفروض الخروج: فعليه الخروج، بغير إذن والديه، لأن الجهاد حينئذ فرض عين على كل قادر، وليس فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين[٣].

* قال **الإمام النووي** في شرح صحيح مسلم: قال أبو محمد بن عبد السلام: يحرم على الوالد الجهاد بغير إذن الوالدين لما يشق عليهما من توقع قتله أو قطع عضو من أعضائه وشدة تفجعهما على ذلك.

* وقال **ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ: ثلاث آيات مقرونة بثلاث لا تقبل منها واحدة بغير قرينتها، فذكر منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ٣١] قال: فمن شكر الله ولم يشكر والديه لم يقبل منه.

---

(١) غذاء الألباب: (١/ ٣٨٢).
(٢) رواه البخاري.
(٣) أحكام القرآن للجصاص: (٤/ ٢٣٥).

ولذا قال النبي ﷺ: «رضا الرب من رضا الوالد، وسخط الرب من سخط الوالد»[١].

وقد أوصى النبي ﷺ بطاعة الوالدين. فعن أبي الدرداء قال: أوصاني رسول الله ﷺ بتسع:

«لا تشرك بالله شيئًا، وإن قُطعت أو حُرقت.

ولا تتركن الصلاة المتكوبة متعمدًا، ومن تركها متعمدًا برئت منه الذمة.

ولا تشربن الخمر، فإنها مفتاح كل شر.

وأطع والديك وإن أمراك أن تخرج من دنياك فاخرج لهما...» الحديث.[٢].

وقال محمد بن علي ـ رضي الله عنهما ـ: إن الله رضَّا الآباء للأبناء، فحذرهم فتنتهم: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، ولم يوصهم بهم، ولم يرض الأبناء للآباء فأوصاهم بهم. وإن شر الأبناء من دعاه التقصير إلى العقوق، وشر الآباء من دعاه البر إلى الإفراط.

ويعود السبب في عدم تعرض القرآن إلى توصية الآباء بأبنائهم إلى أمرين:

الأول: الرحمة التي أودعها الله ـ تعالى ـ قلب الأب.

الثاني: إن الولد جزء من الوالد، والأصل يحنُّ إلى الفرع ويعطف عليه.

وهذه العاطفة الأبوية موجودة عند جميع المخلوقات الحية. وكما أن الوالد مأجور على تعبه ونصبه وسعيه على أبنائه، فإن الابن مأجور على

---

(١) كتاب الكبائر: (٤٠).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد.

سعيه على والديه وخدمتهما ورعايتهما وإدخال السرور على قلوبهما.

فعن **كعب بن عجرة** ـ رضي الله عنه ـ قال: مر على النبي ﷺ رجل فرأى أصحاب النبي ﷺ جلده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله. فقال رسول الله ﷺ: «**إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل الله. وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل االشيطان**»[١].

عن **عائشة** ـ رضي الله عنها ـ قالت: جاءتْ امرأةٌ ومعها ابنتانِ لها تسألني، فلم تجد عندي شيئًا غيرَ تمرةٍ واحدةٍ فأعطيتها إياها فأخذتها فشقَّتها باثنتين بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئًا، ثم قامتْ فخرجتْ هي وابنتاها، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ، فحدثته حديثها، فقال رسول الله ﷺ: «**من ابتُلِيَ من البنات بشيء فأحسن إليهن كُنَّ له سِترًا من النار**»[٢].

وقال **عبدالله بن أبي أوفى**: قال رجل: يا رسول الله! إنَّ هٰهُنا شابًّا يجود بِنَفسِهِ، يُقال له: قل: «**لا إله إلا الله**»، فلا يستطيع. فجاءه النبي ﷺ، فقال: «**قل: لا إله إلا الله**» قال: لا أستطيع، قال: «**لِـمَ**»؟ قال: أُقْفِلَ على قلبي، كُلَّما أردت أن أقولها غَمَرَ القَفْلُ قلبي. قال: «**بِمَ**»؟ قال: بعقوقي والدتي، فأرسل النبيُّ ﷺ إليها، فقال لها: «**أرأيتِ إنْ أججتُ نارًا ضخمة، فقيل لك: استغفري له أو نلقيه فيها؟**» قالت: إذن أشفع له يا رسول الله! قال: «**فاشهدي الله وأشهديني برضاك عنه**».

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه الشيخان.

قالت: اللهم إني أشهدك، وأشهد رسولك ﷺ برضاي عنه. فقال النبي ﷺ: «**يا شابُّ! قل: لا إله إلا الله**». قال: «**لا إله إلا الله، وحده لا شريك له**» فقال ﷺ: «**الحمد لله الذي أنقذك من النار**». ثلاث مرات[1].

وعن **ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ قال: ما من مسلم له والدان مسلمان يصبح إليهما محتسبًا إلا فتح الله له بابين ـ يعني من الجنة ـ وإن كان واحد فواحد، وإن أغضب أحدهما لم يرض الله عنه حتى يرضى عنه، قيل: وإن ظلماه؟ قال: وإن ظلماه[2].

أخي الحبيب:

ما أعظم فضل الله، وما أوسع رحمته! لقد أعد لكل من الوالدين بابًا من الجنة، يتفتح بالخير على الولد كلما خرج يسعى لهما، وتتساقط عليه رحمة الله ـ تعالى ـ ما دام حريصًا على إرضائهما، فإن أغضبهما أو أغضب أحدهما غضب الله عليه فأغلق دونه باب الخير وإن كان الولد محقًّا، ليعلم الأبناء أن ليس لهم من الحق شيء تجاه آبائهم.

والأمر بالإحسان إلى الوالدين عام مطلق، ينضوي تحته مايرضي الابن وما لا يرضيه من غير احتجاج ولا جدل ولا مناقشة. وهذه نقطة مهمة جدًّا يجب الانتباه إليها لأن أكثر الأبناء يغفلون عنها إذ يحسبون أن البر فيما يروق لهم، ويوافق رغباتهم.

والحقيقة على عكس ذلك تمامًا، فالبر لا يكون إلا فيما يخالف أهواءهم وميولهم، ولو كان فيما يوافقها لما سمي برًّا.

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) أخرجه البيهقي.

وشروط البر ثلاثة:

الأول: أن يؤثر الولد رضا والديه على رضا نفسه وزوجته وأولاده والناس أجمعين.

الثاني: أن يطيعهما في كل ما يأمرانه به وينهيانه عنه، سواء وافق رغباته أو لم يوافقها، ما لم يأمراه بمعصية الله ـ تعالى ـ.

الثالث: أن يقدم لهما كل ما يلحظ أنهما يرغبان فيه من غير أن يطلباه منه عن طيب نفس وسرور، مع شعوره بتقصيره في حقهما ولو بذل لهما دمه وماله.

* قال ﷺ: «**ثلاث دعوات لا تُردُّ: دعوة الوالد لولده، ودعوة الصائم، ودعوة المسافر**»(١).

ولو لم يكن من البر بالوالدين إلا استجابة دعوتهما لكفى، فربما بدعوة منهما لا تشقى بعدها أبدًا.

ومن بر والديه فإن الله يتقبل عمله، قال ـ تعالى ـ فيمن بر والديه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ [الأحقاف: ١٦] فجمع ـ سبحانه وتعالى ـ لمن بر والديه قبول العمل وتكفير الخطيئة.

* ورحمة الوالد بابنه وحرصه عليه ليست بحاجة إلى تفصيل وإيضاح.. فإنها تبدأ منذ الخطوات الأولى للأبوة.. فعندما يبحث الأب عن زوجة فهو يختار لابنه المنبت الطيب والحضن الدافيء والأم العاقلة.

وذلك طمعًا في صاحب الدين لأنه أهلٌ لصلة الأرحام والأقارب.. أما أهل الفسق فإنهم أبعد الناس عن الخير والصلة والبر.

---

(١) صحيح الجامع برقم (٣٠٢٩).

ولم تكن تلك المحبة والألفة مدعاة إلى تضييع حقوق الله والتساهل في تربية أبنائهم. بل إنها باب للسمع والطاعة والقبول.

فحين تفقد **هشام بن عبد الملك** أحد أولاده يوم الجمعة فلم يجده، بعث إليه: مالك لم تشهد الجمعة؟! فقال: إن بغلتي عجزت عني، فبعث إليه: أما يمكنك المشي؟ ومنعه أن يركب سنة وأن يشهد الجمعة ماشيًا[١].

وهذا نوع من التأديب لأبنائهم وأخذهم على الحق وإلزامهم الاستقامة.

وهناك أيضًا باب آخر في هدأة الليل المظلم. وسكون الأصوات.

إنها لحظات الوقوف بين يدي الله.. والتوجه بالدعاء والتضرع إلى الله بصلاحهم وبرهم وتوفيقهم.

عن هشام بن حسان قال: قال سعيد بن جبير: إني لأزيد في صلاتي من أجل ابني هذا، قال هشام: رجاء أن يحفظ فيه[٢].

وعندما رأى مالك بن دينار رجلاً يسيء صلاته، قال: ما أرحمني لعياله. فقيل له يسيء هذا صلاته وترحم عياله؟! قال إنه كبيرهم ومنه يتعلمون[٣].

وهذا يُبين أن للوالدين يد طولى في بر أبنائهما لهما، من حسن تربية وعناية ودعاء ومحافظة عليهم. لهذا كان لزامًا على الأب المسلم والأم المسلمة أن يحميا أولادهما من هذا العقاب الشديد (عقاب العقوق) عند الله ـ تعالى ـ، بأن يُربيا أبناءهما تربية حسنة، فيعرفانهم حدود الله وأسباب غضبه ومقته، ويساعداهم ويعيناهم على برهما.

---

(١) البداية والنهاية: (٩/ ٣٩٦).

(٢) حلية الأولياء: (٤/ ٢٧٩).

(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٢٨٧).

قال **الغزالي**: يعينهم على بره ـ يعني الأب ـ ولا يكلفهم من البر فوق طاقتهم، ولا يلح عليهم وقت ضجرهم، ولا يمنعهم من مخافة أن يعصيه في ذلك فيستوجب النار[١].

وكان يقال في أمر التربية: ولدك سبع سنين أسير، وسبع أمير، وسبع وزير[٢].

وعن **محمد بن حاطب** قال: سمعت ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول لرجل أدب ابنك فإنك مسؤول عن ولدك ما علمته وهو مسؤول عن برك وطاعته لك.

فالصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة، خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما ينقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عُود الخير وعُلمه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة.

وصلاح الآباء يدرك الأبناء، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] قيل: هو الأب السابع، وقيل: العاشر[٣].

والمحبة لا تغفل حق الله؛ ولا تضيع حقوق العباد هذا ابنٌ **لشريح بن الحارث** يقول لأبيه: بيني وبين قوم خصومه فانظر فإن كان الحق لي خاصمتهم، وإن لم يكن لي الحق لم أخاصمهم، فقص قصته عليه، فقال: انطلق فخاصمهم. فانطلق فخاصمهم إليه، فقضي على ابنه، فقال له لما رجع إلى أهله: والله لو لم أتقدم إليك لم أَلَكَ فضحتني!! فقال: والله يا بني لأنت أحب إليَّ من ملء الأرض مثلهم، ولكن الله ـ عز وجل ـ أعز على

---

(١) تنبيه الغافلين: (٩٨).
(٢) البركة في فضل السعي والحركة: (٩٨).
(٣) فتح القدير: (٣/ ٣٠٤).

منك أن أخبرك أن القضاء عليك فتصالحهم فتذهب ببعض حقهم[١].

وحسن الأدب وجميل الخلق سمات ظاهرة على من بر والديه فعن أبي غسان الضبي أنه خرج يمشي بظهر الحرة وأبوه يمشي خلفه؟ فلحقه أبو هريرة فقال: من هذا الذي يمشي خلفك؟ قلت: أبي، قال: أخطأت الحق ولم توافق السنة، لا تمش بين يدي أبيك؛ ولكن أمش خلفه أو عن يمينه، ولا تدع أحدًا يقطع بينك وبينه، ولا تأخذ عرقًا ـ أي لحمًا مختلطًا بعظم ـ نظر إليه أبوك فلعله اشتهاه، ولا تحد النظر إلى أبيك، ولا تقعد حتى يقعد، ولا تنام حتى ينام[٢].

أخي الحبيب:

غير خاف على عاقل حق المنعم، ولا منعم بعد الحق ـ تعالى ـ على العبد كالوالدين، فقد تحملت الأم بحمله أثقالاً كثيرة، ولقيت وقت وضعه مزعجات مثيرة، وبالغت في تربيته، وسهرت في مداراته، وأعرضت عن جميع شهواتها، وقدمته على نفسها في كل حال.

وقد ضم الأب إلى التسبب في إيجاده محبته بعد وجوده، وشفقته وتربيته بالكسب له والإنفاق عليه.

والعاقل يعرف حق المحسن، ويجتهد في مكافأته، وجهل الإنسان بحقوق المُنعم من أخس صفاته، لاسيما إذا أضاف إلى جحد الحق المقابلة بسوء المنقلب[٣].

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٤٠).
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط.
(٣) بر الوالدين لابن الجوزي: (٢٧).

* روى **الشعبي** عن النبي ﷺ أنه قال: «**رحم الله والدًا أعان ولده على بره**».

قال **أبو الليث**: إذا كان الولد صالحًا وعلمه الأب القرآن والعلم، فيكون أجره لوالده من غير أن ينقص من أجر ولده شيء، فإذا كان الوالد لا يعلمه القرآن ويعلمه طريق الفسق يكون وزره على أبيه من غير أن ينقص من وزره شيء[(١)].

قال ـ جل وعلا ـ محذرًا من التفريط في الأمانة والتهاون في أمر التربية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

واسمع قول النبي ﷺ، فسوف يحاجك ابنك يوم القيامة إذا ضيعته وأهملته قال ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع، ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته...**» الحديث. [متفق عليه].

* قال ﷺ: «**من قرأ القرآن وعمل به، أُلبِسَ والداه تاجًا يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا! فما ظنكم بالذي عمل بهذا**»[(٢)].

وعلى الوالدين أن يدعوا لأولادهما، ويكونان قدوة يقتدى بها في الخير، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفرقان: ٧٤].

---

(١) تنبيه الغافلين (٩٩).

(٢) جامع الأصول: (٨٢).

أخي الحبيب:

عـــــــود بنيـــــــك على الآداب في الصغـــــــر
كيمـــــــا تقـــــــر بهـــــــم عينـــــــاك في الكبر
فـــــــإنمـــــــا مثـــــــل الآداب تجمعهـــــــا
في عنفـــــوان الصبـــــا كـــــالنقـــــش في الحجـــــر
هـــــي الكنـــــوز التـــــي تنمـــــو ذخـــــائـــــرهـــــا
ولا يخـــــــاف عليهـــــــا حـــــــادث الغير
إن الأديـــــــب إذا زلـــــــت بـــــــه قـــــــدم
يهـــــــوي إلى فـــــــرش الـــــــديبـــــــاج والسرر

وعندما بلغ **عمر بن عبد العزيز** ـ رضي الله عنه ـ أن ابنًا له اشترى خاتمًا بألف درهم كتب إليه: بلغني أنك اشتريت فصاً بألف درهم، فإذا أتاك كتابي فبع الخاتم، واشبع به ألف بطن، واتخذ خاتمًا بدرهمين، واجعل فصه حديدًا حينيًا، واكتب عليه رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه[1].

أخي الحبيب... أين نحن من هؤلاء؟!

مر **أبو حازم سملة بن دينار** بأبي جعفر المديني وهو مكتئب حزين، فقال: ما لي أراك مكتئبًا حزينًا، وإن شئت أخبرتك؟ قال: أخبرني ما وراءك؟ قال: ذكرت ولدك من بعدك، قال: نعم، قال: فلا تفعل، فإن كانوا لله أولياء فلا تخف عليهم الضيعة. وإن كانوا لله أعداء فلا تبال ما لقوا بعدك[2].

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٤٥).
(٢) حلية الأولياء: (٣/ ٢٣٢).

* وقال **أبو حيان التيمي**: رأيتِ مجمعًا التيمي يبكي في جنازة ابنه، فقلت ما يبكيك؟ قال: إني أجد له ما يجد الوالد لولده، وأبكي عليه إني لا أدري إلى جنة يصير أو إلى نار[١].

هذا هو الاهتمام وتلك هي الغاية. فإن الدنيا ظلٌّ زائل، والمقام والنعيم هناك في دارالخلود. جعلني الله وإياك وآباءنا وأبناءنا ممن يجتمعون فيها. ويلتقون بها.

* قال **كثير بن تميم الداري**: كنت جالسًا مع سعيد بن جبير فطلع عليه ابنه عبد الله بن سعيد وكان به من الفقه، فقال: إني لأعلم خير حالاته فقلت: وما هو؟ قال: أن يموت فأحتسبه[٢].

أما **صلة بن أشيم** فقد كان في مغزى له ومعه ابن له فقال: أي بُني تقدم فقاتل حتى أحتسبك. فحمل فقاتل حتى قُتل[٣].

أراد أن يجمع أجرين: أجر استشهاد ابنه، وأجر احتسابه وصبره[٤].

إذا مـــا دعـــوت الصبر بعـــدك والبكـــى
أجـــاب البكـــى طـــوعًـــا ولم يجـــب الصبر
فـــإن ينقطـــع منـــك الـــرجـــاء فـــإنـــه
سيبقـــى عليـــك الحـــزن مـــا بقـــي الـــدهـــر[٥]

---

(١) حلية الأولياء: (٥/ ٩٠).
(٢) حلية الأولياء: (٤/ ٢٧٥).
(٣) صفة الصفوة: (٤/ ٢٣).
(٤) ذكرت كثيرًا من المواقف العجيبة عند مصيبة فقد الولد في كتابي «اصبر واحتسب» فلا داعي لتكرارها هنا مرة أخرى.
(٥) شذرات الذهب: (٢/ ٦٥).

أخي الحبيب:

كيف نربي أبناءنا وعلى ماذا ننشئهم؟! أهو على اللهو واللعب وضياع الأوقات فنخرج أمةً ضائعة تائهة؟ أم نربيهم على العز والفخار، ونعلمهم العلم النافع، نربيهم على محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله فتنهض الأمة وترتفع رايتها؟. **هاك وصية من أراد الرفعة والفوز:**

قال **لقمان** لابنه: يا بني زاحم العلماء بركبتك، ولا تجادلهم فيمقتوك، وخذ من الدنيا بلاغك، وأنفق فضول كسبك لآخرتك، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً وعلى أعناق الرجال كلاًّ، وصم صومًا يكسر شهوتك، ولا تصم صومًا يضر بصلاتك، فإن الصلاة أفضل من الصوم، ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين[1].

ولقد أهمل الكثير تربية أبنائهم التربية الإسلامية؛ وتساهلوا في توجيههم ونصحهم؛ وأصبح الهم منصرفًا إلى غذائهم وكسائهم ولهوهم. فترى بعض الأطفال يجهل كثيرًا من الأحكام الشرعية، ويقعون في بعض المحرمات فلا يُزجرون عنها، ولا يُنهون عنها، بل ولا يُنبهون عليها. بل إن بعض الآباء والأمهات يُعينون أطفالهم على فعل المعصية! فينشأ الصغير وهو لا يميز بين الحلال والحرام والمستحب والمكروه.

أما حال من سبقنا فإن أبصارهم تتابع الأبناء، وتسير مع خطواتهم. تعليم ونصيحة، وتوجيه وتأديب. بهم تقر الأعين، وتهنأ النفوس، وتحيا الأمة.

* كان **ابن محيريز** يقول: من مشى بين يدي أبيه فقد عقه، إلا أن يمشي

---

(١) الإحياء: (٤/٥٨).

فيميط له الأذى عن طريقه، ومن دعا أباه باسمه أو بكنيته فقد عقه، إلا أن يقول يا أبه[١].

* قال فرقد قرأت في بعض الكتب: ما برَّ ولد مدَّ بصره إلى والديه، وأن النظر إليهما عبادةٌ، ولا ينبغي للولد أن يمشي بين يدي والديه، ولا يتكلم إذا شهدا، ولا يمشي عن يمينهما، ولا عن يسارهما، إلا أن يدعوانه فيجيبهما، أو يأمرانه فيطيعهما، ولكن يمشي خلفهما مثل عبدٍ ذليل[٢].

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٤].

أخي المسلم:

لا تمش إليهم بل كن مثل الطائر في سرعة إجابتهم والوصول إلى رضاهم.. ومع ذلك الجهد كله.. فأنت مقصر ولكن اتبع تقصيرك العملي بدعاء لهما بالرحمة والمغفرة.

هذا هو النهج الذي يجب أن يسلكه الولد مع أبيه، يرى نفسه أقل منه فلا يمشي أمامه، ويوقن أنه قطعة منه فلا يدع أحدًا يفصل بينهما، ويعرف أنه دونه فلا يعلوه في سطح ولا مجلس، ويعترف أنه يعيش على فضله وإحسانه فلا يتناول ما اختصه لنفسه.

ومن أمور التربية الواضحة الجلية القدوة الحسنة.. فالأب والأم هما القدوة التي يقتدي بها الأبناء. فكم من مضيع للصلاة ومفرط في المنهيات تاركًا للأوامر مقترفًا للكبائر. كيف يأمر وينهى مثل هذا؟ بل كيف يا ترى

---

(١) البر والصلة لإبن الجوزي: (١١٣).
(٢) المصدر السابق.

ينشأ أبناؤه على الخير في وسط هذا الفساد؟

* عن **ابن عمر** قال: كان عمر إذا نهى الناس عن شيء دخل على أهله ـ أو قال: جمع أهله ـ فقال: إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، وإني والله لا أوتي برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا أضعفت له العقوبة لمكانه مني، فمن شاء منكم فليتقدم ومن شاء منكم فليتأخر[١].

* لما كانت الصرعة التي هلك فيها **عمر بن عبد العزيز** دخل عليه مسلمة بن عبدالملك، فقال: يا أمير المؤمنين: إنك أفقرت أفواه ولدك من هذا المال، فتركتهم عالة لا شيء لهم، فلو أوصيت بهم إليَّ أو إلى نظرائي من أهل بيتك. فقال: أسندوني ثم قال: أما قولك: إني أفقرت أفواه ولدي من هذا المال، فإني والله ما منعتهم حقًّا هو لهم، ولم أعطهم ما ليس لهم، وأما قولك: لو أوصيت بهم إليَّ أو إلى نظرائي من أهل بيتك. فوصيي ووليي فيهم الله الذي نزَّل الكتاب وهو يتولى الصالحين، بين أحد رجلين، إما رجل يتقي فسيجعل الله له مخرجًا، وإما رجل مكث على المعاصي فإني لم أكن لأقويه على معصية الله.

فاللهم منصرفٌ إلى الدار الآخرة. أما الدنيا فدار ممر وليست بدار مقر[٢].

* قال **يزيد بن معاوية**: أرسل أبي الأحنف بن قيس فقال له: يا أبا الحسن ما تقول في الأولاد؟ قال: يا أمير المؤمنين هم ثمار قلوبنا، وعماد

---

(١) تاريخ بغداد: (٤/ ٢١٩).
(٢) حلية الأولياء: (٥/ ٣٣٣).

ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، وبهم نصول على كل جليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم يمنحوك ودهم، ويحبوك جهدهم، ولاتك عليهم قفلاً فيملوا حياتك، ويحبوا وفاتك، ويكرهوا قربك. فقال معاوية: لله أنت يا أحنف لقد دخلت علي وأنا مملوء غضبًا على يزيد[1].

والبر بالوالدين توفيق وهداية من الله للأبناء فعن طاووس عن أبيه، قال: كان رجل له أربعة بنين فمرض، فقال أحدهم: إما أن تمرضوه وليس لكم من ميراثه شيء، وإما أن أمرضه وليس لي من ميراثه شيء قالوا: بل تمرضه وليس لك من ميراثه شيء، فمرضه حتى مات، ولم يأخذ من ميراثه شيئًا، قال: فأُتي في المنام فقيل له: إئت مكان كذا وكذا فخذ منه مائة دينار. فقال: أفيها بركة؟ قالوا: لا. فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته، فقالت: خذها فإن من بركتها أن نكتسي منها ونعيش بها. فلما أمسى أُتي في النوم فقيل له: إئت مكان كذا وكذا فخذ منه عشرة دنانير. فقال: أفيها بركة؟ قالوا: لا. فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته، فقالت له: مثل ذلك. فأبى أن يأخذها. فأُتي في الليلة الثالثة فقيل له: إئت مكان كذا وكذا وخذ منه دينارًا، قال: أفيه بركة؟ قالوا: نعم. قال: فذهب فأخذ الدينار، ثم خرج به إلى السوق، فإذا هو برجل يحمل حوتين فقال: بكم هما؟ قال: بدينار. فأخذهما منه، وانطلق بهما إلى بيته. فلما شقهما وجد في بطن كل واحد منهما درة لم ير الناس مثلها. فبعث الملك يطلب درة يشتريها فلم توجد إلا عنده، فباعها بثلاثين وقرًا (حملاً) ذهبًا. فلما رآها الملك قال: ما

---

(١) البركة في فضل السعي والحركة: (٩٧).

تصلح هذه إلا بأخت، فاطلبوا أختها ولو أضعفتم الثمن. فجاءوه، فقالوا: أعندك أختها ونعطيك ضعف ما أعطيناك؟ قال: نعم. فأعطاهم الثانية بضعف ما باع به الأولى[١].

هذا هوالتنافس على البر والعناية بالوالدين. يتنافسون في بره والعناية به مقابل تنازله عن إرثه. وما ذاك إلا لعلمهم أنهم قدموا رضى الله ثم طاعة والدهم على كنوز الدنيا.

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

عن **أنس بن النضر الأشجعي**: استقت أم ابن مسعود ماء في بعض الليالي، فذهب فجاءها بشربة، فوجدها قد ذهب بها النوم، فثبت بالشربة عند رأسها حتى أصبح[٢].

وعن **ظبيان بن علي الثوري** ـ وكان من أبر الناس بأمه ـ قال: لقد نامت ليلة وفي صدرها عليه شيء، فقام على رجليه يكره أن يوقظها، ويكره، أن يقعد، حتى إذا ضعف جاء غلامان من غلمانه، فما زال معتمدًا عليهما حتى استيقظت[٣].

وكان يسافر بها إلى مكة، فإذا كان يوم حار حفر بئرًا، ثم جاء بنطع فصب فيه الماء، ثم يقول لها: أدخلي تبردي في هذا الماء[٤].

ولننظر إلى حال الكثير وهو يهرب من أبيه حال كبره ولا يزوره إلا في فترات متباعدة، بل ربما وضعه في أحد الملاجيء أو دور العجزة، وربما

---

(١) المحاسن والمساويء: (٥٤٨).
(٢) بر الوالدين لابن الجوزي: (٥٤).
(٣) بر الوالدين لابن الجوزي: (٥٤).
(٤) المصدر السابق.

نهر أمه أو أباه بصوت مرتفع وكلام سيىء وكأنه يتخاصم مع عدوه.

بل ـ والله ـ رأيت من يتعامل بحسن خلق ولين جانب مع الكفار، وهو سيىء الطبع والخلق مع والديه. فسبحان الله العظيم ما أحمله علينا!!

أما غالب حال الشباب اليوم فإن منزلة الصديق أعلى منزلة، وأجل مكانة من الوالدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* قال **سفيان بن عيينة**: قدم رجل من سفر، فصادف أمه قائمة تصلي، فكره أن يقعد وأمه قائمة، فعلمت ما أراد، فطولت ليؤجر[١].

ونحن في زمن ظهر فيه العقوق وهجر الآباء.. نرى حال من سبقنا وبرهم بأبائهم وتقديرهم وإكرامهم فنردد قول الشاعر.:

وإن الجـــــرح يـــــدمـــــى بعـــــد حين
إذا كـــــان البنـــــاء على فســـــاد

رويَ أنَّ الفقيه **نصر بن أبي حافظ المقدسي** لَّما رحل من بيت المقدس في طلب العلم إلى الفقيه (الكازروني) (بميَّافارقين) من أرض العراق، قال له الكازروني: ألك والدة؟ قال: نعم. قال: فهل استأذنتها؟ قال: لا. قال: فو الله، لا أقرأتك كلمة حتى ترجع إليها فتخرج من سخطها. قال: فرجعت إليها، فأقمت معها إلى أن ماتت، ثم رحلت في طلب العلم[٢].

وعن **هشام** قال: كانت حفصة تترحم على هذيل، وتقول: كان يعمد إلى القصب فيقشره ويجففه في الصيف، لئلا يكون له دخان، فإذا كان الشتاء جاء حتى قعد خلفي وأنا أصلي، فيوقد وقودًا رفيقًا ينالني حره ولا

---

(١) بر الوالدين لابن الجوزي: (٥٥).
(٢) بر الوالدين لاين الجوزي: (٨٢).

يؤذيني دخانه، وكنت أقول له: يا بني، الليلة اذهب إلى أهلك، فيقول: يا أماه أنا أعلم ما تريدين، فادعه فربما كان ذلك حتى يصبح.

وكان يبعث إليَّ بحلبة الغداة، فأقول: يا بني تعلم أني لا أشرب نهارًا فيقول: أطيب اللبن ما بات في الضرع، فلا أحب أن أوثر عليك، فأبعثي به إلى من أحببت.

فمات هذيل، فوجدت عليه وجدًا شديدًا، وكنت أجد مع ذلك حرارة في صدري لا تكاد تسكن. قالت: فقمت ليلة أصلي، فاستفتحت النحل فأتيت إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [النحل: ٩٦] فذهب عني ما كنت أجد[١].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال **أبو بكر بن عياش**: ربما كنت مع منصور في منزله جالسًا فتصيح به أمه وكانت فظة غليظة فتقول: يا منصور يريدك ابن هُبيرة على القضاء فتأبى وهو واضع لحيته على صدره ما يرفع طرفه إليها[٢].

وكان **حيوة بن شريح** وهو أحد أئمة المسلمين يقعد في حلقته يُعلم الناس، فتقول له أمه: قم يا حيوة فألق الشعير للدجاج فيقوم ويترك التعليم[٣].

* قال **محمد بن المنكدر**: بات عمر يعني أخاه يصلي وبت أغمزُ رجل أمي، وما أحب أن ليلتي بليلته.

---

(١) بر الوالدين لابن الجوزي: (٥٣).
(٢) البر والصلة لابن الجوزي: (٨٥).
(٣) البر والصلة لابن الجوزي: (٧٩).

وكان **حجر بن الأدبر** يلمس فراش أمه بيده فيتهم غلظ يده فيتقلب عليه على ظهره فإذا أمن أن يكون عليه شيء أضجعها[١].

وكان **أمية بن الأسكر الكناكي** من سادات قومه، وكان له ابن اسمه كلاب هاجر إلى المدينة في خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، فأقام بها مدة ثم لقي ذات يوم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام فسألهما: أي الأعمال أفضل في الإسلام؟ فقالا: الجهاد. فسأل عمر فأغزاه في الجند الغازي إلى الفرس. فقام أمية وقال لعمر: يا أمير المؤمنين هذا اليوم من أيامي لولا كبر سني، فقام إليه ابنه كلاب وكان عابدًا زاهدًا فقال: لكني يا أمير المؤمنين أبيع الله نفسي وأبيع دنياي بآخرتي، فتعلق به أبوه وكان في ظل نخلٍ له وقال: لا تدع أباك وأمك شيخين ضعيفين ربياك صغيرًا حتى إذا احتاجا إليك تركتهما. فقال: نعم أتركهما لما هو خيرٌ لي. فخرج غازيًا بعد أن أرضى أباه، فأبطأ، وكان أبوه في ظل نخل له، وإذا حمامة تدعو فرخها، فرآها الشيخ فبكى، فرأته العجوز. فبكت وأنشأ يقول:

لمن شيخان قد نشدا كلابا
كتاب الله لو قبل الكتابا
أناديه فيُعرض في إباء
فلا وأبي كلاب ما أصاب
إذا هتفت حمامة بطن وجٍّ[٢]
على بيضاتها ذكرا كلابا

---

(١) البر والصلة لابن الجوزي: (٨٥).
(٢) وج: أسم واد بالطائف.

فـــإن مهـــاجـــريـــن تكنـــاه
ففـــارق شيخـــه خَطِئـــاً وخـــابـــا
تـــركـــت أبـــاك مُـــرعَشَـــةً يـــداه
وأمَّـــك مـــا تسيـــغ لهـــا شرابـــا
تنفّـــض مهـــده شفقـــاً عليـــه
وتجنبـــه أبـــا عـــرهـــا الصعـــابـــا
فـــإنـــك قـــد تـــركـــت أبـــاك شيخـــاً
يطـــارق[1] أنيقـــاً[2] شربـــاً[3] طـــرابـــاً
إذا رُتعـــن إرقـــالاً[4] سراعـــاً
أثـــرن بكـــل رابيـــةٍ تـــرابـــا
طـــويـــلاً شـــوقـــه يبكيـــك فـــردًا
على حـــزن ولا يـــرجـــو الإيـــابـــا
فـــإنـــك والتمـــاس الأجـــر بعـــدي
كبـــاغـــي المـــاء يتبـــع السَّرابـــا

وكان أمية قد أضر (أي عمي) فأخذ قائده بيده ودخل به على عمر وهو في المسجد فأنشده:

أعـــاذل قـــد عـــذلـــتِ بغير علـــمٍ
ومـــا تـــدريـــن عـــاذل مـــا ألاقـــي

---

(١) يطارق: يضرب.
(٢) أنيقًا: جمع ناقة.
(٣) شربًا: ضامرة.
(٤) الإرقال: السير السريع.

فـــإمـــا كنـــتِ عـــاذلتنـــي فـــردي
كـــلابـــاً إذ تـــوجـــه للعـــراق
ولم أقـــض اللُّبـــانـــة مـــن كـــلاب
غـــداة غـــد وآذن بـــالفـــراق
فتـــى الفتيـــان في عسر ويسر
شـــديـــد الـــركـــن في يـــوم التـــلاقـــي
فـــلا وأبيـــك مـــا بليـــت وجـــدي
ولا شفقتـــي عليـــك ولا اشتيـــاقـــي
وإيقـــادي عليـــك إذا شتـــونـــا
وضمَّـــك تحـــت نحـــري واعتنـــاقـــي
فلـــو فلـــق الفـــؤاد شـــديـــدُ وجـــدٍ
لهـــمَّ ســـوادُ قلبـــي بـــانفـــلاق
ســـأستعـــدي على الفـــاروق ربَّـــاً
لـــه دفـــع الحجيـــج إلى بســـاق[١]
وأدعـــو الله مجتهـــدًا عليـــه
ببطـــن الأخشبين[٢] إلى دقـــاق[٣]
إن الفـــاروق لم يـــردد كـــلابـــاً
على شيخين هـــامهمـــا زواق[٤]

---

(١) بساق: جبل عرفات.
(٢) الأخشبين: جبلان بمكة.
(٣) دقاق: موضع.
(٤) زواق: زقا صاح وصراخ الهام معروف وهو من خرافات العرب.

فكتب عمر برد كلاب إلى المدينة. فلما قدم ودخل عليه قال له عمر: ما بلغ من برِّك بأبيك؟ قال: كنت أوثره وأكفيه أمره، وكنت إن أردت أن أحلب له لبنًا أجيء إلى أغزر ناقة في إبله فأريحها وأتركها حتى تستقر، ثم أغسل أخلافها (ضروعها) حتى تبرد، ثم أحلب له فأسقيه.

فبعث عمر إلى أمية فجاءه فدخل عليه وهو يتهادى وقد ضعف بصره وانحنى، فقال له: كيف أنت يا أبا كلاب؟

فقال له: كما ترى يا أمير المؤمنين.

فقال: يا أبا كلاب، ما أحب الأشياء إليك اليوم؟

قال: ما أحب اليوم شيئًا، ما أفرح بخير ولا يسوؤني شر.

فقال عمر: بل على ذلك.

قال: بلى، كلاب أحب أنه عندي **فأشمه شمة وأضمه ضمة قبل أن أموت**. فبكى عمر وقال: ستبلغ ما تحب إن شاء الله ـ تعالى ـ.

ثم أمر كلابًا أن يحلب لأبيه ناقة كما كان يفعل ويبعث بلبنها إليه ففعل وناوله عمر الإناء وقال: اشرب يا أبا كلاب. فأخذه، فلما أدناه من فيه قال: والله يا أمير المؤمنين إني لأشمُّ رائحة يديْ كلاب. فبكى عمر وقال له: هذا كلاب عندك وقد جئناك به. فوثب إلى ابنه وضمه، وجعل عمر والحاضرون يبكون، وقالوا لكلاب: الزم أبويك فجاهد فيهما ما بقيا، ثم شأنك بنفسك بعدهما، وأمر له بعطائه وصرفه مع أبيه.

وتغنت الركبان بشعر أبيه فبلغه فأنشأ يقول:

لعمـــــرك مـــــا تـــــركـــــت أبـــــا كـــــلابٍ
كبير الســـــــن مكتئبـــــــاً مصـــــــابـــــــا

وأمّـــــــاً لا يـــــــزال لهـــــــا حنين
تنـــــادي بعـــــد رقـــــدتهـــــا كـــــلابـــــا
لكســـــب المـــــال أو طلـــــب المعـــــالي
ولكنـــــي رجـــــوت بـــــه الثـــــوابـــــا

وكان كلاب من خيار المسلمين فلم يزل مقيمًا عندهما حتى ماتا[1]. [2].

إنها قصة ينفطر لها الفؤاد أسى، وتذوب النفس لسماعها حسرة، ويكلم القلب القاسي ويلين.. وتسخن العين الجامدة وتذرف.. إنها مشاعر الوالدين.

فيا من أبكى أبويه وأحزنهما، وأسهر ليلهما، وحملهما أعباء الهموم، وجرعهما غُصص الفراق، ووحشة البعاد، هل أحسنت إليهما وأجملتَ في معاملتهما: صغيرًا يبكيان عليك إشفاقًا وحذرًا، وكبيرًا يبكيان منك خوفًا وفرقًا. فهما أليفا حُزنٍ، وحليفا هَمٍّ وغمٍّ.

فلما بلغتَ موضع الأمل ومحلَّ الرجاء، قلت: أسيح في الأرض أطلب كذا وكذا، ففارقتهما على رغمهما باكيين، وتركتهما في وكرهما مخزونين، فأئكلتهما أحب طلعة على وجه الأرض إليهما. فإن غاب شخصك عن

---

(١) الأغاني: (١٨/ ١٥٧).

(٢) حدثني من أثق به عن ولد عاق لأمه أودعها في إحدى دور العجزة ولم يزرها إطلاقًا حتى تردت حالتها، وعندها طلبت من مسؤول الدار الاتصال على ابنها لتراه، وتقبله قبل أن تموت. وسبقتها الدموع وهي تنادي باسمه أن يحضر، ولكن العاق العاصي ـ والعياذ بالله ـ رفض ذلك وادعى ضيق الوقت. فلما توفيت الأم، تم الاتصال بالابن العاق فكان جوابه: أكملوا الإجراءات الرسمية وادفنوها في قبرها.

عيونهما لم يغب خيالك عن قلوبهما. ولئن ذهب حديثك عن أسماعهما لم يسقط ذكرك عن أفواههما.

ولطالما بكيا وحزنا إن تأخرت حين الرواح والمساء، فكيف إذا أغلقا بابهما دونك، وأبصرا خلو مكانك، ففقدا أنسك، ولم يجدا رائحتك، فكان ملاذهما سح الدموع، وملجأهما الاستكانة والخضوع، فصار العين أثرًا، وعاد الولدُ خبرًا، فكل غريب ولدهما، وكل ميتٍ هو لهما.

يتباكيان، ويشكوان جواهما
بمدامع تنهل من برحائه
يتجاوبان إذا الرياح تناوحت
عل الرياح هبين من تلقائه

كيفما توجها نظرا آثارك، وحيثما تلفتا أبصرا مواضع أخبارك. فهنالك تُسكبُ العبرات، وتتضاعف الحسرات.

وسل عن حديثهما إذا لقيا إخوانك، وأبصرا أقرانك، ولم يريا وسطهم مكانك، فهل هُنالك تسيل النفوس، وتذوب القلوب[١].

* قال رجل **لإبراهيم بن أدهم** ـ رحمه الله ـ: طوبى فقد تفرغت للعبادة بالعزوبة فقال: لروعة منك بسبب العيال، أفضل من جميع ما أنا فيه[٢].

فالحمد لله على نعمائه.. والحمد لله على فضله وإحسانه.. نؤجر على التربية ونؤجر على الروعة..

---

(١) بر الوالدين لابن الجوزي: (١١٦).
(٢) الإحياء: (٢/ ٢٧).

قال أحدهم:

نعـــــم الإلـــــه على العبـــــاد كثيرة
وأجلهـــــن نجـــــابـــــة الأبنـــــاء

فإن الثمرة أولها بذرة. فلا وجود للثمرة إن لم يكن هناك ماء يسقي هذه البذرة فالبذرة هي أبناؤك، والماء هو الغذاء البدني والروحي الذي يتلقاه الأبناء، والثمرة هي نتاج ذلك كله، فإما ثمرة صالحة أو ثمرة فاسدة.

أخي المسلم:

اغرس حب الله ـ تعالى ـ وحب رسوله ﷺ في قلوبهم، واجعل كلمة التوحيد «**لا إله إلا الله**» محفورة في صدورهم، وأطعمهم من زاد التقوى واسقهم من شراب الطاعة والأخلاق الفاضلة، وليكن منهاجهم ومنار سبيلهم قال الله ـ تعالى ـ، وقال الرسول ﷺ[1].

* حين ضاق رجل بالحياة ذرعًا، وسُددت في وجهه أبواب الرزق، وله بنيات صغيرات لا يستطيع فراقهن شفقة وحنانًا، ولو لا هن لانتشر في أرجاء الأرض يبتغي من فضل الله قال يومًا:

لـــــولا بنيـــــات كـــــزَغـــــب[2] القطـــــا
حططـــــن مـــــن بعـــــض إلى بعـــــض
لكـــــان لي مضطـــــرب واســـــع
في الأرض ذات الطـــــول والعـــــرض

---

(١) رسائل إلى أمي وأختي: (٩).
(٢) الزغب: الشعيرات الصفر على ريش الفرخ.

وإنمـــــــا أولادنـــــــا بيننـــــــا
أكبـــــــادنـــــــا تمشي على الأرض
لـــــو هبـــــت الـــــريـــــح على بعضهـــــم
لامتنعـــــت عينـــــي مـــــن الغمـــــض
أنـــــزلنـــــي الـــــدهـــــر على حكمـــــه
مـــــن مـــــرقـــــب عـــــال إلى خفـــــض

وعتب أمية بن أبي الصلت على ابنه يومًا، وقد ضن عليه في الإنفاق بعدما هرم وشاخ، فقال له:

غـــذوتـــك مـــولـــودًا وعُلتـــك يـــافعًـــا
تعـــل بمـــا أُجنـــي عليـــك وتنهـــل
إذا ليلـــة نـــابتـــك بـــالشجـــو لم أبـــت
لشكـــواك إلا ســـاهـــرًا أتململـــل
كـــأني أنـــا المطـــروق دونـــك بـــالـــذي
طُـــرقـــت بـــه دوني فعينـــي تهمـــل
تخـــاف الـــردىٰ نفسي عليـــك وإننـــي
لأعلـــم أن المـــوت حتـــم مـــؤجـــل
فلمـــا بلغـــت الســـن والغـــايـــة التـــي
إليهـــا مـــدى مـــا كنـــت فيـــك أُؤمـــل
جعلـــت جـــزائـــي غلظـــة وفظـــاظـــة
كـــأنـــك أنـــت المنعـــم المتفضـــل

فليتـــــك إذ لم تـــــرع حـــــق أبـــــوتي
فعلـــــت كمـــــا الجـــــار المجـــــاور يفعـــــل[١]

عن معاذ قال: أوصاني رسول الله ﷺ: «**لا تعق والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك**»[٢].

وعن **عبدالله بن عمر** عن أبيه، قال: كانت تحتي امرأة كان عمرُ يكرهها، فقال: طلقها فأبيت فأتى عمر النبي ﷺ، فقال: «**أطع أباك**»[٣].

وعن **أبي الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ: أن رجلاً أتاه فقال: إن لي امرأة، وإن أمي تأمرني بطلاقها. فقال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه**»[٤].

في هذا الحديث بيان واضح أن في عقوق الوالدين إضاعة لأوسط أبواب الجنة، وأوسطها أعدلها وأكثرها خيرًا، وفي برهما حفظه. فمن التمس السعادة حافظ عليه، ولو على حساب راحته وسروره، ومن باع آخرته بدنياه وآثر الحياة الفانية على الحياة الباقية، وفضل اللذة المؤقتة على اللذة الدائمة فإنه لا يبالي إن حفظ أو ضاع. هذا إذا كانت المرأة صالحة وأمراه بفراقها. أما إذا كانت سيئة الخلق، خبيثة المنبت، رديئة الطبع، جموح القيادة فطلاقها خير وأبقى.

* نحر أعرابي جزورًا، وقال لامرأته: أطعمي أمي منه. فقالت: أيها أطعمها؟ فقال: لها الورك، قالت: ظوهرت بشحمه وبطنت بلحمه،

---

(١) الأغاني: (٣/ ١٩١).
(٢) رواه أحمد والطبراني.
(٣) أخرجه أحمد وأبو داود.
(٤) رواه الترمذي.

لا لعمر الله. قال: فقطعي لها الكتف. قالت: الحاملة الشحم من كل مكان؟ لا لعمر الله. قال: فما تقطعين لها؟ قالت: اللَّحْي. ظوهرت بجلدة وبطنت بعظم. قال: فتزوديها إلى أهلك، وخلي سبيلها.

هذا مثال للمرأة السيئة، لا يصلح إحسانك فسادها، ولا يقوم صبرك عليها إعوجاجها، لأنها كالغصن اليابس إن لم تسرع إلى قطعه سرت عدواه إلى بقية الأغصان، فنبتت أفنانها أسوأ منه، أفيلام الزوج بعد هذا على تخليه سبيلها؟ أنصفن يا معشر النساء، ولا تنظرن إلى تلك المرأة كما لو كانت إحداكن بديلة منها، وأرادت إطعام حماتها من الجزور، بل انظرن إليها كما لو كانت زوجة أخيكن وأرادت إطعام أمكن، ثم احكمن بعد ذلك لها أو عليها.

قال الشاعر:

فـــلا تطـــع زوجـــةً في قطـــع والـــدةٍ
عليـــك يـــا ابـــن أخـــي قـــد أفنـــت العُمـــرا
فكيـــف تنكـــر أمّـــاً ثقلـــك احتملـــت
وقـــد تمـــرغـــتَ في أحشـــائهـــا شهـــرًا
وعـــالجـــت بـــك أوجـــاعَ النفـــاسِ وكـــم
سُـــرَّت لمـــا ولـــدت مـــولـــدهـــا ذكـــرًا
وأرضعتـــــك إلى الحـــــولين مكملـــــة
في حِجْـــرِهـــا تستقـــي مـــن ثـــديهـــا الـــدررا
ومنـــك ينجسهـــا مـــا أنـــت راضعـــه
منهـــا ولا تشتكـــي نتنـــاً ولا قـــذرًا

وقـــل هـــو الله بـــالآلاف تقـــرؤهـــا
خـــوفـــاً عليـــك وتـــرخـــي دونـــك السترا
وعـــاملتـــك بـــإحســـانٍ وتـــربيـــة
حتـــى استـــويـــتَ وحتـــى صرت كيـــف تـــرى
فـــلا تفضـــل عليهـــا زوجـــة أبـــدًا
ولا تـــدع قلبهـــا بـــالقهـــر منكسرًا
والـــوالـــد الأصـــل لا تنكـــر لتربيـــة
واحفظـــه لاسيمـــا إن أدرك الكبرا
فمـــا تـــؤدي لـــه حقّـــاً عليـــك ولـــو
على عيـــونـــك حـــج البيـــت واعتمـــرا

* أيها المضيع لآكد الحقوق، المعتاض من بر الوالدين العقوق، الناسي لما يجب عليه، الغافل عما بين يديه، بِرُّ الوالدين عليك دين، وأنت تتعاطاه باتباع الشين، تطلب الجنة بزعمك، وهي تحت أقدام أمك. حملتك في بطنها تسعة أشهر، كأنها تسع حجج. وكابدت عند الوضع مايذيب المهج، وأرضعتك من ثديها لبنًا، وأطارت لأجلك وسنًا، وغسلت بيمينها عنك الأذى، وآثرتك على نفسها بالغذاء، وصيرت حجرها لك مهدًا، وأنالتك إحسانًا ورفدًا، فإن أصابك مرض أو شكاية، أظهرت من الأسف فوق النهاية، وأطالت الحزن والنحيب، وبذلت مالها للطبيب، ولو خُيرت بين حياتك وموتها، لطلبت حياتك بأعلى صوتها، هذا وكم عاملتها بسوء الخلق مرارًا، فدعت لك بالتوفيق سرًّا وجهارًا. فلما احتاجت عند الكبر إليك، جعلتها من أهون الأشياء عليك، فشبعت وهي جائعة، ورويت وهي قانعة. وقدمت عليها أهلك وأولادك بالإحسان، وقابلت

أياديها بالنسيان، وصعب لديك أمرها وهو يسير، وطال عليك عمرها وهو قصير، هجرتها ومالها سواك نصير، هذا ومولاك قد نهاك عن التأفف، وعاتبك في حقها بعتاب لطيف، ستعاقب في دنياك بعقوق البنين، وفي أخراك بالبعد من رب العالمين، يناديك بلسان التوبيخ والتهديد: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾[1] [آل عمران: ١٨٢].

قضى الله أن لا تعبدوا غيره حتماً
فيا ويح شخص غير خالقه أما
وأوصاكمو بالوالدين فبالغوا في برهما
فالأمر في ذاك والرحما
فكم بذلا من روفة ولطافة وكم
منحا وقت احتياجك من نُهى
وأمك كم باتت بثقلك تشتكي
تواصل من ماشقها البؤس والغما
وفي الوضع كم قاست وعند ولادها
مشقّاً يذيب الجلد واللحم والعظما
وكم سهرت وجدًا عليك جفونها
وأكبادها لهفى بجمر الأس تحما
وكم غسلت عنك الأذى بيمينها
حنوًا وإشفاقًا وأكثرت الرما

---

(١) الكبائر: (٤٤).

فضيعتهـــا لمـــا أسنـــت جهـــالـــة
وضقـــت بهـــا ذرعـــاً وذوقتهـــا سُمّـــاً
وبـــت قـــريـــر العين ريـــانـــاً نـــاعمـــاً
مكبّـــاً على اللـــذات لا تسمـــع اللـــومـــا
وأمـــك في جـــوع شـــديـــد وغـــربـــة
تلين لهـــا ممـــا بهـــا الصخـــرة الصمـــا
أهـــذا جـــزاهـــا بعـــد طـــول عنـــائهـــا
لأنـــت لـــذو جهـــل وأنـــت إذًا أعمـــى

وعندما سُئل **ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ عن أصحاب الأعراف من هم؟ وما الأعراف؟ فقال: أما الأعراف فهو جبل بين الجنة والنار، وإنما سمي الأعراف لأنه مشرف على الجنة والنار وعليه أشجار وثمار وأنهار وعيون، وأما الرجال الذين يكونون عليه فهم رجال خرجوا إلى الجهاد بغير رضا آبائهم وأمهاتهم فقتلوا في الجهاد، فمنعهم القتل في سبيل الله عن دخول النار، ومنعهم عقوق الوالدين عن دخول الجنة، فهم على الأعراف حتى يقضي الله فيهم أمره[١].

* قال **مجاهد**: لا ينبغي للولد أن يدفع يد والده عنه إذا ضربه. ومن شد النظر إلى والديه فلم يبرهما، ومن أدخل عليهما حزنًا فقد عقهما[٢].

* قال **الأصمعي**: حدثني رجل من الأعراب، قال: خرجت من الحي أطلب أعق الناس وأبر الناس، فكنت أطوف بالأحياء، حتى انتهيت إلى

---

(١) الكبائر: (٤١).
(٢) البر والصلة لابن الجوزي: (١١٣).

شيخ في عنقه حبل يستقي بدلو لا تطيقه الإبل، في الهاجرة والحر الشديد، وخلفه شاب في يده رشاء من قد ملوي يضربه به، قد شقَّ ظهره بذلك الحبل، فقلت: أما تتقي الله في هذا الشيخ الضعيف؟ أما يكفيه ما هو فيه من مد هذا الحبل حتى تضربه؟ قال: إنه مع هذا أبي. قلت: فلا جزاك الله خيرًا. قال: اسكت فهكذا كان هو يصنع بأبيه، وكذا كان يصنع أبوه بجده. فقلت: هذا أعق الناس.

ثم جلت أيضًا حتى انتهيت إلى شاب، وفي عنقه زبيل فيه شيخ كأنه فرخ، فكان يضعه بين يديه، في كل ساعة، فيزقه كما يزق الفرخ. فقلت: ما هذا؟ قال: أبي وقد خرف، وأنا أكفله، قلت: فهذا أبر العرب[1].

ويذكر أن عاقًا كان يجر أباه برجله إلى الباب ليخرجه من الدار، فكان له ولدٌ أعقُّ منه، وكان يجره برجله إلى الشارع، وإذا بلغ به الباب، قال: حسبك، ما كنت أجر أبي إلا إلى هذا المكان فيقول له ولده: هذا جزاؤك، والزائد صدقة مني عليك.

فانظر رحمك الله إلى هذه الحادثة أيضًا تبين لك أن الحياة دين ووفاء، وأنك كما تُدين تُدان، فعامل أبويك بما تحب أن يعاملك به بنوك. ولا يكن هذا هدفك فحسب فإن هذا هدف دنيوي بل اجعل ابتغاء وجه الله أمام عينيك يكمُل إخلاصك وتنال مرادك.

أيها الشباب:

لا تحسبوا المال ثروة دائمة، فالمال يجيىء ويذهب والرجال كالأشجار يكسون ويعرون. وكم من غني كبير أصابتْ ماله جائحة فاستعطى؟ وكم

---

(١) المحاسن والمساويء: (٢٥٢).

من فقير معدم بسط الله له في الرزق فأصبح يُشار إليه بالبنان؟.

ولا تخالوا المال كل شيء في الحياة، فقد يكثر ولكنه ينفق على الصحة، ويبقى صاحبه عليلاً، محرومًا لذة الطعام والشراب، ويتمنى لو فقد ماله على أن تعود إليه صحته. وكم سمعنا أن غنيًّا حسد عاملاً على طعامه البسيط، تمنى أن يكون له مثل صحته فيعمل بيده مثله؟

قد يقل المال، ويقنع صاحبه بما آتاه الله فيكون سعيدًا، والغنى هو الرضا، رضا الوالدين خير من الدنيا وما فيها. يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**ليس الغنى عن كثرة العرضِ ولكن الغنى غنى النفس**». ولئن كان المال ذخرًا في الدنيا، فرضا الوالد ذخرًا في الدنيا والآخرة. والوالد شجرة وارفة تأوي إلى ظلها، وحصن منيع تلوذ به، وسيف قاطع يذب عنك، وراع يحميك، ومجرب يسدي إليك الحكمة التي تبصرك بشؤون الحياة، فإذا فقدته فقد خسرت كل هذه النعم. وكم من نعمة لا يعرف المرء قيمتها إلا بعد زوالها؟[1].

* قيل **لمعاوية بن قرة**: كيف ابنك؟ قال: نعم الابن كفاني أمر دنياي وفرغني لآخرتي[2].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال **المأمون** ـ رحمه الله تعالى ـ: لم أر أحدًا أبر من الفضل بن يحيى بأبيه. بلغ من بره أن يحيى كان لا يتوضأ إلا بماء مسخن، وهما في السجن، فمنعهما السجان من إدخال الحطب في ليلة باردة، فقام الفضل ـ حين أخذ

---

(١) بر الوالدين للحناوي: (١٠٣).

(٢) حلية الأولياء: (٣/ ١٢٤).

يحيى مضجعه ـ إلى قمقم كان يسخن فيه الماء، فملأه ثم أدناه من نار المصباح، فلم يزل قائمًا وهو في يده حتى أصبح[١].

وحكى غير المأمون أن السجان فطن لارتقافه بالمصباح في تغيير الماء فمنعه من الاستصباح في الليلة القابلة فعمد الفضل إلى القمقم مملوءًا فأخذه معه في فراشه وألصقه بأحشائه حتى أصبح وقد فتر الماء[٢].

وحضر **صالح العباسي** مجلس المنصور، وكان يحدثه، ويكثر من قوله: «أبي رحمه الله» فقال له الربيع: لا تكثر الترحم على أبيك بحضرة أمير المؤمنين. فقال له: لا ألومك فإنك لم تذق حلاوة الآباء. فتبسم المنصور وقال: هذا جزاء من تعرض لبني هاشم[٣].

والولد لا يفي والده حقه، مهما يبذل في سبيله، اللهم إلا في حال واحدة، اعتبرها رسول الله ﷺ مكافأة له، فقال: «**لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه**»[٤].

وحذر رسول الله ﷺ من عقوبة عقوق الوالدين فقال: «**ثلاثة لا ينفع معهن عمل: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف**» [رواه الطبراني].

وعن معاوية بن جاهمة السلمي: أن جاهمة ـ رضي الله عنه ـ أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت الغزو وجئت أستشيرك. فقال: «**هل لك**

---

(١) عيون الأخبار: (٣/ ٩٧).
(٢) البر والصلة لابن الجوزي: (٨٥).
(٣) محاضرات الأدباء: (١/ ٢٠٣).
(٤) أخرجه مسلم.

من أم؟» قال نعم. قال: «**الزمها فإن الجنة عند رجليها**»(١).

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبوي يبكيان. فقال: «**ارجع فأضحكهما كما أبكيتهما**»! وفي لفظ آخر: «**لا أبايعك حتى ترجع إليهما فتضحكهما كما أبكيتهما**»(٢).

إن انصراف الولد بكليته إلى خدمة أبويه. وقيامه بشؤونهما. وطاعته أوامرهما واعترافه بما لهما عليه من حق وفضل ـ ولا سيما والدته ـ مدعاة إلى فوزه برضا الله ـ تعالى ـ ودخوله الجنة.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله. قال: «**فهل من والديك أحد حي؟**». قال: نعم كلاهما، قال: «**فتبتغي الأجر من الله؟**» قال: نعم. قال: «**فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما**»(٣).

أخي المسلم:

إن الأجر الذي تطلبه ليس وقفًا على الجهاد. ولا قصوراً على الهجرة. فهناك عمل آخر هو خير وأبقى، يختص بك وحدك. ولا يرتبط بغيرك. ولا يمضيه أحد سواك. فيه الأجر الذي تطلبه والثواب الذي تبتغيه. ارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما. والزم خدمتهما وأطع أمرهما. وأدخل السرور على قلبيهما، فإن عملت ذلك عدل عملك الجهاد وفاقه.

* قال **بشر بن الحارث**: الولد بالقرب من أمه حيث تسمع نفسه أفضل

---

(١) رواه أحمد، والنسائي.

(٢) رواه البخاري، وأبو داود في الأدب المفرد.

(٣) رواه مسلم.

من الذي يضرب بسيفه في سبيل الله ـ عز وجل ـ، والنظر إليهما أفضل من كل شيء.

* قال **بعض العلماء**: من تغرب عن الوالدين في طلب عيش أو في ضرورة فليدمع وليسأل الله ـ جل وعلا ـ أن يغفر ذنبًا حرمه القرب من الوالدين.

ويظن الكثير أن الالتزام هو في العبادات من صلاة وصوم وغيرها ولا يتعدى ذلك إلى العلاقات الاجتماعية من رعاية والدين وتفقد الأقارب وزيارة الجيران.. والعبادة: «**اسم جامع لكل ما يحبه الله من الأقوال والأفعال والأعمال الظاهرة والباطنة**».

* **عن عطاء**: أن رجلاً أقسمت عليه أمه ألا تصلي إلا الفريضة، ولا تصوم إلا شهر رمضان. قال: يُطيعها.

وقال **هشام بن حسان**: قلت للحسن إني أتعلم القرآن، وإن أمي تنتظرني بالعشاء، قال الحسن: تعش العشاء مع أمك تقر به عينها، أحب إلي من حجة تحجها تطوعًا[1].

* قال **أبو الليث**: كان بعض الصالحين لا يأمر ولده مخافة أن يعصيه في ذلك فيستوجب النار[2].

والآن انقلبت الموازين واختلت المعايير.. انظر إلى حال بعض الشباب مع والديهم.. تأفف وتضجر، وإظهار للسخط وعدم الرضا.. بل وإظهار للشر ورفع للصوت، وعدم إجابة لحاجتهم، لا لعدم مقدرة،

---

(١) بر الوالدين لابن الجوزي (٤٥)

(٢) البركة في فضل السعي والحركة: (٩٧).

ولكن لقسوة القلوب، والبعد عن منهج الله في طاعة الوالدين، ولو أمره صديقه لما تردد ولما تأخر.

بل الملاحظة بين بعض الشباب والفتيات أن منزلة الصديق والصديقة أعلى من منزلة الأب والأم في تقديم العون والمساعدة والإسراع في ذلك.

* قال ﷺ: «**كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين، فإنه يعجل لصاحبه**» [رواه الحاكم].

* قال **كعب الأحبار**: إن الله ليعجل هلاك العبد إذا كان عاقًّا لوالديه ليعجل له العذاب، وإن الله ليزيد في عمر العبد إذا كان بارًّا بوالديه ليزيده برًّا وخيرًا[(١)].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

عن **ابن عون**: إن أمه نادته فأجابها، فعلا صوته صوتها فأعتق رقبتين[(٢)].

وكان **كهمس الدعاء** يعمل في الجص كل يوم بدانقين فإذا أمسى اشترى به فاكهة فأتى بها إلى أمه[(٣)].

أخي الحبيب:

مسكينة هذه المخلوقة التي تسمى (أمًّا) كم تقاسي من عنت وشدة في سبيل ولدها، منذ استقراره نطفة في رحمها حتى انتهاء لبثها في الدنيا؟ تحمله في بطنها، فيزداد نموه مع الأيام، ويزداد ثقله، وتقاسي من مرارة الوحام والقيء والحب والكره ما لا يوصف. ثم يبدأ في الحركة فيجول في بطنها ليلاً ونهارًا. يتجمع في ناحية منه فيضغط عليه كأنما يحاول تمزيق أحشائها،

---

(١) الكبائر: (٤١).
(٢) السير: (١/ ٣٦٦).
(٣) حلية الأولياء: (٦/ ٢١٢).

ثم يتحول إلى ناحية أخرى فيفعل بها كما فعل بالأولى. وهكذا لا يدعها تستريح لحظة، فإذا هدأ عن الحركة قلقت عليه، فأسرعت إلى القابلة تشكو أمرها فإذا اطمأنت على سلامته فرحت واستبشرت. ثم ينبت شعره فتقاسي منه ما لا يستطيع أحد وصفه، وينمو جسمه على حساب جسمها، ويدفع بطنها إلى التوسع، فتقاسي من ألم توسعه أكثر مما يقاسي أحدنا لو مط جلدة بطنه، ولا يدع الجنين أمه تهنأ في طعام أو تهدأ في نوم، وهو جزء عالق بها، ولكنه جزء مزعج مضن فهو منها كالرأس المصدوع، واليد المحمومة، والعين الرمدة، تؤلم في الحركة والسكون، واليد المحمومة، والعين الرمدة، تؤلم في الحركة والسكون، والنوم واليقظة، والمشي والجلوس، إلا أن ألمها يخف تدريجيًا وألم الجنين يزيد تدريجيًا.

لو أن شابًا قويًا حمل (كيلو جرامًا) في يده اليمنى وسار به فهل يستطيع المضي في السير والكيلو في يمناه من غير أن ينقله إلى يسراه؟ الجواب طبعًا: لا! وهذا مثال واقعي محسوس فما بالك بهذه المرأة التي تحمل في بطنها عدة كيلوات لا تنقلها من طرف إلى طرف، ولا من كتف إلى كتف. أليست تقاسي في هذا الشأن ما لا يقاسيه أقوى الرجال، وهي الواهية الواهنة الضعيفة؟ فإذا حل بها الشهر التاسع، وأزفت ساعة خروجه إلى الدنيا، حلت الطامة فلا هو براغب في البقاء في الأحشاء، ولا هو براغب في الخروج إلى دار الفناء. وهنا الشدة التي لا تُطاق، والمأزق الذي لا يسهل، والعقبة التي لا تُذلل. ثم لا يخرج في أكثر الأحيان إلا قسرًا وإرغامًا، فيمزق اللحم أو يبقر البطن أو تسلط عليه آلة الضغط، والطبيب يقطع لحم أمه، القابلة تجهد في سحبه. ثم يتسابق وروحها في الخروج، وكثيرًا ما تسبق الروح فتموت الأم ويحيى هو. وإذا كان لها فسحة في الأجل أفاقت بعد هذه المعركة اللاهبة،

حتى إذا ما رأته إلى جانبها تبسمت وقالت له: (تقبرني).

يا الله ما هذا الحنان؟ وما هذا الإيثار؟ تقاسي منه ما تقاسي، ثم تتمنى أن تموت في حال حياته، وأن يقبرها بيديه؟[١].

لأمـــــك حـــــق لـــــو علمـــــت كثير
كثيرك يـــــا هـــــذا لـــــديـــــه يسير
فكـــم ليلـــة بـــاتـــت بثقلـــك تشتكـــي
لهـــا مـــن جـــواهـــا أنـــة وزفير
وفي الـــوضـــع لـــو تـــدري عليهـــا مشقـــة
فمـــن غصـــص منهـــا الفـــؤاد يطير
وكـــم غسلـــت عنـــك الأذى بيمينهـــا
ومـــا حجـــرهـــا إلا لـــديـــك سريـــر
وتفـــديـــك ممـــا تشتكيـــه بنفسهـــا
ومـــن ثـــديهـــا شرب لـــديـــك نمير
وكـــم مـــرة جـــاعـــت وأعطتـــك قـــوتهـــا
حنـــانـــاً وإشفـــاقـــاً وأنـــت صغير
فـــآهـــاً لـــذي عقـــل ويتبـــع الهـــوى
وآهـــاً لأعمـــى القلـــب وهـــو بصير
فـــدونـــك فـــارغـــب في عميـــم دعـــائهـــا
فـــأنـــت لمـــا تـــدعـــو إليـــه فقير[٢]

---

(١) بر الوالدين للحناوي: (٧٨).
(٢) الكبائر: (٤٠).

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

كان الزبير بن هشام بارًّا بأبيه إن كان ليرقى إلى السطح في الحر فيؤتى بالماء البارد فإذا ذاقه فوجد برده لم يشربه وأرسله إلى أبيه[١].

وكان أبو هريرة يلي حمل أمه إلى المرفق وينزلها عنه، وكانت مكفوفة كبيرة[٢].

* رأى **ابن عمر** ـ رضي الله عنهما ـ رجلاً قد حمل أمه على رقبته وهو يطوف بها حول الكعبة. فقال: يا ابن عمر أتراني جازيتها؟ قال: ولا بطلقة واحدة من طلقاتها ولكن قد أحسنت، والله يثيبك على القليل كثيرًا[٣].

* **أخي المسلم**: لو أكرمك إنسان يومًا من الدهر أو يومين لأكثرت من الثناء عليه وشكره وتعداد محاسنه، فما بال والديك لا يريان إلا الجحود والصدود وهما من هَمَّا في حياتك.. عشرون سنة أو ثلاثون سنة وهما يكرمانك ويقدمان لك الغذاء والكساء والرحمة والحنان. ويمتدحونهما لك ومحبتك حتى تموت بل يمتد هذا الحب ليصل لأبنائك وأبنائهم.

لو لم يُحرم الله العقوق لكان من نبل الأخلاق عدم عقوقهما.

كرام الناس تتقدم منزلة والديهم على الصاحب والصديق معرفة منهم ووفاء لدين وقضاء لمعروف.. هذا وهم يقدمون الأجر والثواب على ذلك.

* * *

(١) البر والصلة لابن الجوزي: (٨٢).
(٢) المصدر السابق: (٨١).
(٣) الكبائر: (٤٢).

صور من العقوق[١]

١ ـ إبكاؤهما وتحزينهما بقولك أوفعلك أو غير ذلك:

فعن **عبد الله بن عمرو بن العاص** ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يبايعه، فقال: جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبوي يبكيان. قال: «**فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما**»[٢].

قال **ابن عمر**: بكاء الوالدين من العقوق والكبائر[٣].

وكما تقدم الحديث: «**رضا الرَّبِّ في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما**».

يا سبحان الله! أتدع والديك يبكيان، ويهتز لبكائهما عرش الرحمن، وتضج الملائكة في السموات وتزعم أنك تريد الجهاد ليرضى عنك الله؟ عد إليهما فأضحكهما بلقائك كما أبكيتهما بفراقك فإذا ضحكا رضيا وإن رضيا رضي الله ـ تعالى ـ عنك.

كل هذه الأحاديث تدل دلالة واضحة على أن الله ـ تعالى ـ أعد للوالدين منزلة عالية. وفرض لهما حقوقًا كثيرة. وقدم برهما على الجهاد في سبيله رحمة منه وفضلاً. وليس هذا البر في الحقيقة إلا نوع من الجهاد، فهو جهاد الجسم في الخدمة، وبالنفس في الطاعة. والمال في الإنفاق. ولا يقوم بذلك إلا من أراد الله له الخير وكتبه من السعداء.

---

(١) من كتاب [قضاء الدين بر الوالدين].

(٢) رواه أحمد.

(٣) الأدب المفرد للبخاري ص (٢٥).

٢ ـ إدخال المنكرات أو مزاولتها أمامهم:

مثل ترك الصلاة عمدًا، وشرب الخمر، واستماع آلات اللهو، ومشاهدة ما حرم الله ـ عز وجل ـ من الأفلام الخليعة، والصور الماجنة، وغيرها من المنكرات.

ووجه كون هذا من العقوق أنه إما يسخطا عليه ويؤذيهما، والله نهى عن قوله: ﴿أُفٍّ﴾ وهذا أكبر منه. أو أنهما يتبعانه فيقعان في الذنب والمعصية، فإن حبَّ الوالدين لابنهما يحملهما على السكوت عليه واتباعه، فيهلكون جميعًا، وقد قال المفسرون في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف: ٨٠] معناه: خشينا أن يحملهما حبه على اتباعه في دينه[١].

٣ ـ البراءة منهما أو التخلي عنهما:

* فعن أنس الجهني عن أبيه، أن النبي ﷺ قال: «**إن الله ـ تعالى ـ عبادًا لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم**» قيل: من أولئك يا رسول الله؟ قال: «**متبريء من والديه راغب عنهما، ومتبريء من ولده، ورجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم وتبرأ منهم**»[٢].

* وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا ترغبوا عن آبائكم، فمن رغب عن أبيه فهو كافر**»[٣].

ومن هذا التخلي عن الوالدين ما يحدث من بعض العاقين إما بطرده من البيت ـ والعياذ بالله ـ أو إدخاله في دور العجزة والمساكين، للتخلص منه

---

(١) فتح القدير: (٣/ ٣٠٤).
(٢) رواه الإمام أحمد.
(٣) رواه البخاري، ومسلم.

ومن الإنفاق عليه، ونسي كل الفضل والإحسان الذي قدم إليه من أبيه وأمه.

وليعلم أن النفقة على الوالدين والقيام بحقهما خصوصًا في حال الكبر والضعف أمر واجب يحاسب عليه الابن في الدنيا والآخرة.

سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن رجل عجز عن الكسب ولا له شيء، وله زوجة وأولاد، فهل يجوز لولده الموسر أن يُنفق عليه وعلى زوجته وإخوته الصغار؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين، نعم على الولد الموسر أن ينفق على أبويه وزوجة أبيه وعلى إخوته الصغار، وإن لم يفعل ذلك كان عاقًا لأبيه، قاطعًا لرحمه، مستحقًا لعقوبة الله ـ تعالى ـ في الدنيا والآخرة ـ والله أعلم ـ[1].

بل إن المال الذي بيد الابن هو للأب. قال رسول الله ﷺ لرجل قال له: يا رسول الله إن لي مالاً وولدًا، وإن أبي يريد أن يحتاج مالي، فقال: «**أنت ومالك لأبيك**»[2].

* وعن **زرعة بن إبراهيم** أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال: إن لي أمًّا بلغ بها الكبر، وإنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري مطية لها، وأوضئها وأصرف وجهي عنها، فهل أديت حقها؟ قال: لا! قال أليس قد حملتها على ظهري وحبست نفسي عليها؟ قال: إنها كانت تصنع ذلك بك وهي تتمنى بقاءك وأنت تتمنى فراقها!![3].

٤ ـ تقديم الزوجة على الأم أو الأب فيما للوالدين فيه دخل:

وهذا من العقوق أيضًا، وقد انتشر في زماننا، فإذا كان الولد آثمًا في

---

(١) مجموع الفتاوى: (٣٤/ ١٠١).

(٢) رواه ابن ماجه بسند صحيح.

(٣) بر الوالدين لابن الجوزي.

تقديم النوافل كما في قصة جريج حينما قال: أمي أو صلاتي؟ فقدم صلاته، عوقب. فما بالك بما هو دون ذلك، ويزداد الأمر سوءًا إذا كانت الزوجة سيئة أنانية تحاول إبعاد زوجها عن والديه ليبقى لها وحدها، أو تتأذى من بقائهما في داره وتحرمه عليهما فهذا من أكبر العقوق.

٥ ـ عدم زيارتهما والسؤال عنهما أو التأخير في ذلك:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لما خلق الله ـ عز وجل ـ الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فقال: مه. قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: أترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب. قال: فذلك لك**»[(١)]. ثم قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد: ٢٢].

ولقد عرف الصحابة هذا الأمر فكانوا حريصين عليه.

وكان **أبو هريرة** ـ رضي الله عنه ـ في بيت وأمه في بيت، فإذا أراد أن يخرج وقف على بابها فقال: السلام عليكم يا أمتاه ورحمة الله وبركاته، فتقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فيقول: رحمك الله كما ربيتيني صغيرًا، فتقول رحمك الله كما بررتني كبيرًا، ثم إذا أراد أن يدخل صنع مثله[(٢)].

ومن العقوق:

يا معشر الأبناء أن ينظر الولد إلى أبيه نظرة شزر عند الغضب. أو يعتبر نفسه مساويًا له. أو يتعاظم عن تقبيل يدي والديه أو لا ينهض لهما احترامًا وإجلالاً.

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد: ص(١٨).

ومن العقوق:

أن يستحوذ الغرور على الأولاد فيستحيون أن ينسبوا إلى آبائهم، لاسيما إذا كانوا في مراكز اجتماعية مرموقة، وبسطة في المال واسعة، وكان آباؤهم في مهن وضيعة، وضيق ذات يد في الرزق.

ومن العقوق:

أن لا ينفق الولد على أبويه الفقيرين فيضطرهما إلى إقامة الدعوى عليه ليلزمه القاضي الإنفاق عليهما.

وسب الوالدين من **أكبر العقوق** أن يجلب الولد السبة لوالديه بتعديه على غيره بالسب أو الضرب أو القذف أو الغيبة. ينصب الشيطان له شركًا فيقع فيه، فلا يجد لنفسه بردًا ولا عزاء إلا الشتم فيشتم ويُشتم.

ومن أقبح العقوق:

أن يتمنى الولد زوال أبيه ليرثه إن كان غنيًّا، أو ليتخلص منه إن كان فقيرًا، أو لينجو من مراقبته ومحاسبته إن كان مؤدبًا، كأن أباه وباء عليه.

حسَّن الله أخلاقنا، وأصلح نفوسنا، وهدانا سواء السبيل.

أخي الحبيب:

في القرآن الكريم آيات تأمر ببر الوالدين معًا، وآيات تفرد كل واحد منهما بالبر، وذلك دليل على اهتمام الشارع الحكيم بحقوقهما وبرهما. وأبلغ الأمثلة التي أوردها القرآن العظيم وهي صورة حية صادقة من صور البر قصة سيدنا إسماعيل ـ عليه السلام ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: ١٠١ ـ ٧٠١].

قال ـ تعالى ـ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ هو إسماعيل ـ كما يرجح سياق السيرة والسورة ـ وسنرى آثار حلمه الذي وصفه ربه به وهو غلام. ولنا أن نتصور فرحة إبراهيم الوحيد المفرد المهاجر المقطوع من أهله وقرابته. لنا أن نتصور فرحته بهذا الغلام، الذي يصفه ربه بأنه حليم.

والآن آن لنا أن نطلع على الموقف العظيم الكريم الفريد في حياة إبراهيم. بل في حياة البشر أجمعين. وآن لنا أيضًا أن نقف من سياق القصة في القرآن أمام المثل الموحي الذي يعرضه الله للأمة المسلمة من حياة أبيها إبراهيم.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ يا لله! ويا لروعة الإيمان والطاعة والتسليم.. هذا إبراهيم الشيخ. المقطوع من الأهل والقرابة، المهاجر من الأرض والوطن. هاهو ذا يرزق في كبره وهرمه بغلام. طالما تطلع إليه. فلما جاءه جاء غلامًا ممتازًا يشهد له ربه بأنه حليم. وهاهو ذا ما يكاد يأنس به، وصباه يتفتح، ويبلغ معه السعي، ويرافقه في الحياة.. ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد، حتى يرى في منامه أنه يذبحه، ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية. فماذا؟ إنه لا يتردد، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم.. يبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾ فهي كلمات المالك لأعصابه، المطمئن للأمر الذي يواجهه، الواثق بأنه يؤدي واجبه.

والأمر شاق ـ ما في ذلك شك ـ فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه

الوحيد إلى معركة. ولا يطلب إليه أن يكلفه أمرًا تنتهي به حياته.. إنما يطلب إليه أن يتولى هو بيده. يتولى ماذا؟ يتولى ذبحه.. وهو مع هذا يتلقى الأمر هذا التلقي، ويعرض على ابنه هذا العرض، ويطلب إليه أن يتروى في أمره، وأن يرى فيه رأيه!

إنه لا يأخذ ابنه على غرة لينفذ إشارة ربه. وينتهي. إنما يعرض الأمر عليه كالذي يعرض المألوف من الأمر. فالأمر في حسه هكذا. ربه يريد. فليكن ما يريد. على العين والرأس. وابنه ينبغي أن يعرف. وأن يأخذ الأمر طاعة وإسلامًا، لا قهرًا واضطرارًا. لينال هو الآخر أجر الطاعة، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم!

إنه يحب لابنه أن يتذوق لذة التطوع التي ذاقها، وأن ينال الخير الذي يراه هو أبقى من الحياة وأقنى.

فماذا يكون من أمر الغلام، الذي يعرض عليه الذبح تصديقًا لرؤيا رآها أبوه؟

إنه يرتقي إلى الأفق الذي ارتقى إليه من قبل أبوه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب، ولكن في رضا كذلك وفي يقين.. ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ في مودة وقربى فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده.. بل لا يفقده أدبه ومودته. ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾..

ثم هو الأدب مع الله، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال، والاستعانة بربه على ضعفه ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية، ومساعدته على الطاعة: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾. ولم يأخذها بطولة. ولم يأخذها شجاعة. ولم يأخذها اندفاعًا إلى الخطر دون

مبالاة. ولم يظهر لشخصه ظلاً ولا حجمًا ولا وزنًا. . إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه، وأصبره على ما يراد به: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾.

ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة. وعظمة الإيمان. وطمأنينة الرضا بأمر الله وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان. إن الرجل يمضي فيكب ابنه على جبينه استعدادًا. وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعًا. وقد وصل الأمر إلى أن يكون عيانًا.

لقد أسلما. . فهذا هو الإسلام. هذا هو الإسلام في حقيقته. ثقة وطاعة وطمأنينة ورضا وتسليم. وتنفيذ. وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم.

إنها ليست الشجاعة والجرأة. وليس الاندفاع والحماسة. قد يندفع المجاهد في الميدان، يقتُل ويُقتل. وقد يندفع الفدائي وهو يعلم أنه قد لا يعود. ولكن هذا كله شيء والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر. . ليس هنا دم فائر، ولا حماسة دافقة ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص! إنما هو الاستسلام الواعي المتعقل القاصد المريد، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون. لا بل هنا الرضا الهادىء المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل!.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾[1].

والبر بالوالدة موصول في قلب الابن المؤمن طاعة وامتثالاً لأمر الله

---

(١) في ظلال القرآن باختصار: (٥/ ٢٩٩٤).

ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان: ١٤].

إنها الأم الرءوم حملتك في بطنها تسعة أشهر، تزيدها بنموك ضعفًا، وتحملها فوق طاقتها عناء، وهي الضعيفة الجسم، الواهنة القوة. ثم أخرجتك، فيئست في خروجك من حياتها، فلما بصرت بك إلى جانبها نسيت آلامها، وعلقت فيك آمالها، ورأت فيك بهجة الحياة وزينتها، ثم انصرفت إلى خدمتك ليلها ونهارها، تغذيك بصحتها وتنميك بهزالها، وتقويك بضعفها، تخاف عليك رقة النسيم، وطنين الذباب، وتؤثرك على نفسها بالغذاء والراحة. فلما تم فصالك في عامين، وبدأت في المشيء، أخذت تحيطك بعنايتها، وتتبعك نظراتها، وتسعى وراءك خوفًا عليك، وبقيت ترعاك وتحنو عليك حتى آخر لحظاتها من الدنيا. ومن هنا قدمها الله ـ تعالى ـ في الطاعة على أبيك، ووصاك بها رسول الله ﷺ، بأكثر مما وصى بأبيك. والأحاديث في هذا الشأن كثيرة، نروي الآن بعضها ليتعظ الأبناء ويعرفوا حقوق أمهاتهم عليهم:

* عن **أبي هريرة** ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»[1].

هذا الحديث يبين بوضوح ما تستحقه الأم من بر وصلة، وخدمة وطاعة، لقاء ما بذلته من جهد ونصب، فخصها الشرع بثلاثة أضعاف ما

---

(١) رواه البخاري.

خص به الأب، وجعل للأب نصيبًا واحدًا لقاء إنفاقه وعطفه وتوجيهه ربعًا واحدًا.

قال **ابن بطال**: إن الأم تنفرد عن الأب بثلاثة أشياء:

صعوبة **الحمل**، وصعوبة **الوضع**، وصعوبة **الرضاع**.

وفي تقديم الأم على الأب حكمة بالغة، فهي ـ بالإضافة إلى ما تبذله من جهد يفوق جهده ـ في حاجة إلى من يعولها ويبرها، لأنها ضعيفة الجسم عديمة الكسب، ومن أولى ببرها من ابنها؟ ومن أحق بخدمتها والإحسان إليها منه؟

قال **الحسن البصري**: حق الوالد أعظم وبر الوالدة ألزم.

وروي عن **عمر** أن رجلاً قال له: قتلت نفسًا، قال: أمك حية؟ قال: لا، قال: فأبوك؟ قال: نعم، قال: فبره وأحسن إليه، ثم قال عمر: لو كانت أمه حية فبرها وأحسن إليها رجوت ألا تطعمه النار أبدًا[1].

واستمع يا أخي إلى كلمة **علي بن الحسين بن علي** ـ رضي الله عنهم ـ وقد ضرب لنا المثل الرائع في بر الوالدة حين قيل له: أنت من أبر الناس، ولانراك تؤاكل أمك؟ فقال: أخاف أن تسبق يدي إلى ما قد سبقت إليه عينها فأكون قد عققتها[2].

لا تعجب من هذا الجواب، فقائله من بيت النبوة نشأ في الإسلام على التقوى، وعرف حق أمه عليه فأقام لنفسه حدًّا دونه: عرف أن البر لا يكون بالكلام، وإنما هو اطمئنان في النفس، واعتراف بالفضل، ونكران

---

(١) جامع العلوم والحكم: (١٧٢).

(٢) البر والصلة: (٨٢).

للذات. وأن الرضا لا يكون باللسان، وإنما هو شعور يتدفق من القلب ويجري مع الدم فينبسط له الوجه ويبش.

عرف أن البر بالأم أن يشعر الولد بشعورها، ويدرك بحدسه ما يجول في نفسها، ويفهم من نظراتها مرادها، فإذا فقد هذه المعاني فقد حقيقة البر.

*** أنصف أيها العاقل وقل:**

لو أن أباك مرض يومًا فهل تهجر فراشك ليلاً، وتعطل عملك نهارًا، وتلزم سريره كما لو كنت أنت المريض؟

ولوأنه تأخر ساعة عن موعد حضوره إلى الدار مساء يوم، فهل تقلق عليه وتضطرب، وتحسب لتأخره ألف حساب كما لو تأخرت أنت؟

كم تخطيء معه فيصفح عنك؟ وكم يرى منك ما يسيء فيتغاضى عنك؟

لو أنه اضطر إلى تأديبك يومًا لأشار إلى أمك أن تشفع لك، ولو بكيت منه لبكى قلبه لبكائك، ولو نطق لسانه يومًا بالدعاء عليك لانبسط قلبه بالرجاء إلى الله ـ تعالى ـ ألا يقبل منه ما نطق.

*** أنصف أيها العاقل:**

أنصف وأجب وأسمع نفسك.. إنسان له عشرون سنة أو تزيد يتابعك بالنظر، ويجوع لتشبع ويعرى لتلبس.. يشقى لتسعد، ويعمل لترتاح، إذا عطشت أسقاك، وإذا ظمأت أرواك.. إذا مرضت داواك، وإذا بكيت أرضاك.. وإذا ضحكت فرح.. إذا نهضت أتبعك النظر.. وإذا جلست أتبعك الدعاء.. ما ظنك بهذا الرجل.. وما جزاؤه؟!

* هذارجل يطالب بمال فلا يؤديه، ويضرب من أجله فلا يسمح به، فلمَّا أُخذ ابنه وضُرب جزع. فقيل له: في ذلك فقال: ضرب جلدي

فصبرت، وضرب كبدي فلم أصبر[١]!!

كتب إبراهيم بن داحة إلى أحد أبويه: جعلني الله فداءك. فكتب إليه: لا تكتب بمثل هذا فأنت على يومي أصبر مني على يومك. أي إنك على يوم موتي أكثر صبرًا مني على يوم موتك، لأن موتي يؤلمك ثم يزول هذا الألم بعد حين، أما موتك فيجرح قلبي، وجرح القلب لا يبرأ.

ولـــــدي يـــــا نبضـــــة في خـــــافقـــــي
ولـــــدي يـــــا فلـــــذة مـــــن كبـــــدي
ولـــــدي يـــــا كـــــوكبـــــاً أرقبـــــه
كـــــي أرى فيـــــه ضيـــــاء الفـــــرقـــــد
كلمـــــا جفـــــت ينـــــابيـــــع الصفـــــا
بـــــك يصفـــــو سلسبيـــــلاً مـــــوردي
وريـــــاضي إن ذوت أزهـــــارهـــــا
أنـــــت فيهـــــا الطـــــل والـــــزهـــــر النـــــدي
وإذا مـــــزق صـــــدري زفـــــرة
كنـــــت أنـــــت الطـــــب يشفـــــي جســـــدي
أو تخلَّ الصمـــــت عـــــن مـــــوعـــــده
أنـــــت مـــــن يصـــــدقنـــــي في المـــــوعـــــدِ
إن ســـــألـــــت الله يـــــومًـــــا أن أرى
في خـــــريـــــف العمـــــر أزكـــــى مشهـــــدي

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء: (١/ ٢٠١).

فشبـــــاب خـــــاشـــــع في طـــــاعـــــة
طـــــاهـــــر النظـــــرة معصـــــوم اليـــــدِ
أو ســـــألـــــت الله يـــــومـــــاً أمـــــلاً
قبـــــل أن ألقـــــى الـــــردى في مـــــرقـــــدي
فلـــــذتي يخشـــــع في محـــــرابـــــه
ويبـــــاري النجـــــم عنـــــد الســـــؤددِ
ولـــــدي إن كنـــــت تـــــرجـــــو رحمـــــة
وســـــلامًـــــا مـــــن إلـــــه سرمـــــدي
فـــــاتخـــــذ خير دليـــــلٍ قبســـــاً
مـــــن سنـــــا القـــــرآن حتـــــى تهتـــــدي
وليكـــــن خير مكـــــان في الـــــدنـــــا
يـــــا هنـــــاء الـــــروح ركـــــن المسجـــــد
ولـــــدي إن كـــــان يـــــومـــــي حـــــالكًـــــا
أنـــــت إطـــــلالـــــة فجـــــري وغـــــدي
ونـــــدائـــــي في الحنـــــايـــــا أبـــــدًا
وهتـــــافي وحنينـــــي ولـــــدي

* * *

فضل بر الوالدين

أولًا: أنه من أفضل الأعمال:

عن **عبد الله بن مسعود** ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة في وقتها**». قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»(١).

ثانيًا: أنه سبب من أسباب مغفرة الذنوب:

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا . . .﴾ إلى أن قال: في آخر الآية الثانية: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦].

ثالثًا: أنه من أسباب دخول الجنة:

عن **أبي هريرة** ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رغم أنفه، رغم أنفه**». قيل: من يا رسول الله؟ قال: «**من أدرك والديه عند الكبر أحدهما، أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة**»[رواه مسلم].

رابعًا: أنه سبب في زيادة العمر:

عن **أنس بن مالك**: «من سره أن يمد له عمره ويزاد في رزقه فليبر والديه وليصل رحمه» [رواه أحمد].

خامسًا: أنه سبب في بركة الرزق:

فعن **أبي هريرة** ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سره أن**

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.

يبسط له في رزقه وأن ينسأ في أثره فليصل رحمه»[1] [رواه البخاري].

سادسًا: أنه سبب في بر أبنائك لك:

عن **ابن عمر** ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بروا آباءكم تبركم أبناؤكم، وعفوا تعف نساؤكم**». [رواه الطبراني].

* * *

(١) حدثني من أعرفه أن رجلاً طحنه الفقر، وأهلكه الجوع حتى إنه جاوز الثانية والثلاثين من عمره وهو لم يتزوج لعدم استطاعته، ولكنه كان بارًّا بأمه، ومن بره بها أنه حجَّ بها من نجد إلى الحجاز على ظهره. وقد فتح الله له أبواب الرزق الواسعة وأغدق عليه من فضله وجوده ما لا يُحصى فأصبح يُشار إليه بالبنان لغناه ويُسر حاله.

بر الوالدين بعد موتهما[١]

لم تكتف آيات سورة الإسراء بالأمر بالإحسان إلى الوالدين وإطاعتهما وإكرامهما، بل فرضت على الابن أن يذكر معروفهما وأياديهما بالشكر والثناء فلا ينساهما من الدعاء والاستغفار وطلب الرحمة: ﴿رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء: ٢٤]، ولا يقتصر على الدعاء لهما في حياتهما فحسب بل بعد موتهما أيضًا حيث تنقطع أعمالهما عن الدنيا، فلا يتزودان بأكثر مما قدما إلا بما يهبه لهما ابنهما، والسفر الطويل، والزاد مهما يبلغ ضئيل، ولا يسهل السفر ويعزز الزاد إلا أحد ثلاثة ذكرها الرسول ﷺ بقوله: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[٢].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «ترفع للميت بعد موته درجته. فيقول: أي ربي أي شيء هذا؟ فيقول له: ولدك استغفر لك»[٣].

ألا إن خير ما يرجو الولد لوالديه المغفرة لهما: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨]، وهو ما جاء على لسان الرسل الكرام، وطلب الرحمة لهما: ﴿رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء: ٢٤].

إن استغفاره لهما مقبول عند الله ـ تعالى ـ لأنه شكر على معروف. وإسداء لفضل، ووفاء لدين. والوالدان بعد موتهما في أشد الحاجة إلى الإحسان؛ لأنهما أدركا حقيقة المسؤولية الكبرى، وذاقا ضمة القبر وهول

---

(١) بر الوالدين للحناوي.
(٢) أخرجه مسلم وغيره.
(٣) أخرجه ابن ماجة.

الحساب، وندما على كل لحظة قضياها في حياتهما الدنيا في لهو وعبث، وتحسرا على ضآلة زادهما من العمل الصالح، وانقطع رجاؤهما إلا من رحمة الله ـ تعالى ـ، فإذا وصل إليهما خير من ولدهما تلقياه بابتهاج كما تتلقى الأرض الجدبة ماء السماء.

* حدث **مالك بن ربيعة الساعدي** ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله هل بقي عليَّ من بر أبوي شيء بعد موتهما أبرهما به؟ قال: «**نعم، خصال أربع: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما**»(١).

فالصلة إذن مازالت قائمة بين الولد وأبويه، يطلب الرحمة والمغفرة لهما من الله ـ تعالى ـ هي من قبلهما، فينال بذلك رضا الله ورضاهما. ومن الوفاء ألا ينسى الإنسان المعروف. ولا يجحد الفضل. ومن كافأ على معروف أسدي إليه، وهو لا يزال يعتبر نفسه مقصراً تجاه صاحبه، كان أكثر الناس وفاء ومروءة، والولد المغمور بأفضال والديه حري به أن يرى نفسه عاجزًا ومقصرًا ومدينًا، ولو بلغ في البر أقصاه.

* لما ماتت أم **إياس بن معاوية** بكى، فقيل: ما يبكيك؟ قال: كان لي بابان مفتوحان إلى الجنة، وغُلق أحدهما.

* وعن **رفاعة بن إياس** قال: رأيت الحارث العكلي في جنازة أمه

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه.

ـ يعني يبكي ـ فقيل له: تبكي؟ قال: ولِمَ لا أبكي وقد أُغلق عني باب من أبواب الجنة.

* وقال **عامر بن عبدالله بن الزبير**: مات أبي، فما سألت ـ حولاً ـ إلا العفو عنه[١].

* هذا **عبد الله بن عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنهما ـ يضرب لنا المثل الصالح في الولد الصالح، ويروي لنا **عبدالله بن دينار** ذلك فيقول: إن عبدالله بن عمر لقيه رجل بطريق مكة فسلم عليه عبدالله وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه، قال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله إنهم الأعراب، وإنهم يرضون باليسير. فقال عبد الله: إن أبا هذا كان ودًّا لعمر ابن الخطاب، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أبر البر صلة الرجل أهل وُدِّ أبيه**»[٢].

كما أن من برهما زيارة قبرهما ـ دون شد الرحال ـ والسلام عليهما والدعاء لهما.

زر والديك وقف على قبرهما
فكأنني بك قد حملت إليهما[٣]

أخي الحبيب:

عليك بأهل البر والصلاح واحذر الصديق العاق فإنه كالسراب يلمع ولا ينفع فإن من عق والديه وقطع رحمه يبغض في الله ولا يغرك منه صلته بك ولين حديثه فهو ليس من أهل الوفاء ولا من أصحاب الرحم الذين

---

(١) بر الوالدين لابن الجوزي: (٧٨).
(٢) رواه مسلم.
(٣) التذكرة: (٩٣).

يرون للعشير حقًا ويحفظون للصاحب مكانة وفضلاً.

عن بعض الحكماء: لا تصادق عاقًا، فإنه لن يبرك، وقد عق من هو أوجب منك حقًا[١].

أخي الشاب:

وصية من الله إليك من فوق سبع سماوات، من كتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة رسوله ﷺ.. هاهما بجوارك.. قد بدأ المشيب إليهما.. واحدودب منهما الظهر وارتعشت الأطراف.. لا يقومان إلا بصعوبة ولا يجلسان إلا بمشقة.. أنهكتهما الأمراض وزارتهما الأسقام والأوجاع.

عليك بوصية الله ـ جل وعلا ـ ووصية رسول الله ﷺ، ألن جانبك لهما وارع حقهما.. وقبل رأسهما، واسكب الدمعة لعل الله يرحمهما.. ويعفو عن تقصيرك في حقهما..

أخي الحبيب.. أخي الحبيب..

«ففيهما فجاهد»

---

(١) بر الوالدين لإبن الجوزي: (٦٣).

الخاتمة

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف: ١٥، ١٦].

اللَّهُمَّ اغفر لنا ولوالدينا، وأجزهم عنَّا خير الجزاء.

اللَّهُمَّ ارفع درجتهم واعلِ قدرهم، واجعل ما أصابهم تكفيراً لذنوبهم ورفعًا لمنزلتهم.

اللَّهُمَّ أسكنهم الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء.

* * *

المصادر

١ ـ الأدب المفرد للإمام البخاري، فرج أحادية محمد فؤاد، دار البشائر الإسلامية، ط٣/ ١٤٠٩هـ.

٢ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٣ ـ البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.

٤ ـ بر الوالدين لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوسي، تحقيق محمد عبد الحكيم، مؤسسة الكتب الثقافية، ط٣/ ١٤١١هـ.

٥ ـ بر الوالدين لابن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١/ ١٤٠٨هـ.

٦ ـ بر الوالدين، عبد الرؤوف الحناوي، ط١.

٧ ـ البركة في فضل السعي والحركة لأبي عبدالله محمد الجيش، دار المعرفة، ١٤٠٦هـ.

٨ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.

٩ ـ تاريخ عمر لابن الجوزي، تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.

١٠ ـ تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث.

١١ ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام القرطبي، دار الرياض، ط٢/ ١٤٠٧هـ.

١٢ ـ تسلية أهل المصائب، الإمام أبي عبدالله محمد بن محمد البنجي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

١٣ ـ تنبيه الغافلين، الفقيه نصر السمرقندي، تحقيق عبدالعزيز الوكيل، دار الشروق، ١٤١٠هـ.

١٤ ـ جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط ١٤٠٠هـ.

١٥ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.

١٦ ـ سير أعلام النبلاء، الإمام الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ.

١٧ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

١٨ ـ شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، مؤسسة الرسالة، ط٢/ ١٤٠٠هـ.

١٩ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس، دار المعرفة، ١٤٠٥هـ.

٢٠ ـ طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية ودار المعرفة، بيروت.

٢١ ـ العاقبة في ذكر الموت والآخرة للإمام أبي محمد عبد الحق الأشبيلي، تحقيق خضر محمد خضر، مكتبة دار الأقصى، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٢٢ ـ فتح القدير للإمام محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة.

٢٣ ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١٠/ ١٤٠١هـ.

٢٤ ـ قضاء الدين ببر الوالدين، لولوه الفضية، دار المسلم، ط١/ ١٤١٤هـ.

٢٥ ـ كتاب البر والصلة لابن الجوزي، تحقيق عادل عبدالموجود وعلي

معوض، مكتبة السنة، ط١/ ١٤١٣هـ.
٢٦ ـ كتاب الكبائر، للإمام شمس الدين الذهبي، دار كاتب وكتاب.
٢٧ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، تصوير، ط١/ ١٣٩٨هـ دار العربية.
٢٨ ـ مختصر تفسير ابن كثير، اختصار الشيخ محمد كريم راجح، دار المعرفة، بيروت، ط٣/ ١٤٠٧هـ.
٢٩ ـ مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ط٢/ ١٤٠٨هـ.
٣٠ ـ مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١/ ١٤٠٣هـ.
٣١ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، دار صادر بيروت، ١٣٩٧هـ.

* * *

اللهم سلم

مقدمـة

الحمد لله الذي أمَّن الخائفين منه وجعل مثواهم جنات عدن، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

وبعد:

في زمن النسيان والغفلة والأمل والتسويف أقدم للإخوة القراء الجزء العاشر من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟!**» تحت عنوان: «**اللَّهُمَّ سلِّمْ**».

وفيه ذكر فضيلة الخوف من الله التي تقود إلى العمل وتحرك الهمم. وطرزته بحال السلف خوفًا ورجاءً.

جعل الله لنا نصيبًا من ذلك ورزقنا خشيته سرًّا وعلانية. ورزقنا من التقوى ما نتزود به ليوم المعاد.

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

مدخل

لقد نثر طول الأمل رداءه على البعض فأصبح الكثير من الناس يقترف المحرمات، ويتهاون في الطاعات وأمسىٰ التسويف حاجزًا لهم عن التوبة، والفرح بهذه الدنيا منسيًا لما أمامهم من الأهوال والعقبات. فلم يطرق الخوف قلوبهم، ولم يلازم الوجل نفوسهم. فانهمكوا في الفرح والترح، وكأنهم مخلدون في هذه الدنيا.. تجاهلوا سيرة من كانوا قبلهم في تذكُّر الموت والخوف مما بعد الموت.. فقد كان يُقرأ على بعض السلف ما يُلـيِّـن القلوب ويحيي النفوس.. يَشْحِذُ الهمم، ويقوِّي العزائم ويزيل ران الغفلة والسفه.. فهذا **ابن المبارك** إذا قُرِيء عليه كتاب الزهد كأنه ثورٌ قد ذبح، لا يقدر أن يتكلم[1].

والخوف أخي الحبيب! عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في المستقبل.

ومن توقع مكروهًا في المستقبل سعىٰ إلى الاستعداد له، والمثابرة علىٰ اجتيازه، وقد جمع الله للخائف منه فضلاً عظيمًا، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٤٦].

قال **القرطبي**: المعنىٰ خاف مقامه بين يدي ربه للحساب، فترك المعصية[2].

وقال **ابن كثير** ـ رحمه الله ـ: أي خاف القيام بين يدي الله ـ عز وجل ـ،

---

(١) تذكرة الحفاظ (١/ ٢٧٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (١٧/ ١٧٦).

وخاف حكم الله فيه، ونهى النفس عن هواها، وردها إلى طاعة مولاها ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤١] أي: منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء[١].

وقال **مجاهد والنخعي** ـ رحمهما الله ـ: هو الرجل يهم بالمعصية، فيذكر الله فيدعها من خوفه.

وقال **محمد بن علي الترمذي** ـ رحمه الله ـ: جنة لخوفه من ربه، وجنة لتركه شهوته.

ومن فضل الله ومَنِّه على عباده الطائعين المنيبين ما جاء في الحديث القدسي، قال الله ـ تعالى ـ: «**وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أَمْنَيْن ولا خوفين، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع عبادي**»[٢].

وعن **أنس** ـ رضي الله عنه ـ قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط. قال: **لو تعلمونَ ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا**»، فغطى أصحابُ رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنينٌ[٣] [متفق عليه].

ومن ثمرة الخوف من الله ـ عز وجل ـ في الدنيا ما ذكره عامر بن قيس بقوله: من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء.

وانظر إلى أهل الوجل والخوف من الله؛ إنهم أهل القدوة، وأصحاب الكلمة المسموعة..

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٦٩).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الشعب.

(٣) الخَنِينُ: البكاء مع غُنَّةٍ وانتشاق الصوت من الأنف.

أما من عصىٰ الله وفرَّط في حدوده، فإنَّه زائغ النظرات، يترقَّب وقوع المصيبة.. بل هو في قلق وحسرة وندامة.

ويظن البعض أن الخوف هو خوف الدنيا الطبيعي من الوحوش والسباع والظلام والوحدة، وما علموا أن ما قطَّع قلوب المؤمنين الصادقين إنما هو الخوف من عذاب الله ورجاء رحمته وعفوه ومغفرته.

قال **عمر بن عبد العزيز**: اللهم إن كنت تعلم أني أخاف شيئًا دون يوم القيامة فلا تؤمِّن خوفي[1].

قال **يزيد بن حوشب** محدثًا بما كان يراه من صلاح القوم وخوفهم: ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز كأن النار لم تخلق إلا لهما.

وعن **عبد الرحمن بن الحارث بن هشام** قال: سمعت عبدالله بن حنظلة يومًا وهو على فراشه، وعُدتُّه من علَّته، فتلا رجل عنده هذه الآية: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] فبكى حتى ظننت أن نفسه ستخرج، وقال: صاروا بين أطباق النار ثم قام على رجليه، فقال قائل: يا أبا عبدالرحمن اقعد قال: منعني ذكر جهنم القعود، ولا أدري لعلي أحدهم.

فإن هذا هو الخوف المحمود الذي يحرك النفس البشرية إلى الاستعداد والعمل والاستقامة والإنابة.

وهذا هوالخوف الحقيقي والوجل الصادق..

كان **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ يسأل حذيفة.. أُنْشِدُك الله: هل سماني لك رسول الله ﷺ، يعني في المنافقين؟ فيقول: لا ولا أزكِّي بعدك أحدًا[2].

---

(١) تاريخ الخلفاء: (٢٢٤).

(٢) الجواب الكافي: (٧٩).

نعم هذا وهو عمر بن الخطاب.. أمير المؤمنين الفاروق وثاني الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين بالجنة.

بل ها هو قد جعل نقش خاتمه.. كفى بالموت واعظًا يا عمر[١]

مستوفدين على رَحْلٍ كأنهم
ركبٌ يريدون أن يمضوا وينتقلوا
عَفَتْ جوارحُهم عن كلِّ فاحشةٍ
فالصِّدقُ مذهبُهم والخوفُ والوَجِلُ[٢]

أخي المسلم:

إن اتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد. فإن اتباع الهوى يعمي عن الحق معرفة وقصدًا، وطول الأمل ينسي الآخرة ويصد عن الاستعداد لها[٣].

قال **الفضيل بن عياض**: إذا قيل لك: هل تخاف الله؟ فاسكت، فإنك إن قلت: نعم، كذبت، وإن قلت: لا، كفرت[٤].

فأين الخوف من الله؟ وأين التفكر في المآل والمعاد والجزاء والحساب..

أيها الحبيب:

هذا **أبو سليمان الداراني** لما حضره الموت، قال له أصحابه: أبشر فإنك تقدم على رب غفور رحيم. فقال لهم: ألا تقولون تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير.

---

(١) البداية والنهاية: (٧/ ١٤٧).
(٢) ترتيب المدارك: (١/ ٣٦).
(٣) الفوائد: (١٣٠).
(٤) تزكية النفوس: (١١٧).

وصدق الله ـ عز وجل ـ إذ يقول: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

والخوف ليس من الذنوب وحدها، بل أيضًا من سوء الخاتمة وسوء المنقلب.. قال عبدالرحمن بن مهدي: بات سفيان عندي فلما اشتدَّ به الأمر، جعل يبكي. فقال له رجل: يا أبا عبد الله أراك كثير الذنوب. فرفع شيئًا من الأرض، وقال: والله لذنوبي أهون عندي من ذا، إني أخاف أن أُسْلَبَ الإيمان قبل أن أموت[1].

قال ـ جل وعلا ـ: ﴿ يُخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝٣٧ ﴾ [النور: ٣٧].

نعم يا عبدالله لقد خافوا هذا اليوم العظيم يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾ [الحج: ٢].

قال **الحسن** ـ رحمه الله ـ: ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة، لا يأكلون فيها أكلة، ولا يشربون فيها شربة، حتىٰ إذا انقطعت أعناقهم عطشًا، واحترقت أجوافهم جوعًا، انصرف بهم ـ يقصد العصاة والمجرمين ـ إلى النار فسُقوا من عين آنية قد آن حرُّها، واشتدَّ لَفَحُها[2].

قال **وهيب بن الورد**: بلغنا أنه ضُرب لخوف الله مثلٌ في الجسد، قيل:

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ١٥٠).

(٢) الإحياء: (٤/ ٥٠٠).

إنما مثل خوف الله كمثل الرجل يكون في منزلة فلا يزال عامرًا مادام فيه ربه، فإذا فارق المنزل ربه وسكنه غيره خرب المنزل، وكذلك خوف الله ـ تعالى ـ إذا كان في جسد لم يزل عامرًا مادام فيه خوف الله، فإذا فارق خوف الله الجسد خرب، حتى إن المار يمرُّ بالمجلس من الناس فيقولون: بئس العبد فلان، فيقول بعضهم لبعض: ما رأيتهم؟ فيقولون: ما رأينا منه شيئًا غير أنا نبغضه، وذلك أن خوف الله فارق جسده.

وإذا مرَّ بهم الرجل فيه خوف الله، قالوا: نِعْمَ والله الرجل فيقولون: أي شيء رأيتم منه؟ فيقولون: ما رأينا منه شيئًا غير أنا نحبه[1].

فكَّرتُ في نارِ الجحيم وحرِّها
ياويلتاه ولاتَ حين مَنَاص
فدعوتُ ربيِّ إنَّ خَيْرَ وسيلتي
يومَ المعادِ شهادةُ الإخلاص[2]

جاء سائل إلى ابن عمر فقال لابنه: اعطه دينارًا، فلما انصرف قال ابنه: تقبل الله منك يا أبتاه، فقال: لو علمتُ أن الله يتقبل مني سجدة واحدة وصدقة درهم لم يكن غائب أحب إليَّ من الموت، أتدري ممن يُتقبل؟ إنما يتقبل الله من المتقين.

وقد فسر الحسن قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

قال: كانوا يعملون ما يعملون من أعمال البر وهم مشفقون؛ ألا

---

(١) التخويف من النار لابن رجب: (٥).
(٢) شذرات الذهب: (٤/٣).

ينجيهم ذلك من عذاب الله ـ عز وجل ـ[١].

ولهذا الفهم الصحيح والإدراك الصادق، قال: **يونس بن عبيد عن الحسن**: ما رأيت أطول حزنًا من الحسن. وكان يقول: نضحك ولعل الله قد اطلع على أعمالنا، فقال: لا أقبل منكم شيئًا.

والخوف من الله حصن من المهالك، وحماية دون المنزلقات.. قال **الفضيل**: من خاف الله دلَّه الخوف على كل خير[٢].

والقدرُ الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثًا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات كان ذلك فضلاً محمودًا، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضًا أو موتًا أو همًا لازمًا بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله ـ عز وجل ـ لم يكن محمودًا[٣].

قال **ابن القيم**: سمعت **شيخ الإسلام ابن تيمية** ـ قدس الله روحه ـ يقول: الخوف المحمود: ما حجز عن محارم الله[٤].

وحين مرَّ **طاوس** برأس (بائع الرؤوس) قد أخرج رؤوسًا، فغُشي عليه وكان إذا رأى الرؤوس المشوية لم يتعشَّ تلك الليلة[٥].

قال **سفيان بن عيينة**: خلق الله النار رحمة يخوف بها عباده لينتهوا.

---

(١) الزهد: (٤٢٠).
(٢) الإحياء: (٤/ ١٧٠).
(٣) التخويف من النار: (٣٣).
(٤) مدارج السالكين: (١/ ٥١٤).
(٥) حلية الأولياء: (٤/ ٤)، والبداية والنهاية: (٩/ ٢٧٢).

والخائفون الوجلون المشفقون هم أهل الصلاح والتقى والورع والزهد..

فإن من لامس الخوف شغاف قلبه وسرى في عروقه أورثه ذلك عملاً وصلاحًا.. أولئك الخائفون الذين سُئل عنهم ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال: قلوبهم بالخوف فرحة، وأعينهم باكية، يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا، والقبر أمامنا، والقيامة موعدنا، وعلىٰ جهنم طريقنا، وبين يدي الله موقفنا[١].

والخوف الحقيقي خوف السر والخلوة حيث لا يراك مخلوق ولا تراءي عيون وآذان هذا **أنس بن مالك يقول**: خرج عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يومًا، وخرجت معه، حتىٰ دخل حائطًا، فسمعته يقول: وبيني وبينه جدار، وهو في جوف الحائط: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين.. بَخْ[٢]، والله لتتقين الله يا ابن الخطاب أو ليعذبنَّك[٣].

وبكى **معاذ** ـ رضي الله عنه ـ بكاءً شديدًا فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: لأن الله ـ عز وجل ـ قبض قبضتين، فجعل واحدة في الجنة والأخرى في النار، فأنا لا أدري من أي الفريقين أكون[٤].

قال **موسىٰ بن مسعود**: كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه[٥].

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٩٤).
(٢) بَخ! أي: عَظُم الأمرُ وفَخُمَ.
(٣) محاسبة النفس: (٣١)، والزهد للإمام أحمد: (١٧١).
(٤) الزهر الفائح: (٢١).
(٥) الإحياء: (٤/ ١٨١).

قال **الحسن البصري**: يخرج من النار رجل بعد ألف عام يا ليتني كنت ذلك الرجل[١].

أيها الحبيب أولئك أعلام أمة محمد ﷺ فبهداهم اقتد وعلى نهجهم سر وأسرع الـخُطا.

قـال **شقيق بن إبراهيم** ـ رحمه الله ـ: ليس للعبد صاحب خيرًا له من الهمِّ والخوف، همٌّ فيما مضى من ذنوبـه وخوف فيمـا بقي لا يدري ما ينزل به.

وقال **عامر بن قيس** ـ رحمه الله ـ وكأنه يرى حال كثير منا: أكثر الناس فرحًا في الآخرة أطولهم حزنًا في الدنيا، وأكثر الناس ضحكًا في الآخرة أكثرهم بكاءً في الدنيا، وأخلص الناس إيمانًا يوم القيامة أكثرهم تفكرًا في الدنيا.

والإنسان ـ أخي المسلم ـ بين منزلتي الخوف والرجاء. . خوفٌ من الله، ورجاء لما عنده. وهو بهذا الميزان يسير خائفًا راجيًا.

قال **الفضيل بن عياض**: مادمت حـيًّا فلا يكن شيء عندك أخوف من الله ـ عز وجل ـ، وإذا نزل بك الموت فلا يكن عندك شيء أرجى من الله ـ عز وجل ـ[٢].

وقال **صالح بن أحمد بن حنبل**: كان أبي إذا دعا له رجل، يقول: الأعمال بخواتيمها[٣].

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٨١).
(٢) العاقبة: (١٤٦).
(٣) السير: (١١/ ٢٢٦).

أخي الحبيب:

للعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه للصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه، فمن قام بحق الموقف الأول هَوَّنَ عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفِّه حقه، شدَّد عليه ذلك الموقف، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧﴾ [الإنسان: ٢٦، ٢٧].

كان **شميط بن عجلان** يقول في مواعظه: إن المؤمن يقول لنفسه: إنما هي ثلاثة أيام: فقد مضى أمس بما فيه، وغدًا أمل لعلك لا تدركيه، إنما هو يومك فإن كنت من أهل غد فسيجيء رب غد برزق غد، إن دون غد يومًا وليلة تخترم فيه أنفس كثيرة فلعلك المخترم فيه.

كفى كل يوم همَّه، ثم حملت على قلبك الضعيف هم السنين والدهور والأزمنة وهمَّ الغلاء والرخص وهم الشتاء قبل أن يجيء، وهم الصيف قبل أن يجيء، فماذا أبقيت من قلبك الضعيف للآخرة؟

ما تطلب الجنة بهذا، متى تهرب من النار؟ كل يوم ينقص من أجلك ثم لا تحزن. أعطيت ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك، لا بقليل تقنع ولا من كثير تشبع.

فالعجب كل العجب لمن صدَّق بدار الحيوان كيف يسعى لدار الغُرور.

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال **أبو مسهر**: ما رأيت سعيد بن عبدالعزيز ضحك قط، ولا تبسَّم، ولا شكا شيئًا قط.

وقال بعض أصحاب الحسن: كنا ندخل على الحسن. فما هو إلا النار والقيامة والآخرة وذكر الموت[١].

وعندما سأل الحجاج سعيد بن جبير متعجبًا: بلغني أنك لم تضحك قط!! قال له: كيف أضحك وجهنم قد سُعِّرت، والأغلال قد نصبت، والزبانية قد أُعدَّت.

وعندما بكى الحسن فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أخاف أن يطرحني غدًا في النار ولا يبالي[٢].

أين أصحاب السهر والسمر والضحكات التي تجلجل من هذه الدرر؟!

امنعْ جُفونَكَ أن تذوقَ منامَا
وذَرِ الدموعَ على الخدودِ سجامَا
واعلمْ بأنَّك ميتٌ ومحاسبٌ
يا مَنْ على سُخْطِ الجليلِ أقامَا
لله قومٌ أخلصوا في حُبِّه
فرضَى بهم واختصَّهم خُدَّامَا
قومٌ إذا جَنَّ الظلامُ عليهم
باتوا هنالك سُجَّدًا وقيامَا
خُمصُ البطون من التعفُّف ضُمَّرا
لا يعرفون سوىٰ الحلالِ طَعَامَا

---

(١) العاقبة: (٣٩).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٢٣٣).

أخي الحبيب:

قال **ابن عون**: لا تثق بكثرة العمل فإنك لا تدري أيقبل منك أم لا؟! ولا تـأمن ذنوبـك فإنك لا تدري أَكُفِّرَتْ عنك أم لا؟ إن عملك مغيب عنك كله[١].

وقال **الحسن**: أدركت أقوامًا لو أنفق أحدهم ملء الأرض ما أمن لعظم الذنب في نفسه[٢].

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، فضيعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يُردُّ بأسه عن القوم المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند.

قال **معروف**: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق.

وقال **بعض العلماء**: من قطع عضوا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا[٣].

ولنرى البون الشاسع والفرق الكبير بيننا وبين مَنْ سبقنا.. بماذا كانوا يُطرِّزون مجالسهم وبماذا كانوا يجمِّلون حديثهم؟

قال **موسى بن مسعود**: كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وفزعه.

وكان **سفيان** إذا أخذ في ذكر الآخرة يبول الدم.

وصح أن **زُرارة بن أوفى** صلى بالناس الغداة، فلما قرأ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٢١١).
(٢) المصدر السابق.
(٣) الجواب الكافي: (٢٦).

﴿ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ [المدثر: ٨] خرَّ مغشيًا عليه فحُمل مَيِّتًا[١].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

بكى **بُديل بن ميسرة** حتى قرحت مَآقيه[٢]، فكان يعاتب في ذلك فيقول: إنما أبكي من طول العطش يوم القيامة[٣].

وهذا **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ وهو يسير بين الرجاء والخوف يقول: لو نادى منادٍ من السماء: أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون إلا رجلاً واحدًا، لخفت أن أكون هو، ولو نادى منادٍ: أيها الناس إنكم داخلون النار إلا رجلاً واحدًا لرجوت أن أكون هو[٤].

عن **عروة** عن أبيه قال: كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة أسلم عليها، فغدوت يومًا فإذا هي قائمة تقرأ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، وتدعو وتبكي وترددها. فقمت حتى مللت القيام فذهبت إلى السوق لحاجتي ثم رجعت فإذا هي قائمة كما هي، تُصلي وتبكي[٥].

عن **إبراهيم التيمي** قال: لقد أدركت ستين من أصحاب عبد الله في مسجدنا هذا أصغرهم الحارث بن سويد وسمعته يقرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ حتى بلغ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾[الزلزلة: ٧] قال: فيبكي ثم يقول: إن هذا الإحصاء شديد[٦].

---

(١) الإحياء: (١٦٩)، والسير: (٤/ ٥١٦).
(٢) مَآقٍ: جمع مَأق العين وهو مجرى الدمع من العين.
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٢٦٥).
(٤) حلية الأولياء: (١/ ٥٣).
(٥) صفة الصفوة: (٢/ ٢٢٩).
(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية: (٤/ ١٢٧).

أخي المسلم:

الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حطٌّ عن رحالهم إلا في الجنة أو النار، والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الأخطار، ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر، ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كل آنٍ من آنات السفر غير واقفة، ولا المكلف واقف وقد ثبت أنه مسافرٌ على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير[١].

قال **الجنيد** كنت بين يدي السرِّي ألعب وأنا ابن سبع سنين، فتكلموا في الشكر، فقال: يا غلام ما الشكر؟ قلت: أن لا يعصى الله بنعمه، فقال: أخشى أن يكون حظُّك من الله لسانك.

قال **الجنيد**: فلا أزال أبكي على قوله[٢].

وتأمل ـ أخي الكريم ـ في بُعْدِ النظرة وصدق الإخلاص والخوف من الله ـ عز وجل ـ. قال **يونس بن عبيد** دخلنا على محمد بن واسع نعوده فقال: وما يغني عني ما يقول الناس إذا أخذ بيدي ورجلي، فألقيت في النار[٣].

وقيل عن **يونس بن عبيد**: ما كان بأكثرهم صلاةً ولا صومًا ولكن لا والله ما حضر حقٌّ لله إلا وهو متهيِّيء له[٤].

---

(١) الفوائد: (٢٤٥).
(٢) السير: (١٤/٦٨).
(٣) محاسبة النفس: (٥١).
(٤) السير: (٦/٢٩١).

ونظر عمر بن عبد العزيز إلى رجل متغير اللون فقال له: ما الذي أرى بك؟

قال: أسقام وأمراض يا أمير المؤمنين إن شاء الله.

فأعاد عليه عمر فأعاد الرجل مثل ذلك ثلاث مرات.

فقال: إذا أبيت إلا أن أخبرك، فإني ذقت حلاوة الدنيا فصغر في عيني زهرتها وملاعبها، واستوى عندي حجارتها وذهبها، ورأيت كأن الناس يساقون إلى الجنة وأنا أساق إلى النار، فأسهرت لذلك ليلي وأظمأت له نهاري، كل ذلك صغير حقير في جنب عفو الله وثواب الله ـ عز وجل ـ وجنب عقابه[١].

أخي المسلم:

لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمرٌ، وله عليه فيه نهي، وله فيه نعمة، وله به منفعة ولذة، فإن قام لله في ذلك العضو بأمره واجتنب فيه نهيه فقد أدَّى شكر نعمته عليه فيه وسعى في تكميل انتفاعه ولذته به، وإن عطَّل أمر الله ونهيه فيه عطله الله من انتفاعه بذلك العضو، وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرَّته.

وله عليه في كل وقت من أوقات عبوديته تقدمه إليه وتقربه منه، فإن شَغَلَ وقته بعبودية الوقت تقدم إلى ربه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة تأخر، فالعبد لا يزال في تقدم أو تأخر ولا وقوف في الطريق البتة. قال ـ تعالى ـ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾[٢] [المدثر: ٣٧].

---

(١) التخويف من النار: (٤٤).

(٢) الفوائد: (٢٤٩).

ومن سبر حال الناس اليوم لم يجد للخوف في قلوبهم موطنًا ولا للوجل في أنفسهم مكانًا، بل ألهتهم الدنيا وغرتهم الأماني. فلا يرجون جنة ورحمة ولا يخافون نارًا وغضبًا.

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال **ابن أبي مُليكة**: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه[١].

وعندما سُئل **الحسن**: أتخاف من النفاق؟! قال: وما يؤمنني وقد خافه عمر ـ رضي الله عنه ـ[٢].

وكان **مالك بن دينار** يقوم طول ليله قابضًا على لحيته ويقول: يا رب قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار ففي أي الدارين منزل مالك؟![٣].

وكان بعضهم يبكي ليلاً ونهارًا، فقيل له في ذلك، فقال: أخاف أن الله ـ تعالى ـ رآني على معصية، فيقول: مُر عني فإني غضبان عليك[٤].

وأثر الخوف من الله يتجلَّى في صفات وأخلاق المؤمنين من محافظة على الأمانة وتأدية للحقوق وابتعاد عن المظالم. فحين خرج **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ إلى مكة فعرَّس في بعض الطريق فانحدر عليه راعٍ من الجبل فقال له: يا راعي بعني شاة من هذه الغنم، فقال: إنني مملوك، فقال: قل لسيدك أكلها الذئب، قال: فأين الله، فبكى عمر بن الخطاب ثم

---

(١) الجواب الكافي: (٧٩).
(٢) تذكرة الحفاظ: (٢/ ٤٥١).
(٣) جامع العلوم والحكم: (٧٠٠).
(٤) الزهر الفائح: (٩١).

غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال: أَعْتَقَتْك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

وأما ما شاع بين الناس من أخذ الحقوق ونقص المكاييل وبخس الموازين فهو علامة من علامات خُلُوِّ القلب من الخوف والمراقبة والمحاسبة والمراجعة.. وإلا فكل صغيرة وكبيرة ستعرض يوم القيامة.. فأين الاستعداد؟

قال **الحسن** ـ رضي الله عنه ـ: إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول: بيني وبينك الله، فيقول: والله ما أعرفك، فيقول: أنت أخذت طينة من حائطي وآخر يقول: أنت أخذت خيطًا من ثوبي.. فهذا وأمثاله قطع قلوب الخائفين[١].

أخي المسلم:

إنما يقطع السفر ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل.. فإذا حاد المسافر عن الطريق ونام الليل كله فمتى يصل إلى مقصده[٢]؟!

قال **سفيان الثوري**: رأيت رجلاً متعلقًا بأستار الكعبة وهو يقول: اللَّهُمَّ سَلِّم، فقلت له: ما شأنك؟ وممَّ تطلب السلامة؟ فقال لي: يا أخي.. كنا أربعة إخوة، تنصَّر أحدُنا عندًا، وتهوَّد الآخر، وتمجَّس الثالث، وبقيت أنا خائفًا من الله ـ تعالى ـ، وراغبًا في السلامة[٣].

* بين العبد وبين الله قنطرة تقطع بخطوتين: خطوة عن نفسه، وخطوة عن الخلق، فيسقط نفسه ويلغيها فيما بينه وبين الناس، ويُسقط الناس

---

(١) الزهر الفائح: (٦٩).
(٢) الفوائد: (١٣١).
(٣) الزهر الفائح: (٣٤).

ويلغيهم فيما بينه وبين الله، فلا يلتفت إلا إلى مَنْ دله على الله وعلى الطريق الموصلة إليه[١].

وعن **عثمان بن أبي دهرش** أنه كان إذا رأى الفجر قد أقبل عليه تنبَّه وقال: أصير الآن مع الناس ولا أدري ما أجني على نفسي[٢].

وقال **أبو القاسم الحكيم**: من خاف شيئًا هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه[٣].

وعندما قيل لأبي عبدالله **أحمد بن حنبل**: ما أكثر الدَّاعين لك، تغرغرت عينه وقال: أخاف أن يكونَ هذا استدراجًا[٤].

أخي المسلم:

أعظم الخلق غرورًا من اغترَّ بالدنيا وعاجلها، فآثرها على الآخرة، ورضي بها من الآخرة، حتى يقول بعض هؤلاء: الدنيا نقد، والآخرة نسيئة، والنقد أحسن من النسيئة ويقول بعضهم: ذرة منقودة، ولا دُرَّة موعودة.

ويقول آخر منهم: لذات الدنيا متيقنة، ولذات الآخرة مشكوك فيها، ولا أدع اليقين بالشك.

وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله، والبهائم العجم أعقل من هؤلاء، فإن البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تُقْدِمْ عليه ولو ضُربت، وهؤلاء يقدم أحدهم على عطبة وهو بين مصدِّق ومكذِّب.

---

(١) الفوائد:)٧٢(.
(٢) صفة الصفوة: (٢/ ٢١٨).
(٣) تزكية النفوس: (١١٧).
(٤) الورع عبد الله بن حنبل: (١٥٢).

فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء فهو من أعظم الناس حسرة لأنه أقدم على علم، وإن لم يؤمن بالله ورسوله فأبعد له[١].

أخي الحبيب:

أين موقع قدمك؟ وما هو عملك وأين مكانك غدًا عندما ينصرف الناس إلى أحد الدارين وهل تجهزت لهذا الأمر كما تحرص وتجتهد في أمر الدنيا؟!

قال **إبراهيم التيمي**: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مُكذِّبًا[٢]؟!

قال **الغزالي** عن الخوف: إنه يقمع الشهوات، ويكدِّر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهًا عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سُمًّا فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذل القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهمِّ لخوفه، والنظر في عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة، والمجاهدة والضنة بالأنفاس، واللحظات[٣].

* قالت فاطمة بنت عبد الله بن مروان **امرأة عمر بن العزيز**: يكون في الناس من هو أكثر صومًا وصلاةً من عمر، وما رأيت أحدًا أشد خوفًا من ربه من عمر، كان إذا صلى العشاء قعد في المسجد ثم رفع يديه فلم يزل يبكي حتى يغلبه النوم، ثم ينتبه فلا يزال يدعو رافعًا يديه يبكي حتى تغلبه عيناه[٤].

---

(١) الجواب الكافي: (٣٦).
(٢) الجواب الكافي: (٧٩).
(٣) الإحياء: (٤/١٦).
(٤) تذكرة الحفاظ: (١/١٢٠).

هذا هوالخوف الذي يمنع من الوقوع في المعصية ويحول دون اقتراف السيئة..

قال حكيم من العلماء: الحزن يمنع الطعام، والخوف يمنع الذنوب، والرجاء يقوّي على الطاعة، وذكر الموت يزهِّد في الفضول[1].

والخوف المطلوب يجب أن لا ينقلب إلى اليأس والقنوط من رحمة الله لأنه: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧].

فرحمة الله وسعت كل شيء وهو الرحيم الغفور الجواد الكريم ولكن لابد من الخوف وتذكر الآخرة وما أعده الله ـ عز وجل ـ للعصاة المذنبين حتى يكون ذلك الخوف مانعًا له من تخطي حواجز المعاصي والولوج في مائها والوقوع في أدرانها.

ولابد من بقاء الأمل برحمة الله وما أعده الله ـ عز وجل ـ من نعيم وثواب جزيل للمؤمنين المتقين الذين يقفون عند حدود الله.

مهما يكن من أمر فإن عصرنا هذا الذي تفشَّى فيه مرض الغفلة عن الله وتنازعتنا الدنيا بزينتها وانتشر وباء التبلُّد وعدم الاهتمام بالمصير فيما بعد هذه الحياة الدنيا.. يتطلب منا أن نلجأ إلى الدواء ونلتمس مواطن الخلل.. نتذكر الدار الآخرة وما أعد الله فيها للمحسنين وما أعد الله فيها للعاصين المذنبين.. لعل قلوبنا تستيقظ من غفلتها وتهب من رقدتها.

وحالنا لاهية ضاحكة عابثة كيف تكون حال من سبقنا؟ أيا ترى هم مثلنا في الغفلة والتفريط؟!

---

(١) تنبيه الغافلين: (٢/٤١٩).

قال **إبراهيم بن عيسى**: ما رأيت أطول حزنًا من **الحسن** وما رأيته إلا حسبته حديث عهدٍ بمصيبة[١].

وحين دخل العلاء بن محمد على **عطاء السليمي** وقد غُشي عليه، فقال: لامرأته أم جعفر: ما شأن عطاء؟! فقالت: سجرتْ جارتنا التنور، فنظر إليه فخرَّ مغشيًا عليه[٢].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال **سليمان الداراني**: ما رأيت من الخوف أظهر عليه من **الحسن بن صالح** قام ليلة بـ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ فغُشي عليه، فلم يختمها إلى الفجر[٣].

إذا مـــا اللَّيـــلُ أظلـــم كَـــابَـــدُوه
فيُسْفِـــرُ عنهـــم وهـــم رُكُـــوعُ
أطـــارَ الخـــوفُ نـــومَهـــم فقـــامُـــوا
وأهـــل الأمـــن في الـــدنيـــا هُجُـــوعُ

يا مغرورًا بالأماني، لُعن إبليس وأُهبط من منزل العزِّ بترك سجدة واحدة أمر بها، وأُخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها. وأُمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قَدْرِ الأنملة فيما لا يحلُّ، وأُمر بإيساع الظهر سياطًا بكلمة قذف أو بقطرة من مُسكر، وأبان عضوًا من أعضائك بثلاثة دراهم.

فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصيه ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾ [الشمس: ١٥].

دخلت امرأة النار في هِرَّةٍ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٢٣٣).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٣٢٦).
(٣) تذكرة الحفاظ: (١/ ٢١٦).

يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب، وإن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة، فإذا كان عند الموت جار في الوصية فيختم له بسوء عمله فيدخل النار، العمر بآخره والعمل بخاتمته[١].

ولهذا كان **سفيان** يبكي ويقول: أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت[٢].

والدنيا عند هؤلاء معبر للآخرة ما رأوا أمراً إلا تمثَّلت أمامهم الآخرة وما وقفوا بموقف إلا تذكروا الموقف الأكبر.. إنها حياة القلوب.

قالت: **رابعة بنت إسماعيل**: ما سمعت الأذان إلا ذكرت منادي القيامة، ولا رأيت الثلج إلا ذكرت تطاير الصحف، ولا رأيت جرادًا إلا ذكرت الحشر.

والقلوب المتجددة الإيمان يسري في نبضتها ومضات الخوف وتستشعر الموقف مع كل لحظة تعلم اقتراب الأجل وبعد نهاية كل يوم توقن بدنوِّ الحساب والعقاب.

قال **خالد بن خداش**: قرىء على عبد الله بن وهب كتاب أهوال يوم القيامة ـ تأليفه ـ فخرَّ مَغْشيًّا عليه. قال: فلم يتكلم بكلمة حتى مات بعد أيام رحمه الله ـ تعالى ـ[٣].

أخي المسلم:

إن قوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه. وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته

---

(١) الفوائد: (٨٣).
(٢) جامع العلوم والحكم: (٧٠).
(٣) السير: (٩/ ٢٢٦).

وأفعاله، وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال، وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال، أن يمنع عن المحظورات ويسمَّى الكف الحاصل عن المحظورات ورعًا، فإن زادت قوته كفَّ عما يتطرق إليه إمكان التحريم فكفَّ أيضًا عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى، إذ التقوى أن يترك ما يريبه، إلى مالا يريبه، وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس. وهو الصدق في التقوى، فإذا انضم إليه التجرد للخدمة فصار لا يبني ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله ـ تعالى ـ نفسًا من أنفاسه فهو الصدق، وصاحبه جدير بأن يسمى صديقًا ويدخل في الصدق التقوى، ويدخل في التقوى الورع، ويدخل في الورع العفة فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة، فإذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكفِّ والإقدام ويتجدد له بسبب الكفِّ اسم العفة وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل محظور، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعًا، ووراء اسم الصديق والمقرب[1].

عن **يحيى بن الفضل** قال: سمعت بعض من يذكر عن محمد بن المنكدر أنه بينما هو ذات ليلة قائم يصلي إذ استبكى فكثر بكاؤه ففزع له أهله، فسألوه ما الذي أبكاك؟ فاستعجم عليهم، فتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم وأخبروه بأمره، فجاء أبو حازم إليه فإذا هو يبكي، فقال: يا أخي ما الذي أبكاك قد رُعت أهلك؟! فقال له: إني مرَّت بي آية من كتاب الله ـ عز وجل ـ، قال: ما هي؟ فقال: قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٦٤).

﴿ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: ٤٧] قال: فبكى أبو حازم واشتد بكاؤهما، قال: فقال بعض أهله لأبي حازم جئنا بك لتفرِّج عنه فزدته.

قال: فأخبرهم ما الذي أبكاهما[١].

وما شاب رأسي عن سنين تتابعت
عليَّ ولكنْ شيَّبَتْنِي الوقَائِعُ[٢]

وعندما سُئل حسان بن أبي سنان في مرضه: كيف تجدك؟! قال: بخير إن نجوت من النار[٣].

وهذه نصائحٌ غالية ودررٌ صافية من مُطرف بن عبدالله إذ يقول: اجتهدوا في العمل فإن يكن الأمر كما نرجو من رحمة الله وعفوه كانت لنا درجات، وإن يكن الأمر شديدًا كما نخاف ونحذر لم نَقُلْ ربنا أرجعنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل، نقول: قد عملنا فلم ينفعنا ذلك[٤].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال يوسف بن أسباط: رأيت الحسن ثلاثين سنة لم يضحك وأربعين سنة لم يخرج، قال: وقال الحسن: لقد أدركت أقوامًا ما أنا عندهم إلا لص[٥].

ولما احتضر عمرو بن قيس بكى، فقال له أصحابه: على ما تبكي في الدنيا فوالله لقد كنت تبغض العيش أيَّام حياتك؟! فقال: والله ما أبكي على

---

(١) صفة الصفوة: (٢/ ١٤١)، السيرة: (٥/ ٣٥٥).
(٢) شذرات الذهب: (١١٨).
(٣) الزهر الفائح: (١٠١).
(٤) جامع العلوم والحكم: (٢٨٣).
(٥) صفة الصفوة: (٣/ ٢٣٤).

الدنيا إنما أبكي خوفًا أن أحرم خوف الآخرة[١].

قد كُنتَ ميتاً فصرتَ حيا
وعن قليلٍ تَصِيْرُ حيًّا
بنيت بدار الفناءِ بيتًا
فابْنِ لدار البقاءِ بيتا[٢]

وهذه القلوب العامرة بالطاعة والعيون المنهمرة بالعبرات ملأ الخوف والرجاء جوانحها وأثار مكامنها.. تهبُّ إلى جنات عدن.. ترجو رحمة الله وتخشى عذابه.

قال أبو **سليمان الدَّاراني** ـ رحمه الله ـ: ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب[٣].

فانظر ـ أخي الحبيب ـ إلى قلبك واصدق القول مع نفسك.. ما منزلة الخوف من الله في نفسك؟!

أخي:

طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيرُه وطلبه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلى غيره، وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته، وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات وحبسها على الواجبات والمندوبات، فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه فيخلِّصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه، ومتى لم يصبر على هٰذين الحبسين وفرَّ منهما إلى فضاء الشهوات أعقبه ذلك الحبس

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ١٢٥).
(٢) ديوان الإمام علي: (٥٢).
(٣) الإحياء: (٤/ ١٧٠).

الفظيع عند خروجه من الدنيا، فكل خارج من الدنيا، إما متخلِّص من الحبس، وإما ذاهب إلى الحبس[١].

وهذا الحبس أدمىٰ الأفئدة، وأبكى العيون، وجرح القلوب..

بكى **عبدالله بن رواحة** فبكت امرأته فقال: ما يبكيكِ؟ قالت: رأيتك بكيت فبكيت لبكائك، قال: إني أنبئت أني وارد، ولم أنبَّأ أني صادر[٢].

قال **التيمي**: شيئان قطعا عني لذة الدنيا، ذكر الموت، وذكر الموقف بين يدي الله ـ تعالى ـ[٣].

وقيل: إن **أبا عبيدة الخواص** لم يضحك منذ أربعين سنة، ولا رفع رأسه إلى السماء حياء من الله.

إذا المـــــرء لم يكفـــــفْ بـــــوادرَ غيظـــــه
شكـــا الـــدهـــر أو ألقـــى المقـــادة صـــاغـــرا
وإنْ هـــو لم يـــزجـــرْ عـــن الغـــي نفســـه
أصـــاب لهـــا مـــن حـــادث الـــدهـــر زاجـــرا

قال **حفص بن غياث**: كنا ذات يوم عند ابن ذر وهو يتكلم فذكر رواجف القيامة وزلزالها، فوثب رجل من بني عجل، يقال له: ورّاد، فجعل يبكي ويصرخ ويضطرب، فحُمل من بين القوم صريعًا، فقال ابن ذر: ما الذي قصّر بنا وكلم قلبه حتى أبكاه؟! والله إن هذا يا أخا بني عجل إلا من صفاء قلبك وتراكم الذنوب على قلوبنا[٤].

---

(١) الفوائد: (٧٠)
(٢) الزهر الفائح: (٢٩٤).
(٣) التذكرة للقرطبي: (١٠).
(٤) صفة الصفوة: (٣/ ١٦١).

إن الأماني الكاذبة والآحلام الباطلة والتسويف الطويل سببٌ من أسباب الغفلة وران على القلوب الضعيفة.. فها نحن كل يوم نسمع عن الموت وتطرق مسامعنا المواعظ والخطب.. والقلوب كما هي.. غفلة طويلة وسبات عميق فلا حول ولا قوة إلا بالله.

قال **مالك بن دينار** لو استطعت أن لا أنام لم أنم مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعوانًا لفرقتهم ينادون في سائر الدنيا كلها: أيها الناس النار النار[١].

وهذا الخوف والوجل متى ينتهي.. ومتى يزول؟!

قال **معاذ بن جبل** ـ رضي الله عنه ـ: إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه.

أخي المسلم:

إذا استغنى الناس بالدنيا فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله، وإذا أنسوا بأحبابهم فاجعل أنسك بالله، وإذا تعرَّفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقرَّبوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة فتعرَّف أنت إلى الله وتودَّدْ إليه تنل بذلك غاية العز والرفعة[٢].

قال **سهل بن عبدالله**: من دقَّ الصراط عليه في الدنيا عرض عليه[٣] في الآخرة ومن عرض عليه الصراط في الدنيا دق عليه في الآخرة[٤].

والمسلم في هذه الدنيا بين أمرين يملآن جوانحه ويضيفان عليهما من

---

(١) حلية الأولياء: (٢/ ٣٦٩).
(٢) الفوائد: (١٥٢).
(٣) عرض: أي وسع.
(٤) صفة الصفوة: (٤/ ٦٤).

نبعه ألا وهما الخوف والرجاء. . الخوف من الله والرجاء فيما عند الله. .

قال الحسن: الرجاء والخوف مَطِيَّتا المؤمن.

فإذن لابد من الجمع بين هذه الأمور، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت، أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف فإن ذلك يقطع أنياط قلبه ويعين على تعجيل موته.

وأما روح الرجاء فإنه يقوي قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه، ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محبًّا لله ـ تعالى ـ ليكون محبًّا للقاء الله ـ تعالى ـ، فإن من أحب لقاء الله ـ تعالى ـ أحب الله لقاءه، والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب[١]

وقال **ابن القيم** ـ رحمه الله ـ: إن الخوف إن أدى إلى القنوط واليأس من رحمة الله فهو مذموم، بل إساءة أدب على رحمة الله ـ تعالى ـ، التي سبقت غضبه، وجَهْلٌ بها[٢].

وكان **أبو عبيدة الخواص** ـ رضي الله عنه ـ يقول في مناجاته: قد كبر سني، وضعف جسمي، ووهن العظم مني فاعتقني[٣].

وقد أثنى الله ـ جلَّ وعلا ـ على من قرن الخوف بالرجاء في مواضع كثيرة من كتابه فقال ـ تعالى ـ في حق الأنبياء ـ عليهم السلام ـ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٧٤).

(٢) مدارج السالكين: (٢/ ٤٢).

(٣) الزهرة الفائح: (١١١).

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: الخشية أبدًا متضمنة للرجاء ولولا ذلك لكانت قنوطًا، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنًا، فأهل الخوف لله والرجاء له هُمْ أهل العلم الذين مدحهم الله.

أيا عجبًا للناسِ في طولِ ما سهَوا
وفي طول ما اغتروا وفي طول ما لهو
يقولون نرجو الله ثمَّ افتروا به
ولو أنهم يرجون خافوا كما رجوا

قال **أبو سليمان الداراني**: أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله ـ عز وجل ـ، وكل قلب ليس فيه خوف فهو قلب خَرب[1].

يا فرقة الأحباب لابدَّ لي منكِ
ويا دار دنيا إنني راحلٌ عنكِ
ويا قصر الأيام ما لي وللمُنى
ويا سكرات الموتِ مالي وللضحك
فما لي لا أبكي لنفسي بعبرة
إذا كنت لا أبكي لنفسي فمن يبكي
ألا أي حي ليس بالموت موقنًا
وأي يقين أشبه اليوم بالشك

اشتكى ثابت البناني عينه فقال له الطبيب: اضمن لي خصلة تبرأ عينك. قال: ما هي؟ قال: لا تبك. قال: وما خير في عين لا تبكي[2].

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٥٩).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٢٦٢).

وكان **الحسن** يقول: ما اغْرورقتْ عين بمائها من خشية الله إلا حرَّم الله جسدها على النار، فإن فاضتْ على خدها لم يرهق ذلك الوجه قتر ولا ذلة، وليس من عمل إلا له وزن وثواب إلا الدمعة من خشية الله فإنها تطفيء ما شاء الله من حرِّ النار ولو أن رجلاً بكى من خشية الله فإنها تطفيء ما شاء الله من حرِّ النار ولو أن رجلاً بكى من خشية الله في أمة لرجوت أن يرحم الله ببكائه تلك الأمة بأسرها[١].

رحمنا الله برحمته وأزال قساوة قلوبنا أين تلك الدموع وأنات الضلوع؟ بل أين التوبة والرجوع؟.

ونحن أحوج ما نكون لتنزل الرحمات وتكفير السيئات وعلو المقامات هذا **عمر بن الخطاب** الخليفة الثاني المبشر بالجنة ـ رضي الله عنه ـ. كان في وجهه خطان أسودان من البكاء[٢].

والدموع ـ أخي المسلم ـ عنها سؤال ولها موقف؟!

قال **سفيان**: البكاء عشرة أجزاء: جزء لله، وتسعة لغير الله. فإذا جاء الذي لله في العام مرة فهو كثير!!

والدموع الصادقة والعبرات المتتالية علامة على صدق التوبة وحسن الالتجاء إلى الله ـ جل وعلا ـ. وأكثر الموفَّقين إلى العبادة هم أهل الرقة والخوف.. رقيقة قلوبهم، لطيفة مشاربهم.. الكلمة الصادقة تؤثر فيهم والآية من القرآن تبكي مدامعهم.. فتراهم يقبلون على الطاعة بحب وشوق ويستثمرون أوقات العبادات وتنزل الرحمات.. مشغولون عن

---

(١) الزهد للحسن البصري: (٩٩).

(٢) الزهد للبيهقي: (٦٧٨).

الدنيا، سائرون إلى الآخرة في جادة طُرقتْ من قبلهم بهدي سيد المرسلين ﷺ، وصحابته الكرام البررة.

قال **الحسن**: اعلم أنك لن تحبَّ الله حتى تحبَّ طاعته[١].

وكان **محمد بن المسيب** يقرأ فإذا قال: قال رسول الله ﷺ بكى حتى يُرحم[٢].

وقرأ **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ سورة الطور حتى قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾ [الطور: ٧] فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه[٣].

وأهل الخير والصلاح يبكون يخافون من انقطاع الدنيا، وهي دار التزود ومحطة التوقف ومزرعة الآخرة.

فقد بكى بعض العباد فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أن يصوم الصائمون ولست فيهم ويذكر الذاكرون ولست فيهم، ويصلي المصلون ولستُ فيهم[٤].

ونحن نسير مع الصالحين ونلمح تلك القسمات المضيئة والحياة المشرقة.. أين نصيب الخوف والمحبة من حياتنا.. وأين واقعها في مسيرتنا!!

قال **أبو يعقوب النهراجوري**: كل من ادعى محبة الله ـ عز وجل ـ ولم يوافق الله في أمره فدعواه باطلة[٥].

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٩٢).
(٢) تذكرة الحفاظ؟ (٣/ ٧٩٠).
(٣) الجواب الكافي: (٧٧).
(٤) التبصرة: (١/ ٢١٧).
(٥) جامع العلوم والحكم: (٩٢).

وأين نحن من هذه الدعوى إنها عودة من قريب، ونحن في دار العمل، دعوة إلى التوبة والعودة إلى البكاء والندم على ما سلف وكان.. واغتنام لأيام بقيت.

قال **يحيى بن معاذ**: من عبد الله ـ تعالى ـ بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار. ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادِّكار[١].

وأثر الدمعة على قلب المسلم عجيب، ولهيبها على وجنتي التائب غريب، تطفيء لهب المعصية وتزيل أثر المهلكة.. فهي كالغيث للأرض.. تحيي الغافل، وتنير الطريق، إنها دموع التوبة..

قال **كعب الأحبار**: لأن أبكي من خشية الله فتسيل دموعي على وجنتي أحبُّ إلي من أن أتصدق بوزني ذهبًا[٢].

والبكاء والدموع أحيانًا تكون في لحظات صفاء ودقائق توجه إلى الله، ثم يزول كل ذلك، ويزول أثر الدمعة بعد ساعات أو ربما أقل.

ولهذا قال بعضهم: ليس الخائف من بكى، إنما الخائف من ترك ما يقدر عليه[٣].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

كان **سعيد بن المسيب** يبكي بالليل حتى عمش[٤].

وكان **حذيفة** ـ رضي الله عنه ـ يبكي بكاءً شديدًا! فقيل له: ما بكاؤك؟

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٧٤).
(٢) حلية الأولياء: (٥/ ٣٦٦).
(٣) منهاج القاصدين: (٣٣١).
(٤) تذكرة الحفاظ: (١/ ٧٦).

فقال: لا أدري على ما أقدم؟ على رضا أم على سخط؟[١].

وقال **أبو رجاء العطاردي**: رأيت ابن عباس وأسفل من عينيه مثل الشراك البالي من الدموع.

وهذا **أبو بكر بن عياش** يقول: كنت إذا رأيت عطاء بن السائب وضرار بن مُرَّة رأيت البكاء على خدودهما[٢].

قال **حفص بن عمر**: بكى الحسن فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أخاف أن يطرحني غدًا في النار ولا يبالي[٣].

وقال **أبو حيان التيمي**: سمعت منذ ثلاثين سنة أو أكثر أن عبد الله بن مسعود مرَّ على الذين ينفخون على الكير فسقط.

وقال **سعد بن الأَخْرَم** كنت أمشي مع ابن مسعود فمرَّ بالحدادين وقد أخرجوا حديدًا من النار فقام ينظر إليه ويبكي.

وعن **سمير الرياحي** عن أبيه قال: شرب عبد الله بن عمر ماءً مبردًا فبكى فاشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت آية في كتاب الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [السبأ: ٥٤] فعرفت أن أهل النار لا يشتهون شيئًا، شهوتهم الماء، وقد قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠].

والبكاء والحزن مرده إلى أمرٍ ذكره **الحسن** بقوله: يحق لمن يعلم أن الموت مورده وأن الساعة موعده وأن القيام بين يدي الله مشهده أن يطول حزنه[٤].

---

(١) الزهر الفائح: (٢١).
(٢) السير: (٦/ ١١٦).
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٢٤٦).
(٤) حلية الأولياء: (٢/ ١٣٣).

فيبكـــــي على ميـــــتٍ ويغفـــــل نفســـــه
كـــأنَّ بكفَّيـــه أمـــانـــاً مـــن الـــرَّدى
ومـــا الميِّـــتُ المقبـــور في صـــدر يـــومـــه
أحـــق بـــأن يبكيـــه مـــن ميِّـــتٍ غـــدا[١]

قال الحسن بن عرفة: رأيت يزيد بن هارون بواسط، من أحسن الناس عينين، ثم رأيته بعين واحدة، ثم رأيته أعمى، فقلت: يا أبا خالد! ما فعلت العينان الجميلتان؟ قال: ذهب بهما بكاء الأسحار![٢].

الله أكبر ما أجمل الفعل، وما أجمل القول.. ذهب بهما بكاء الأسحار أين نحن من وقت السحر؟!.. وقتٌ تتنزل فيه الرحمات وتوزع فيه العطيات. إنها غفلة طويلة وأمل بعيد.

كان مالك بن دينار ـ رضي الله عنه ـ يبكي حتى سوَّدت الدموع خدَّه. وكان يقول: لو ملكت البكاء لبكيت أيام حياتي[٣].

أما السري السقطي فإنه يدافع البكاء في أول الليل، فإذا نام الناس أخذ في البكاء إلى الصباح[٤].

ومن الناس اليوم. بل غالبهم لا يبكي من خشية الله إلا مرة في العام أو مرة في عمره كله..

أما النساء اليوم فتوسعن في البكاء من كل شيء وفي كل شيء، إلا من خشية الله.. فتراها تبكي لتأخر ثيابها.. وتراها تبكي لنقصٍ في ملبسها..

---

(١) محاسبة النفس: (٨٣).
(٢) تذكرة الحفاظ: (٣/ ٧٩٠).
(٣) الزهر الفائح: (٢١).
(٤) الزهر الفائح: (١٨).

تبكي من كل شيء إلا من خشية الله.. وهي رقيقة القلب. قريبة إلى التوبة.. صاحبة الخير ومنادية الفلاح. فأين هي من خشية الله والبكاء على الذنوب والتقصير في الطاعات؟

أيهما أشد لتبكي عليه سقط من حطام الدنيا أم الآخرة وأهوالها؟

قال **مالك بن دينار**: البكاء على الخطيئة يحطُّ الخطايا كما يحط الريح الورق اليابس[١].

لنفسي أبكـــي لســـتُ أبكـــي لغيرهـــا
لنفسي في نفسي عـــن النـــاس شـــاغـــل[٢]

أخي المسلم:

إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده تحمل الله ـ سبحانه ـ حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرَّغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته، وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حمله الله همومها وغمومها وأفكارها، ووكله إلى نفسه فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره، كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره، فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بُلي بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾[٣] [الزخرف: ٣٦].

كان **محمد بن المنكدر** ـ رحمه الله ـ إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه

---

(١) الزهر الفائح: (١٨).
(٢) محاسبة النفس: (٧٩).
(٣) الفوائد: (١١٠).

ويقول: بلغني أن النار لا تأكل موضعًا مسته الدموع[١].

ورُوي عن بعض الصالحين وقد بكى عند الموت فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: والله ما أبكي لفراق هذه الدار حرصًا على غرس الأشجار وإجراء الأنهار، لكن على ما يفوتني من الادِّخار ليوم الافتقار، والاكتساب ليوم الحساب[٢].

جسمي على مبرد ليس يقوى
ولا على النار والحرارة
وكيف يقوى على سعير
وقُودُها الناسُ والحجارة[٣]

أخي المسلم:

اعلم أن الخوف محمودٌ، وربما يُظَنُّ أن كل ما هو خوف محمود. فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد؟؟ وهو غلط، بل الخوف سوط الله يسوق عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله ـ تعالى ـ والأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط وكذا الصبي، ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة في الضرب محمودة. وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال، والمحمود هو الاعتدال والوسط[٤].

والخوف مع مراقبة الله يثمر الاستمرار على الجادة والسير الحثيث إلى جنة عرضها السموات والأرض؟ بعد رحمة الله وسعة فضله.

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٧٢).
(٢) العاقبة: (٣٠).
(٣) الزهر الفائح: (١٠٧).
(٤) الإحياء: (٤/ ١٦٥).

قيل لأم الدراداء: ما كان أكثر عمل أبي الدرداء؟ قالت: التفكر[١].

ومن تفكَّر في المال والمصير فقد أبصر الطريق وعرف الجادة؟!

نـــرجـــو البقـــاء بـــدارٍ لا ثبـــات بهـــا
فهـــل سمعـــتَ بظـــلٍ غير منتقـــلِ

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

كان أبو سنان يقول: الآن كبر السن، ووهن العظم، ووقع التحفظ.. فلا يزال يبكي حتى يُغشى عليه[٢].

وبكى يزيد الرقاشي حتى أظلمت عيناه، وأحرقت الدموع مجاريها[٣].

وقال أبو النضر إسحاق بن إبراهيم: كنت أسمع وقع دموع سعيد بن عبد العزيز على الحصير في الصلاة[٤].

وهذا إسماعيل بن زكريا يروي حال حبيب بن محمد وكان جارًا له يقول: كنت إذا أمسيت سمعت بكاءه. وإذا أصبحت سمعت بكاءه، فأتيت أهله. فقلت: ما شأنه؟! يبكي إذا أمسى. ويبكي إذا أصبح؟! قال: فقالت لي: يخاف والله إذا أمسىٰ أن لا يصبح. وإذا أصبح أن لا يمسي.

وانتبه الحسن ليلة فبكى، فضج أهل الدار بالبكاء، فسألوه عن حاله فقال: ذكرت ذنبًا لي فبكيت[٥].

---

(١) حلية الأولياء: (١/ ٢٠٨).
(٢) الزهر الفائح: (١١١).
(٣) الزهر الفائح: (٢١).
(٤) السير: (٨/ ٣٤).
(٥) التبصرة: (٢٨٧).

وذُكر عن **عمر بن عبدالعزيز** ـ رحمه الله ـ أنه كان يصلي ذات ليلة فقرأ: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢] فجعل يرددها ويبكي، حتى أصبح[١].

عن **تميم الداري** ـ رضي الله عنه ـ أنه قرأ هذه الآية: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [الجاثية: ٢١] فجعل يرددها ويبكي.

أخي المسلم:

ألا فأبشر بالخير وأنت تقصد باب الكريم الجواد، رب غفور رحيم..

اسمع قول **ابن عرف**: لو أن رجلاً انقطع إلى هؤلاء الملوك في الدنيا لانتفع، فكيف من ينقطع إلى من له السمٰوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى!!

هذا هو ملك الملوك رب الدنيا والآخرة، بيده مفاتيح الخير. نغفل عن دعائه ورجاء ما عنده، وننصرف إلى زخارف الدنيا؟

قال عبد الرحمن بن يزيد بن جابر **ليزيد بن مرثد**: ما لي أرى عينيك لا تجف؟؟ قال: وما مسألتك عنه؟ قلت: عسى أن ينفعني به في الدنيا. قال: لو لم يتواعدني أن يسجنني إلا في الحمام لكنت حريًّا أن لا تجف لي عين[٢].

ما بالك أخي بمن يتوعده الملك الجبار بسجن في نار جهنم؟! أليس حري أن يطول حزنه ويزيد بكاؤه ويعلن توبته.

كان **الضحاك بن مزاحم** إذا أمسى بكى. فيقال له: ما يبكيك؟ فيقول: لا أدري ما صعد اليوم من عملي[٣].

---

(١) تنبيه الغافلين: (٢/ ٦٢٠).
(٢) صفة الصفوة: (٤/ ٢٠٥).
(٣) صفة الصفوة: (٤/ ١٥٠).

يـــا ليتنـــي والأمـــاني غيرُ طـــائلـــة
إلا تعلـــل مشغـــوفٍ بهـــا شُغـــلا
علمـــت أي بـــلاد الله مُضطجعـــي
إذا تبـــايـــن عنـــي الـــرُّوح وانفصـــلا
لعلنـــي أن أشُـــوب أدمُعـــي بـــدمـــي
فيـــه وأشرح مـــن حـــزني بـــه جمـــلا
وأنْ أســـوِّي مـــن تـــربـــائـــه بيـــدي
حتـــى يكـــون وثيرُ المـــس معتـــدلا
هيهـــات هيهـــات مـــا للقبر تســـويـــة
إلا اليقين وإلاَّ القـــول والعمـــلا

أخي المسلم:

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار، وتارة بالآيات والأخبار، أما الاعتبار، فسبيله أن فضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله ـ تعالى ـ في الآخرة، إذ لا مقصود سوى السعادة ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه، فكل ما أعان عليه فله فضيلة، وفضيلته بقدر غايته، وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة، إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تقمع بنار الخوف. فالخوف هو النار المحرقة للشهوات. فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات بقدر

ما يكف عن المعاصي، ويحثُّ على الطاعات. ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق. . وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة. وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة، وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى.

وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر. وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله ـ تعالى ـ للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان، وهي مجامع مقامات أهل الجنان[١].

حين عوتب **يزيد الرقاشي** على كثرة بكائه. وقيل له: لو كانت النار خلقت لك ما زدت على هذا؟! فقال: وهل خلقت النار إلا لي ولأصحابي ولإخواننا من الجن والإنس[٢].

أما **الربيع بن خثيم** فقد كان لا ينام، ويخاف البيات. وكان يبكي ليلاً ونهاراً، لا يفتر عن البكاء[٣].

وصور الخوف تترى أمام أعيننا، ولحظات الصفاء تطرق قلوبنا، هذه رسالة حفظت لنا. . وجهها محمد بن سمرة إلى يوسف بن أسباط قال فيها: أي أخي إياك وتأثير التسويف على نفسك، وإمكانه من قلبك. فإنه محل الكلال وموئل التلف، وبه تقطع الآمال، وفيه تنقطع الآجال. فإنك إن فعلت ذلك أدلته من عزمك فاجتمع وهواك عليك، فغلبا واسترجعا من بدنك بنافعة، وبادر يا أخي فإنك مبادر، وأسرع فإنك مسروع بك، وجدَّ فإن الأمر جدٌّ، وتيقظ من رقدتك. وانتبه من غفلتك. وتذكر ما أسلفت،

---

(١) الإحياء: (٤/١٦٨).
(٢) التخويف من النار: (٢٥).
(٣) الزهر الفائح: (١٨).

وقصرت، وأفرطت، وجنيت، وعملت، فإنه مثبتٌ محصى، كأنك بالأمر قد بغتك فاغتبطك بما قدمت، وندمت على ما فرطت، فعليك بالبكاء والمراقبة والاعتزال، وقلة الملاقاة. فإن السلامة في ذلك موجودة. وفقنا الله وإياك لأرشد الأمور. ولا قوة بنا إلا بالله. وصلى الله على سيدنا محمد[١].

قال **غزوان**: لله ـ تبارك وتعالى ـ عليَّ ألا يراني الله ضاحكًا حتى أعلم أي الدارين داري. قال الحسن: فعزم ففعل فما رؤي ضاحكًا حتى لحق بالله ـ عز وجل ـ[٢].

* فإن الخوف من الله صفة من صفات الكمال في حق الله، وكذلك الحب في الله صفة كمال فسبحان من تتعدد وتضاد له الصفات ولكن كلها صفات كمال، وهذا بعكس الإنسان، فإن الخوف فيه من غير الله صفة نقص، وخور، وضعف.

والإنسان إذا خاف من شيء خشي لقائه، بل وكره ذلك اللقاء، ولكن بالضد تمامًا وهو أننا نجد أن الإنسان إذا خاف من الخالق ـ جلت قدرته ـ عاد إلى طاعته ولجأ إليه واحتمى به. وهنا نرى الروعة الإلهية، والقدرة الربانية، ويبدو ذلك واضحًا في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

قال **ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ: فروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم، فروا منه إليه، واعملوا بطاعته.

إن الخوف من الله يدخل فيه الخوف من النار، والبكاء من خشية الجبار،

---

(١) صفة الصفوة: (٤/٢٣٨).
(٢) الزهد للإمام أحمد: (٣٠٠).

والندم على التقصير في حق القهار. وهذا الخوف ـ من الله ـ من الخوف المحمود، لأنه يؤدي إلى الوصول إلى المحبوب، والفوز بالمرغوب، والنجاة من المرهوب.

وأهل الخير والصلاح والتقى فعلهم عجيب، وأمرهم مجاهدة.. استثمار للأوقات وتعرض للنفحات بإخلاص وصدق وبعد عن الرياء والتصنع.

قال **محمد بن واسع**: إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم.

وحين سُئل **عطاء السليمي**: ما هذا الحزن؟ قال: ويحك؟ الموت في عنقي. والقبر بيتي. وفي القيامة موقفي. وعلى جسر جهنم طريقي. لا أدري ما يصنع بي؟[١].

أخي المسلم:

واقع الناس اليوم وتوسعهم في أمر الحديث والضحك والدعابة والهزال والمزاح مدعاة إلى التفكر والسؤال.. سؤال يطرق الآذان: ما الذي دعاهم إلى كل هذا الفرح والسرور؟

قال **الحسن**: ضحك المؤمن إنما هو غفلة منه[٢].

وقد كان الحسن يطبق هذا القول في واقع حياته فقد قال عنه يونس: لا تكاد تلقاه إلا وكأنه رجل قد أصيب بمصيبة[٣].

هذه هي حالهم، وتلك دنياهم.. رحلوا ورحلت معهم أعمالهم.. ونحن نسير على الجادة.. راحلون لا محالة قرب الأجل أو بعد!!

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٣٢٧).
(٢) الزهد للإمام أحمد: (٣٩٣).
(٣) الزهر الفائح: (٦٦).

قال سلام بن أبي مطيع: دخلنا على **مالك بن دينار** ليلاً وهو في بيت بغير سراج، وفي يده رغيف يكدمه[١] فقلنا له: أبا يحيى! ألا سراج؟! ألا شيء تضع عليه خبزك؟! فقال: دعوني فوالله إني لنادم على ما مضى. وما ذاك إلا لعلمهم بأن الأمر جد والحساب قادم ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

هذا **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ وهو الصائم القائم، رآه ولده في المنام بعد موته فقال: يا بني منذ كم فارقتكم؟ قال: يا أبت منذ عشرين سنة، فقال: الآن لما خرجت من الحساب، كأن عرشي يهوي لولا أني لقيت ربًّا كريمًا[٢].

أخي المسلم:

اعلم أن الأخبار في فضل الخوف والرجاء كثرت وربما ينظر الناظر إليها فيعتريه شك في أن أيهما أفضل؟

وقول القائل: الخوف أفضل أم الرجاء؟ سؤال فاسد يضاهي قول القائل: الخبز أفضل أم الماء؟

وجوابه أن يقال: الخبز أفضل للجائع. والماء أفضل للعطشان. فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب، فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل، وإن استويا فهما متساويان، وهذا لأن كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه، والخوف والرجاء دواءان يداوي بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود. فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله ـ تعالى ـ والاغترار به

---

(١) كدم الرغيف: عضه بمقدم فمه.

(٢) الزهر الفائح: (٧٠).

فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله، فالرجاء أفضل وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل. ويجوز أن يقال مطلقًا: الخوف أفضل على التأويل الذي يقال فيه: الخبز أفضل من السكنجبين، إذ يعالج بالخبز مرضى الجوع، وبالسكنجبين مرضى الصفراء، ومرضى الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل، فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل لأن المعاصي والاغترار على الخلق أغلب، وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل، لأنه مستسقى من بحر الرحمة ومستسقى الخوف من بحر الغضب. ومن لاحظ من صفات الله ـ تعالى ـ ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب، وليس وراء المحبة مقام، وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التي تقتضي العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء[١].

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: كل عاص لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله. وإنما يكون جاهلاً لنقص خوفه من الله، إذ لو تم خوفه من الله لم يعص[٢].

وقال الشيخ **ابن سعدي**: علامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه والنصح به[٣].

* قال **ابن القيم** في فضيلة منزلة الخوف: هي من أجلِّ منازل الطريق وأنفعها للقلب، وهي فرض على كل أحد.

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٧٣).
(٢) الإيمان: (١٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن: (٢/ ١٨٥).

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل: ٥١].

ومدح أهله وأثنى عليهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ـ عز وجل ـ فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط[١].

أيها الحبيب:

نحن رفقاء طريق وأحبة سطور.. بعد مسيرة مع الخوف تقطع أنياط القلب وتبعث الهمم وتجدد التوبة.. هذا الرجاء يطلُّ وهذا باب من أبواب الرحمة يدفع للتوبة ويقود للعودة.. يستحث الخطى بعظيم رحمة الله وكرمه ومنِّه..

لما اشتد بسفيان الثوري المرض جزع جزعًا شديدًا. فدخل عليه مرحوم بن عبدالعزيز فقال: ما هذا الجزع يا أبا عبدالله؟ تَقْدُمُ على ربٍّ عبدته ستين سنة، صمت له، صليت له، وحججت له، فسري عن الثوري![٢].

وهاهو الثوري يقول ـ وهو يعلم سعة رحمة الله جل وعلا ـ: ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوي، لأني أعلم أن الله ـ تعالى ـ أرحم بي منهما.

وكان أبو عبيدة الخواص يبكي ويقول: قد كبرتُ فأعتقني من النار[٣]

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٥٤٨).

(٢) البداية والنهاية: (٨/ ٤٧).

(٣) الزهر الفائح: (٢١).

وذلك لعلمه كرم الله ـ عز وجل ـ ورحمته بعباده.

أخي المسلم:

إن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤد، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء، ثقيل الأعباء، محفوفًا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلا أزمة الرجاء، ولا يصد عنه نار الجحيم والعذاب الأليم مع كونه محفوفًا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف[١].

قال **سفيان الثوري** ـ رضي الله عنه ـ: مات أخ لي، فرأيته في المنام، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: رضي عني وأدخلني الجنة، وقال: إفرح كما كنت تحزن.

* وآمال الناس اليوم طويلة.. وأحلامهم بعيدة، لا ينتظرون آجالاً ولا يتذكرون مآلاً..

تؤمّل في الدنيا طويلاً ولا تدري
إذا جنَّ ليلٌ هل تعيش إلى الفجر
فكم مِنْ صحيحٍ ماتَ مِنْ غيرِ علَّةٍ
وكم من عليلٍ عاشَ دهرًا إلى دهرِ
وكم مِنْ فتىً يُمْسي ويصبح آمنًا
وقد نُسِجَتْ أكفانه وهو لا يدري[٢]

---

(١) الإحياء: (٤/١٤٩).
(٢) ديوان الإمام علي: (٩٦).

قال **سفيان الثوري**: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء[١].

وطول الأمل داء عضال، ومرض مزمن، ومتى تمكَّن من القلب فسد مزاجه واشتد علاجه ولم يفارقه داء، ولا نجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء ويئس من بُرْئِه الحكماء والعلماء. وما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل[٢].

وبطول الأمل تقسو القلوب وبإخلاص النية تقلُّ الذنوب[٣].

وطول الأمل الذي داهمنا والتسويف الذي لازمنا جعلنا لا نرى نهاية لهذا الإنسان ولا نستشعر قرب الرحيل من هذا المكان.

قال **بعض السلف**: ما نمت نومًا قطُّ فحدثت نفسي أني أستيقظ منه[٤].

يـــا أيهـــا النَّـــاسُ كـــان لي أمـــلٌ
قصَّر بي بُلـــوغـــه الأجـــلُ
فليتـــق الله ربَّـــهُ رَجُـــلٌ
أمكنـــه في حيـــاتـــه العَمَـــلُ
مـــا أنـــا وحـــدي بفنـــاء بيـــتٍ
يـــرى كـــلٌّ إلى مثلـــه سينتقـــلُ[٥]

قال **الحسن**: اجتمع ثلاثة من العلماء فقالوا لأحدهم: ما أَمَلُك؟ قال: ما أتى عليَّ شهر إلا ظننت أني سأموت فيه، قال: فقال صاحباه: إن هذا

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ١١).
(٢) أدب الدنيا والدين: (١٠٨).
(٣) العاقبة: (٦٨).
(٤) جامع العلوم والحكم: (٤٦٥).
(٥) البداية والنهاية: (١٣/ ٤٠).

هو الأمل، فقال للآخر: فما أملك؟ قال: ما أتت عليَّ جمعة إلا ظننت أني سأموت فيها، قال: فقال صاحباه: إن هذا هو الأمل، فقال للآخر: فما أملك؟ ما أمل من نفسه في يد غيره؟

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال **بكر المزني**: إن استطاع أحدكم أن لا يبيت إلا وعهده عند رأسه مكتوب فليفعل. فإنه لا يدري لعله أن يبيت في أهل الدنيا، ويصبح في أهل الآخرة[١].

وقال **محمد بن أبي توبة**: أقام معروف الكرخي الصلاة، ثم قال لي تقدم، فقلت: إن صليت لكم هذه الصلاة لم أصل لكم غيرها.

فقال لي: أراك تحدث نفسك أنك تعيش حتى تصلي صلاة أخرى أعوذ بالله من طول الأمل. فإنه يمنع من خير العمل[٢].

وقيل **لمحمد بن واسع**: كيف أصبحتَ؟ قال: قريبًا أجلي، بعيدًا أملي، سيئًا عملي[٣].

هوِّن عليك فما الدنيا بدائمة
وإنما أنت مثل الناس مغرور
ولو تصوَّر أهلُ الدهر صورتَهُ
لم يُمْسِ منهم لبيب وهو مسرور[٤]

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٤٦٥).
(٢) حلية الأولياء: (٨/ ٣٦١)، العاقبة: (٩٠).
(٣) السير: (٦/ ١٢١).
(٤) إرشاء العباد: (٧١).

قال **داود الطائي**: سألت عطوان بن عمرو التميمي قلت: ما قصر الأمل؟ قال: ما بين تردد النفس.

قال رستم: فحدثت به **الفضيل بن عياض** فبكى. وقال: يقول: يتنفس فيخاف أن يموت قبل أن ينقطع نفسه، لقد كان عطوان من الموت على حذر[١].

وقال **داود الطائي**: لو أمَّلت أنْ أعيش شهرًا لرأيتني قد أتيت عظيمًا، وكيف أؤمِّل. ذلك وأرى الفجائع تفني الخلائق في ساعات الليل والنهار[٢].

قصر الآمال في الدنيا تفز
فدليل العقل تقصير الأمل

يا طويل الأمل في قصير الأجل، أما رأيت مستلبًا وما كمل؟! أتؤخر الإنابة وتعجل الزلل؟

يا من يعدُّ غدًا لتوبته
أعَلَى يقين منْ بلوغِ غدِ
المرءُ في زَللٍ على أملٍ
ومنيَّة الإنسان بالرَّصدِ
أيام عمرك كلُّها عددٌ
ولعلَّ يومك آخرُ العددِ

يا أخي:

التوبة التوبة قبل أن تصل إليك النوبة، الإنابة الإنابة قبل أن يغلق باب الإجابة، الإفاقة الإفاقة فيا قرب وقت الفاقة، إنما الدنيا سوق للتجر

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ١٢٧).
(٢) الإحياء: (٤/ ٤٨٣).

ومجلس وعظ للزجر، وليل صيف قريب الفجر، المكنة مزنة صيف، الفرصة زورة طيف، الصحة رقدة ضيف، الغرة نقدة زيف، الدنيا معشوقة وكيف.. البدار البدار فالوقت سيف[١].

ولقصر عمر الدنيا ومخافة الفوت قال **عبد الله العصري**: المؤمن لا تلقاه إلا في ثلاث خلال، مسجد يعمره، أو بيت يستره أو حاجة من أمر دنياه لا بأس بها[٢].

يا من بدنياه اشتغل
وغرّه طول الأمل
الموتُ يأتي بغتةً
والقبرُ صندوقُ العمل[٣]

وما ضر المسلم مثل الأمل. وما أضاع أوقاته إلا التسويف..

قال **سعيد بن سعيد**: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت[٤].

وقال **عيسى** ـ عليه السلام ـ: عجبت لثلاثة: غافل غير مغفول عنه، ومؤمل الدنيا والموت يطلبه، وباني قصرًا والقبر مسكنه.

أخي الحبيب:

أحْسَنْتَ ظنَّك بالأيام إذْ حسُنَتْ
ولمْ تخفْ سوء ما يأتي به القدر

---

(١) المدهش: (٢٣٢).
(٢) الزهد للإمام أحمد: (٣٣٨).
(٣) ديوان الإمام علي: (١٥٨).
(٤) الزهر الفائح: (٩٥).

وســـــالمتْـــــك الليـــــالي فـــــاغترّت بهـــــا
وعنـــــدَ صفـــــو الليـــــالي يحـــــدُثُ الكـــــدرُ

كان فضالة بن صيفي كثير البكاء، فدخل عليه رجل وهو يبكي فقال لزوجته ما شأنه؟ قالت: زعم أنه يريد سفرًا بعيدًا وماله زاد.

ونحن مثله أصحاب سفر طويل ورحلة شاقة.. ولكن أين الزاد؟؟ الزاد أخي هو قصر الأمل والتزود لدار المعاد.. إنها رحلة بدأت وستنتهي.. نسير في دنيا كأضغاث أحلام أو كظل زائل.. زمن يسير.. ثم نتوقف في موقف عظيم.. يوم يبعثر منْ في القبور ويحصل ما في الصدور.

قال إبراهيم بن خميس: يضحك القضاء من الحذر. ويضحك الأجل من الأمل، ويضحك التقدير من التدبير، وتضحك القسمة من الجهد والعناء.

قصِّرِ الآمـــــال في الـــــدنيـــــا تفُـــــزْ
فـــــدليـــــلُ العقـــــلِ تقصيرُ الأمـــــل
إنَّ مَـــــنْ يطلبـــــه المـــــوتُ على
غِـــــرَّةٍ منـــــه جـــــديـــــرٌ بـــــالـــــوجـــــل[1]

فلا تطمئن يا أخي حتى تعلم أين مسكنك ومصيرك ومستقرك ومنزلك؟ فانظر لنفسك، واقض ما فاتك، واقض ما أنت قاض من أمرك، وكأني بالأمر يأتيك على بغتة، وإني لا أقول ولاأعلم أحدًا أشد تضييعًا مني لذلك فكأنك بالقيامة وقد قامت وبالنفس الأمارة وقد لامت، وانفجعت

(١) موارد الظمآن: (٢/٢٦).

عين طالما نامت ونحرت قلوب العصاة وقد هامت[١].

غـــدًا تُـــوفَّ النفـــوسُ مـــا كسبـــتْ
ويحصُـــدُ الـــزارعـــون مـــا زرعـــوا
إن أحسنـــــوا أحسنـــــوا لأنفسهـــــم
وإن أســـــاءوا فبئـــس مـــا صنعـــوا

وحالنا العجيبة في اللهث وراء حطام الدنيا تعجب منها بعض الحكماء بقوله: عجبت ممن يحزن على نقصان ماله، ولا يحزن على نقصان عمره، وعجبت ممنْ الدنيا مدبرة عنه، والآخرة مقبلة عليه، كيف يشتغل بالمدبرة ويعرض عن المقبلة[٢].

وقال في هذا الأمر عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قولة بليغة وموعظة سديدة. قال: عباد الله لا تغتروا بطول حلم الله، واتقوا السفه فقد سمعتم قوله ـ عز وجل ـ في كتابه: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وكان الحسن يقول في موعظة تحيي القلوب وتحرك النفوس: المبادرة فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله ـ عز وجل ـ، رحم الله امرءًا نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه[٣].

فقـــلْ للـــذي قـــدْ غـــرَّه طُـــولُ عمـــره
ومـــا قـــد حـــواه مـــن زخـــارف تَخْـــدَعُ

---

(١) الزهر الفائح: (١١).
(٢) العاقبة: (٩٠).
(٣) الإحياء: (٤/٤٨٨).

أفـــقْ وانظـــر الـــدنيـــا بعين بصيرةٍ
تجـــدْ كـــلَّ مـــا فيهـــا ودائـــعَ تُـــرجـــعُ[١]

ولقد غرنا طول الأمل وألهانا التسويف.. فإذا بنا نجري في هذه الدنيا غافلين لاهين حتى إذا فاجأ الموت البعض قال: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩﴾ لماذا ترجع وتعود؟ ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠].

آمال حال من سبقنا فهي حال التيقظ والفطنة وتجهيز العدة والاستعداد ليوم الرحيل. روي عن حبيب العجمي أنه كان إذا أصبح يقول لامرأته: إذا مت اليوم ففلان يغسلني وفلان يحملني[٢].

مـــا الـــدّهـــرُ إلا يقظـــةٌ ونـــومٌ
وليلـــةٌ بينهمـــا ويـــومُ
يعيـــشُ قـــومٌ ويمـــوتُ قـــومٌ
والـــدهـــر قـــاضٍ مـــا عليـــه لـــوم[٣]

قال **سعد بن معاذ**: ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي بغيرها، ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة؟ وما هو مقول لها؟ وما سمعت النبي ﷺ يقول قولاً إلا علمت أنه حق[٤].

أخي المسلم:

كـــمْ ذا التشـــاغـــل والأمـــلُ
كـــم ذا التـــواني والكســـلُ

---

(١) إرشاد العباد: (٧٠).
(٢) صيد الخاطر: (٢٠٤).
(٣) ديوان الإمام علي: (١٧٢).
(٤) الإحياء: (٣/٣٣٦).

حتـــــــى متـــــــى وإلى متـــــــى
يُحصَـــــى عَليـــــكَ فـــــلا تمـــــلُّ
هـــــل بعـــــد شيـــــب العـــــارضين
ســـــوى التـــــوقـــــع لـــــلأجـــــلِ
يـــــا مـــــن يعـــــز بنفســـــه
وعـــــن الصَّـــــلاح قـــــد امتهـــــلَ
فـــــالمـــــوت أقـــــربُ نـــــازلٍ
والقبر صنـــــــــدوق العمـــــــــلِ

قال بعض الصالحين ـ رضي الله عنهم ـ: رأيت بعض الصالحين في النوم بعد وفاته فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: أدخلني الجنة، قلت: أي الأعمال أفضل عندكم؟ قال: التوكل وقصر الأمل[١].

أخي المسلم:

إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلاً ولأيامك وأنفاسك أمدًا، ومن كل ما سواه بد ولابد لك منه[٢].

والنـــــــاس في غفـــــــلاتهـــــــمْ
ورَحـــــــى المنيَّـــــــة تطحـــــــنُ[٣]

كل يوم نسمع بنعي فلان.. نسترجع.. ونتأمل لحظات.. ثم نعود إلى غفلتنا وطول أملنا وكأن الموت لا يطرق أبوابنا ولا يأخذ أرواحنا[٤].

---

(١) الزهر الفائح: (٥٠).
(٢) الفوائد: (١٢٩).
(٣) السير: (١٠/ ١٦٩).
(٤) صفة الصفوة: (٣/ ٣٨١).

قال **عبد الله بن ثعلبة**: تضحك؟ ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار[١].

وهذه درر من كلام **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ وبعض من حديثه قال: ويل لمن كانت الدنيا هَمّه، والخطايا عمله، كيفما يقدم غدا؟ بقدر ما تحرثون تحصدون!!.

وقال **محمد بن يزيد**: رأيت وُهيب بن الورد صلى ذات يوم العيد، فلما انصرف الناس جعلوا يمرون به، فنظر إليهم ثم زفر، ثم قال: لئن كان هؤلاء القوم أصبحوا متيقنين أنه قد تقبل منهم شهرهم هذا لكان ينبغي لهم أن يكونوا مشاغيل بأداء الشكر عما هم فيه، وإن كانت الأخرى لقد كان ينبغي لهم أن يصبحوا أشغل و أشغل. ثم قال: لا يكن هم أحدكم في كثرة العمل، ولكن ليكن همه في إحكامه وتحسينه، فإن العبد قد يصلي وهو يعصي الله في صلاته، وقد يصوم وهو يعصي الله في حياته[٢].

وطول الأمل أودى بالناس إلى الفرح بهذه الدنيا والتشاغل بها عن الآخرة، فلا ترى إلا مهمومًا بالدنيا.. خطوته يتبعها الأخرى من أجل الدنيا.. لهث وجري.. عناء ونصب من أجل حطام الدنيا.. أما ساعات الراحة وأوقات الاستراحة فإنها ضائعة في ضحك ولعب وغفلة.. فأين التذكر والتفكر؟

قال **وهيب**: عجبًا للعالم كيف تجيبه داوعي قلبه إلى ارتياح الضحك. وقد علم أن له في القيامة روعاتٍ ووقفاتٍ وفزعاتٍ. ثم غُشي عليه[٣].

---

(١) القصار: هو محور الثياب ومبيضها.
(٢) صفة الصفوة: (٢/ ٢٥).
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ٢٢١).

أخي الحبيب:

قال **مكحول الدمشقي**: مَنْ عَبَدَ الله بالخوف فهو حروري، ومن عبده بالرجاء فهو مرجيء ومن عبده بالمحبة فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو مُوحِّدٌ[١].

وقال **الشيخ ابن سعدي**: يجب على العبد أن يكون خائفًا من الله، راجيًا راغبًا راهبًا، إن نظر إلى ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه خشي ربه وخافه، وإن نظر إلى فضله العام والخاص وعفوه الشامل رجا وطمع، إن وفق لطاعة رجاء من ربه تمام النعمة بقبولها وخاف من ردها بتقصيره في حقها، وإن ابتلي بمعصية رجا من ربه قبول توبته ومحوها، وخشي لسبب ضعف التوبة والالتفات للذنب أن يعاقب عليها، وعند النعم والمسار يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها، ويخشى بإخلاله بالشكر من سلبها، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها وينتظر الفرج بحلها، ويرجو أيضًا أن يثبته الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر ويخشى من اجتماع المعصيتين: فوات الأجر المحبوب، وحصول الأمر المكروه إذا لم يُوفَّقْ للقيام بالصبر بالواجب، فالمؤمن الموحد في كل أحواله ملازم للخوف والرجاء، وهذا هو الواجب النافع، وبه تحصل السعادة[٢].

أخي المسلم:

هلم إلى الدخول على الله ومجاورته في دار السلام بلا نصب ولا تعب ولا عناء بل من أقرب الطرق وأسهلها، وذلك أنك في وقت بين وقتين. وهو

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٧٤).

(٢) القول السديد: (١١٩).

في الحقيقة عمرك، وهو وقتك الحاضر بين ما مضى وما يستقبل، فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب ولا معاناة عمل شاق، إنما هو عمل قلب، وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب وامتناعك ترك وراحة، ليس هو عملا بالجوارح يشق عليك معاناته وإنما هو عزم ونية جازمة تريح بدنك وقلبك وسرك، فما مضى تصلحه بالتوبة وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية، وليس للجوارح في هذين نصب ولا تعب، ولكن الشأن في عمرك وهو وقتك الذي بين الوقتين فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله بما ذكرت نجوت وفزت بالراحة واللذة والنعيم وحفظه أسعد من إصلاح ما قبله ما بعده، فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها وأعظم تحصيلا لسعادتها، وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت، فهي والله أيامك الخالية التي تجمع فيها الزاد لمعادك إما الجنة وإما النار، فإن اتخذت إليها سبيلا إلى ربك؛ بلغت السعادة العظمى والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرة التي لا نسبة لها إلى الأبد، وإن آثرت الشهوات والراحات واللهو واللعب انقضت عنك بسرعة وأعقبتك الألم العظيم الدائم الذي مقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله والصبر على طاعته ومخالفة الهوى لأجله[1].

* * *

(١) الفوائد: (١٥١).

علامات الخوف من الله

إن العبد يستطيع أن يعرف نفسه هل هو من الخائفين من الجليل، أم هو من الغافلين اللاهين، وهذا بيان ببعض هذه العلامات:

أولها: يتبين في لسانه، فيمتنع من الكذب والغيبة وكلام الفضول ويجعل لسانه مشغولاً بذكر الله، وتلاوة القرآن ومذاكرة العلم.

والثاني: أن يخاف في أمر قلبه، فيخرج منه العداوة والبغضاء وحسد الإخوان، ويدخل فيه النصيحة والشفقة للمسلمين.

والثالث: أن يخاف في أمر بطنه فلا يأخذ إلا طيبًا حلالاً، ويأكل من الطعام مقدار حاجته.

والرابع: أن يخاف في أمر بصره، فلا ينظر إلى الحرام، ولا إلى الدنيا بعين الرغبة وإنما يكون نظره على وجه العبرة.

والخامس: أن يخاف في أمر قدميه فلا يمشي في معصية.

السادس: أن يخاف في أمر يده، فلا يمدَّنَّ يده إلى الحرام، وإنما يمدُّ يده إلى ما فيه طاعة الله ـ عز وجل ـ.

والسابع: أن يكون خائفًا في أمر طاعته فيجعل طاعته خالصة لوجه الله، ويخاف الرياء والنفاق، فإذا فعل ذلك فهو من الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٥].

يقول **الفقيه السمرقندي** ـ رحمه الله ـ: من عمل الحسنة يحتاج إلى خوف أربعة أشياء، فما ظنك بمن يعمل السيئة؟!

أولها: خوف عدم القبول: لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧].

والثاني: خوف الرياء: لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

والثالث: خوف التسليم والحفظ: لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠][1].

والرابع: خوف الخذلان في الطاعة: لأنه لا يدري أنه هل يوفَّق لها أم لا؟ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود: ٨٨].

أخي الحبيب:

جعلني الله وإياك ووالدينا وأحبابنا من الآمنين حين الخوف والفزع ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧] وممن ينادون في ذلك اليوم العظيم ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩﴾ [الأعراف: ٤٩].

* * *

(١) الإحياء: (٤/١٦).

المصادر

١ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٢ ـ الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الفكر، بيروت.

٣ ـ أدب الدنيا والدين للماوردي، دار الكتب العلمية.

٤ ـ إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد، عبدالعزيز السلمان، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٥ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.

٦ـ تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة.

٧ ـ التبصرة لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٨ ـ تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث.

٩ ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام القرطبي، دار الرياض ط ١٤٠٧هـ.

١٠ ـ التخويف من النار لابن رجب الحنبلي، حققه وخرج أحاديثه بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد، ط٢/ ١٤٠٩هـ.

١١ ـ تزكية النفوس، جمع د. أحمد مزيد، دارالقلم، بيروت.

١٢ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، للقاضي عياض مكتبة الحياة.

١٣ ـ تفسير ابن كثير للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٠١هـ.

١٤ ـ تنبيه الغافلين، الفقيه نصر السمرقندي، تحقيق عبدالعزيز الوكيل، دار الشروق ١٤١٠هـ.
١٥ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي.
١٦ ـ جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط٥/ ١٤٠٠هـ.
١٧ ـ الجامع لأحكام القرآن.
١٨ ـ الجواب الكافي لابن قيم الجوزية، تحقيق أبي حذيفة، دار الكتاب العربي ط١/ ١٤٠٧هـ.
١٩ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.
٢٠ ـ ديوان الإمام علي، جمعه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.
٢١ ـ كتاب الزهد للإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد بسيوني دار الكتاب العربي، ط١/ ١٤٠٦هـ.
٢٢ ـ كتاب الزهد الكبير للإمام المحدث أحمد بن حسين البيهقي، تحقيق د. تقي الدين الندوي دار القلم، ط٢/ ١٤٠٣هـ.
٢٣ ـ الزهد للحسن البصري، تحقيق د. محمد عبد الرحيم محمد، دار الحديث.
٢٤ ـ الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح، محمد بن محمد يوسف الجزري، تحقيق محمد بسيوني، دار الكتاب العربي، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٢٥ ـ سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.

٢٦ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

٢٧ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمد فاخوري ومحمد رواس. دار المعرفة، ١٤٠٥هـ.

٢٨ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط٢/ ١٤٠٧هـ.

٢٩ ـ العاقبة في ذكر الموت والآخرة للإمام أبي محمد عبدالحق الأشبيلي، تحقيق خضر محمد خضر مكتبة دار الأقصى ط١/ ١٤٠٦هـ.

٣٠ ـ الفوائد لابن القيم الجوزية، دار النفائس.

٣١ ـ القول السديد.

٣٢ ـ محاسبة النفس للحافظ ابن أبي الدنيا، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن.

٣٣ ـ مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية ط٢/ ١٤٠٨هـ.

٣٤ ـ المدهش لأبي الفرج جمال الدين الجوزي، ضبطه وصححه د. مروان قباني، دار الكتب العلمية ط٢/ ١٤٠٥هـ.

٣٥ ـ مختصر منهاج القاصدين تأليف الإمام أحمد بن قدامة المقدسي تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ط٧/ ١٤٠٦هـ.

٣٦ ـ موارد الظمآن لدروس الزمان، عبد العزيز السلمان، ط١٣/ ١٤٠٣هـ.

* * *

أيسر العبادات

المقدمـة

الحمد لله الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه وترتيبه، وأدب نبيه محمدًا ﷺ فأحسن تأديبه.

أما بعد:

فنحمد الله ـ عز وجل ـ أن منَّ علينا بنعمة الإسلام وحثنا على مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ورتب الأجر والمثوبة على ذلك.

وهذا الكتاب هو الجزء الحادي عشر من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟!**» مطرز بحلل الآداب ومزين بفضائل الأخلاق.. نرى البون الشاسع بين من تجملوا وتدثروا بها وحالنا التي شحت فيها الأنفس وضاقت الصدور وتكدرت منابع الإحسان وندرت صنائع المعروف.

نفع الله به وجعله خالصًا لوجهه الكريم.

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

مدخل

مكارم الأخلاق صفةٌ من صفات الأنبياء والصديقين والصالحين، بها تُنال الدرجات، وتُرفع المقامات، وقد خصَّ الله ـ جلَّ وعلا ـ نبيه محمدًا ﷺ بآية جمعت له محامد الأخلاق ومحاسن الآداب، فقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

وحُسن الخلق يوجب التحاب والتآلف، وسوء الخلق يُثمر التباغض والتحاسد والتدابر، ومهما كان الثمر محمودًا كانت الثمرة محمودة[١].

والأثر واضح في الدنيا والآخرة لمن حَسُن خلقه، وجمع الله له بين التقوى وحسن الخلق. قال ﷺ: «**أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق**»[٢].

وحُسن الخلق: طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى عن الناس. هذا مع ما يلازم المسلم من كلام حسن.. ومداراة للغضب وكتمانه واحتمال الأذى..

هذا هو حسن الخلق الذي يؤدي إلى السلامة، ويأمن صاحبه الندامة. وقد قال ﷺ: «**بعثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاقِ**»[٣].

وأوصى ﷺ أبا هريرة بقوله: «**يا أبا هريرة! عليك بحسن الخلق**»، قال أبو هريرة رضي الله عنه ـ: وما حسن الخلق يا رسول الله؟ قال: «**تصل**

---

(١) الإحياء: (٢/ ١٧١).

(٢) أخرجه الترمذي، والحاكم.

(٣) رواه أحمد، والبيهقي، والحاكم وصححه.

من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، وتُعطي من حرمك»[1].

وانظر ـ أخي المسلم ـ إلى الأثر العظيم والثواب الجزيل لهذه المنقبة المحمودة. فقد قال ﷺ: «**إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**» [رواه أحمد]، وعدَّ ﷺ حسن الخلق من كمال الإيمان. فقال: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**».

وتأمل أخي قول الرسول ﷺ: «**أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله ـ عز وجل ـ سرورٌ تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولئن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن اعتكف في المسجد شهرًا**» [رواه الطبراني].

أخي المسلم:

الكلمة الهينة اللينة تقولها، لك بها أجر، وتكون لك صدقة، فقد قال ﷺ: «. . . **والكلمة الطيبة صدقة**» [متفق عليه].

وكل ذلك لما للكلمة الطيبة من أثر محمود وفعل مشهود، فهي تُقرب القلوب، وتُحبب النفوس، وتُزيل الكلفة والتنافر. .

والتوجيهات النبوية في الحثِّ على حسن الخلق واحتمال الأذىٰ كثيرة معروفة. ومنها قوله ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخُلق حسن**» [رواه الترمذي].

وخلق المسلم ملازم له في كل مكان وزمان يحببه إلى المسلمين، ويقربه منهم في كل طريق يطرقه، وفي كل مكان ينزل فيه. . له سهم من المحبة والمودة في عمله وفي طريقه. . بل في بيته، حتى اللقمة يرفعها

---

(١) رواه البيهقي في الشعب.

إلى فم زوجته يؤجر عليها. . فيها تطيب نفس، وإدخال فرح، وإزالة كدر. قال ﷺ: «**وإنك مهما أنفقت من نفقة فهي صدقة، حتى اللقمة التي ترفعها إلى فيِّ امرأتك**» [رواه البخاري].

كل هذا إظهار للمودة والمحبة، ووأد للتفرق، وإزالة للشقاق. .

أخي الحبيب:

المؤمنون إخوة. ويجب على المسلم أن يُحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه. . وانظر إلى ما تحب لنفسك فقدمه لأخيك المسلم، وما تكرهه فأخره وأبعده عنه. . وإياك وتحقير من آمن بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً ونبيًّا.

فقد حذر ﷺ من ذلك بقوله: «**بحسب امريء من الشَّرِّ أن يحقر أخاه المسلم**» [رواه مسلم].

أخي المسلم:

طريقٌ سهلٌ وعبادةٌ ميسرةٌ في كلِّ حينٍ. قال ﷺ لأبي الدرداء: «**ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها ـ أخفها ـ على البدن؟ الصمت وحسن الخلق**» [رواه ابن أبي الدنيا في الصمت].

وأجر المؤمن على حسن خلقه يتساوىٰ مع أجر المؤمن الذي يقوم الليل كلَّه ويصوم النَّهار. فالمؤمن كما يقول ﷺ: «**ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**».

وعلى هذا الاعتبار كان **الصحابي الجليل أبو الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ يقول: «إن العبد المسلم يحسن خلقه حتى يدخله حسن خلقه الجنة، ويسيء خلقه حتى يدخله سوء خلقه النار».

قال **الإمام الشافعي**: ـ رحمه الله ـ: «من استغضب ولم يغضب فهو حمار. ومن استُرضي فلم يرض فهو شيطان. فلا تكن حمارًا ولا شيطانًا، واسترض قلبك بنفسك نيابة عن أخيك، واحترز أن تكون شيطانًا إن لم تقبل»[(١)].

وحين سُئل **سهل التستري** عن حُسن الخلق. قال: أدناه الاحتمال، وترك المكافأة، والرحمة للظالم، والاستغفار له، والشفقة عليه»[(٢)].

وقد جُمعت **علامات حسن الخلق** في صفات عدة، منها:

أن يكون الإنسان كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، برًّا وصولاً، وفورًا، صبورًا، شكورًا، راضيًا، حليمًا، رفيقًا، عفيفًا، شفيقًا، لا لعانًا ولا سبابًا، ولا نمَّامًا ولا مغتابًا، ولا عجولاً ولا حقودًا ولا بخيلاً، ولا حسودًا، بشاشًا هشاشًا، يحب في الله، ويرضى في الله، ويغضب في الله.

والرجل ذو الخلق الحسن يحتمل أذى الناس، ويلتمس دومًا لهم العذر فيما يرتكبونه من أخطاء، ويحرص كل الحرص على تجنب تتبع أخطائهم والبحث عن عيوبهم للتشهير والإضرار بهم، ومن المتعارف عليه أن من شكا سوء خلق غيره، فإن ذلك دليل قاطع على سوء خلقه، والمؤمن لا يمكن أن يكون بأي حال من الأحوال سيء الخلق حيث قال ﷺ: «**خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخلق**»[(٣)].

---

(١) الإحياء: (٢/ ٢٠١).
(٢) الإحياء: (٣/ ٥٧).
(٣) الأدب المفرد: ((١/ ١٠٧).

وحين سُئل **الشعبي** عن حسن الخلق؟ قال: البذالة والعطية والبشر الحسن[١].

أخي المسلم:

صوتك الحبيب يرتفع وهو يقول:

لـــو أننـــي خيـــرت كـــل فضيلـــة
مـــا اختـــرت غيـــر محـــاســـن الأخـــلاق[٢]

وقد ذكر **علقمة العطاردي** أثر حسن الخلق في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة.. فقال: يا بُني! إذا عرضت لك صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك! وإذا صحبته زانك. وإن قعدت بك مؤنة أعانك، واصحب من إذا مددت يدك بخير مدها. وإن رأى منك حسنة عدها، وإن رأى سيئةً سدها، اصحب من إذا سألته أعطاك، وإن سكت ابتدأك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدق قولك، وإن حاولت أمرًا أمرك، وإن تنازعتما آثرك، فكأنه جمع بهذا جميع حقوق الصحبة وشرط أن يكون قائمًا بجميعها.

قال ابن أكثم: قال **المأمون**: فأين هذا؟ فقيل له: أتدري لم أوصاه بذلك؟ قال: لا.. قال: لأنه أراد أن لا يصحب أحدًا[٣].

لا تســـأل المـــرء عـــن خـــلائقـــه
فـــي وجهـــه شـــاهـــدٌ مـــن الخبـــر[٤]

---

(١) التواضع والخمول: (١٩١).
(٢) الأدب المفرد: (١/ ٢٧٦).
(٣) الإحياء: (٢/ ١٨٦).
(٤) أدب الدنيا والدين: (٢٤٠).

أخي المسلم:

إن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتيجة الأخلاق، والآداب رشح المعارف، وسرائر القلوب هي مغارس الأفعال ومنابعها، وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزينها وتجليها، وتبدل بالمحاسن مكارهها ومساوئها، ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه[١].

وعدد **علي بن أبي طالب** حُسن الخلق في ثلاث خصال: اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتوسعة على العيال[٢].

ومن ثمار حسن الخلق ما ذكره **يحيى بن معاذ** بقوله: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق[٣].

أخي:

أصل الأخلاق المذمومة كلها: الكبر، والمهانة، والدناءة.

وأصل الأخلاق المحمودة كلها: الخشوع، وعلو الهمة.

فالـفَخر والبطر والأشر والعجب والحسد والبغي والخيلاء والظلم والقسوة والتجبر والإعراض وإباء قبول النصيحة والاستئثار وطلب العلو وحب الجـاه والرئاسة وأن يُحمد بما لم يفعل وأمثال ذلك، كلها ناشئة من الكبر.

وأما الكذب والخسة والخيانة والرياء والمكر والخديعة والطمع

---

(١) الإحياء: (٢/ ٣٨٦).

(٢) الإحياء: (٣/ ٥٧).

(٣) المصدر السابق.

والفزع والجبن والبخل والعجز والكسل والذل لغير الله واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير ونحو ذلك، فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس[١].

قال الإمام **الشافعي**: سياسة الناس أشد من سياسة الدواب[٢].

أخي المسلم:

كل يوم تُقابل وتحادث أناسًا بهم طبائع مختلفة وأخلاق متباينة.. فهذا به من الحمق الشيء الكثير، وذاك به من السفه نصيب.. وآخر استهواه الشيطان فهو يهوىٰ الجدال والخصام.. وهل ـ أخي ـ في الدواب مثل ذلك؟!

والإمام **الشافعي** ـ رحمه الله ـ أتم علاجه وأشفى ببيانه فقال: الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط[٣].

وصاحب بمعروف وجانب من اعتدى
وفارق ولكن بالتي هي أحسن[٤]

ومن البله أن تبادر عدوًا أو حسودًا بالمخاصمة، وإنما ينبغي إن عرفت حاله أن تظهر له ما يوجب السلامة بينكما، إن اعتذر قبلت، وإن أخذ في الخصومة صفحت، وأريته أن الأمر قريب، ثم تبطن الحذر منه، فلا تثق به في حال وتتجافاه باطنًا مع إظهار المخالطة في الظاهر. وإن بالغ في

---

(١) الفوائد: (١٨٨).
(٢) السير: (١٠/ ٩٨).
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ٢٥٣).
(٤) شذرات الذهب: (٣/ ٣٥٠).

السب فبالغ في الصفح، تنب عنك العوام في شتمه، ويحمدك العلماء على حلمك[١].

قال **شفيق البلخي**: اصحب الناس كما تصحب النار، خذ منفعتها واحذر أن تُحرقك[٢].

وقال **وهيب بن الورد**: خالطت الناس خمسين سنة، فما وجدت رجلاً غفر لي ذنبًا، ولا وصلني إذا قطعته، ولا ستر عليَّ عورة، ولا ائتمنته إذا غضب، فالاشتغال بهؤلاء حمق[٣].

يقولون لي منك انقباض وإنما
رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم
ومن أكرمته عزة النفس أُكرما[٤]

قال **علي** ـ رضي الله عنه ـ: يا عجبًا لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً. فلو كان لا يرجو ثوابًا ولا يخشى عقابًا، لقد كان ينبغي له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق، فإنها مما تدل على سبيل النجاة.

فقال له رجل: أسمعته من رسول الله ﷺ؟.

فقال: نعم، وما هو خير منه، لما أتي بسبايا طيء وقفت جارية في السبي فقالت: يا محمد! إن رأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي أحياء

---

(١) صيد الخاطر: (٤٤٧).
(٢) صفة الصفوة: (٤/ ١٦٠).
(٣) حلية الأولياء: (٨/ ١٤٦).
(٤) شذرات الذهب: (٣/ ٥٧).

العرب، فإني بنت سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط. أنا ابنة حاتم الطائي. فقال ﷺ: «**يا جارية! هذه صفة المؤمنين حقًّا، لو كان أبوك مسلمًا لترحمنا عليه، خلُّوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، وإن الله يحب مكارم الأخلاق**»[١].

أخي الحبيب:

أنفعُ الناس لك رجلٌ مكنك من نفسه حتى تزرع فيه خيرًا، أو تصنع إليه معروفًا، فإنه نعم العون لك على منفعتك وكمالك، فانتفاعك به في الحقيقة مثل انتفاعه بك أو أكثر، وأضر الناس عليك من مكَّن نفسه منك حتى تعصي الله فيه، فإنه عونٌ لك على مضرتك ونقصك[٢].

وخير الأصحاب ما قال عنه **الشافعي**: ليس بأخيك من احتجت إلى مُداراته[٣].

ومن الناس اليوم من تغيرت أنفسهم وفسدت بواطنهم. كيف الوقوف معهم، والسير في ركابهم؟!

قيل: إن **أحمد بن حنبل** خرج إلى حاتم الأصم ورحب به، وقال له: كيف التَّخلُّص من النَّاس؟ قال: إن تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم، وتقضي حقوقهم ولا تستقضي أحدًا حقك، وتحتمل مكرههم ولا تكرههم على شيء، وليتك تسلم!![٤].

---

(١) الإحياء: (٢/٣٨٨).
(٢) الفوائد: (٢٤٨).
(٣) السير: (١٠/٩٨).
(٤) السير: (١١/٤٨٧).

أخي! ليتك تسلم!!

قال **أبو الدرادء**: أدركت الناس ورقًا لا شوك فيه، فأصبحوا شوكًا لا ورقة فيه، إن نقدتهم نقدوك، وإن تركتهم لا يتركوك، قالوا: فيكف نصنع؟ قال: تقرضهم من عرضك ليوم فقرك!!

وحدث بكار بن محمد السيريني، فقال: كان **عبد الله بن عون** مشغولاً بنفسه وما سمعته ذاكرًا بلال بن أبي بردة بشيء قط، ولقد بلغني أن قومًا قالوا له: يا أبا عون! بلال فعل كذا.

فقال: إن الرجل يكون مظلومًا، فلا يزال يقول حتى يكون ظالمًا، وما أظن أحدًا منكم أشد على بلال مني، قال: وكان بلال قد ضربه بالسياط[١].

وهذه نصيحة غالية ثمينة من **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ: لا تعرض لما يعنيك، واعتزل عدوك، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله ـ تعالى ـ، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله[٢].

ومن حسن الخلق ما نراه في بعض صلحاء القوم من الحلم وسعة البال. فقد كان أحدهم يقع في **عمر بن ذر** ويشتمه فلقيه عمر فقال: يا هذا لا تُفرط في شتمنا، وابق للصلح موضعًا، فإنا لا نكافيء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه[٣].

---

(١) السير: (٦/ ٣٧٠).

(٢) الصمت: (٩٧).

(٣) السير: (٦/ ٣٨٩).

ليس دنيا إلا بدين ولي
س الدين إلا بمكارم الأخلاق[١]

ولنا أن نتعجب من علو الشأن وشموخ الأخلاق وسمو الأنفس.. قال **ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ: أربعة لا أقدر على مكافأتهم.. رجل بدأني بالسلام، ورجلٌ وسع لي في المجلس، ورجل أغبرت قدماه في المشي في حاجتي، فأما الرابع فما يكافئه عني إلا الله ـ عز وجل ـ. قيل: ومن هو؟ قال: رجل نزل به أمرٌ، فبات ليلته يفكر فيمن يقصده.. ثم رآني أهلاً لحاجته فأنزلها بي[٢].

ولو طُرقت الأبواب الآن لحاجةٍ لأُغلقت.. ولو سمعت الآذان نائبةً لصمتت.. سبحان الله يفرحون بمن يقصدهم ويعدون ذلك شرفًا ورفعة.. وكرامة لهم..

ولكن الجود والخير بحار مغلقة.. ليست لها جادة ولا تُستهدى بعلامة.. فلهذا قل واردها.. وندر من أبحر فيها.. تتوقف دونها المراحل، وتظهر في ركوبها المراجل.. إنها تقسم مثل ما تقسم الأرزاق والآجال..

قال **الشافعي**: لو علمت أن الماء البارد ينقص من مروءتي ما شربته[٣].

أخي الحبيب:

وإذا بحثت عن التقى وجدته
رجلاً يصدق قوله بفعال

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٣٩٩).
(٢) وفيات الأعيان: (٣/ ٦٣).
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ٢٥٤).

وإذا اتقـــى الله امـــرؤ وأطـــاعـــه
فيـــداه بيـــن مكـــارم ومعـــال
وعلـــى التقـــي إذا تـــراســـخ فـــي التقـــى
تـــاجـــان تـــاج سكينـــة وجمـــال
وإذا تنـــاسبـــت الـــرجـــال فمـــا أرى
نسبـــاً يكـــون كصـــالـــح الأعمـــال

حسن الاستماع ولطف الإنصات من علامات الأدب الجم، ومن صفات الإنسان المسلم.. فلا هو يَرُد متحدثًا ولا يصد متكلمًا.. بل يدع المتحدث يُتِمُّ حديثه.. هذا **عطاء بن رباح يقول**: إن الرجل ليحدثني بالحديث، فأنصت له، كأني لم أسمعه، وقد سمعته قبل أن يولد[١].

والنفس ـ أخي الحبيب ـ تحتاج إلى تقويم ومعالجة، فلن تستقيم أمورها، وتصلح أحوالها إلا بإلزامها الجادة، والصبر على ذلك..

قال **محمد بن المنكدر**: كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت[٢].

وإن من استقامة النفس عدم التكالب على الدنيا والنظر إلى المادة على أنها السعادة والراحة.. بل إن السعادة تلوح مع بريق المادة، ولكنها تختفي، ولا تصل إلى قرارة النفس، لأن من أتبع عينيه مباهج الدنيا ونعيمها الزائل كدر حياته ونغص أيامه.. فمن متابعة أحوال الناس وحسدهم إلى غيبتهم ونميمتهم..

---

(١) السير: (٥/ ٨٦).
(٢) صفة الصفوة: (٢/ ١٤١).

وقد قال الفضيل في ذلك: لا يسلم لك قلبك حتى لا تبالي من أكل الدنيا[١].

فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله، فإنه يكره نعمة الله على عبده، وقد أحبها الله، ويحب زوالها عنه، والله يكره ذلك، فهو مضاد الله في قضائه ومحبته وكراهته[٢].

ألا قل لمن كان لي حاسدًا
أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في فعله
لأنك لم ترض لي ما وهب
فجازاك عنه بأن زادني
وسد عليك وجوه الطلب[٣]

وما ذنب محسودٍ يُحسد.. وما هبه الله هو كرمٌ منه وعطاء فهو يرتقي درجات المعالي.. ويسمو بنفسه عن الدنايا.

فتراه يُحسد على علمٍ حصله، أو تقوى وإيمان آنس به نفسه.. بل تراه يُحسد على الصحة والعافية وحتى يُحسد على أمرٍ لم ينله بعد.. سبحان الله أيُعترض على عطاء الله؟!

ولكن صوت المحسود يأتي بصوت قوي.. زانه الإيمان وطرزه الفرح بالشكر لله الذي وهبه.. ويتساءل ماذا لو كانوا هم المنفقون والواهبون؟!

---

(١) السير: (٨/ ٤٣٣).
(٢) الفوائد: (٢٠٦).
(٣) تاريخ بغداد: (١٣/ ٢٣٠).

إن يحسدوني فإني غير لائمهم
قبلي من الناس أهل الفضل قد حُسدوا
فدام لي ولهم وما بي وما بهم
وما أكثرنا غيظاً بما يجد

ولنسمع قول الإمام **الشافعي** في هذه الخصال الذميمة.. قال: بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد[١].

أخي المسلم:

وأنت تسير في هذه الدنيا تلمح سيء الخلق وترى تصرفاته.. من حمق إلى بُخلٍ ومن قلة أدب إلى سوء صنيع، ولا يغيب عن أذنيك صوته المرتفع وحديثه الممجوج.. هل هذا خلق المؤمن؟!

وضرر سيء الخلق لا يقتصر على صاحبه وحده، بل يمتد إلى من حوله وإلى كل من عرفه وقابله.. بل يمتد هذا الضرر إلى أناس بعيدين.. بل ولا يسلم من شره وآذاه حتى الحيوانات.

عن **أبي حازم سلمة بن دينار** قال: السيء الخلق أشقى الناس به نفسه التي بين جنبيه، هي منه في بلاء، ثم زوجته ثم ولده. حتى أنه ليدخل بيته وإنهم لفي سرور، فيسمعون صوته فينفرون عنه، فرقًا منه، حتى إن دابته تحيد مما يرميها بالحجارة، وإن كلبه ليراه فينزو على الجدار، حتى أن قطه ليفر منه[٢].

---

(١) السير: (١٠/٤١).
(٢) السير: (٦/٩٩).

وانظر ـ أخي ـ وتفكر في عظم فقه **إبراهيم التيمي** عندما قال: إن الرجل ليظلمني فأرحمه[١].

وذلك لعلمه أن للظلم سؤال في موقف عظيم.. الحسنات فيه غالية عزيزة، وفيه الهامات مرتفعة.. لمن ظُلم يبحث عن حقه.. ألا يرحمه!!

قال **الحسن**: من ساء خلقه عذب نفسه[٢].

لمـــا عفـــوت ولـــم أحقـــد علـــى أحـــدٍ
أرحـــت نفســـي مـــن غـــم العـــداوات
إنـــي أحـــي عـــدوي عنـــد زاويتـــه
لأدفـــع الشـــر عنـــي بـــالتحيـــات
وأظهـــر الشـــر لـــلإنســـان أبغضـــه
كمـــا أملـــي قلبـــي مـــن محبـــات
ولســـت أسلـــم ممـــن لســـت أعـــرفـــه
فكيـــف أسلـــم مـــن أهـــل المـــودات[٣]

وعن الحسد قال **الفقيه السمرقندي** ـ رحمه الله ـ: ليس شيء أضر من الحسد؛ لأنه يصل إلى الحاسد خمس عقوبات، قبل أن يصل إلى المحسود مكروه:

أولاها: غم لا ينقطع.

الثانية: مصيبة لا يؤجر عليها.

الثالثة: مذمة لا يُحمد عليها.

---

(١) السير: (٥/ ٦١).

(٢) الإحياء: (٣/ ٥٧).

(٣) ترتيب المدارك: (٢/ ٦٧).

الرابعة: يسخط عليه الرب.

الخامسة: تغلق عليه أبواب التوفيق[١].

هذه خصلة الحسد وهي من خصائلَ ذميمة ونفوس دنيئة.. ولكن.

اصبر على كيد الحسو
د فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها
إن لم تجد ما تأكله

والناس غالبهم اليوم فرَّغ نفسه من حُسن الخلق فهو يناصر هذا ويدافع ذاك ويصرخ على آخر.. لننظر حال من قبلنا كيف استفادوا من أوقاتهم وبماذا عمروها وهي سنوات قصيرة وأيام معدودة.

قال **عبد الرحمن بن مهدي**: لو قيل لحماد بن سلمة: إنك تموت غدًا ما قدر أن يزيد في العمل شيئًا!!

هذه الإفادة الكاملة من الوقت.. والرغبة فيما عندالله..

وكان **عامر بن قيس** إذا أصبح قال: اللهم، غدا الناس إلى أسواقهم وأصبح لكل امريء منهم حاجة، وحاجتي إليك يا رب أن تغفر لي.

قال أبو تراب: قال شفيق **لحاتم الأصم**: منذ صحبتني، أي شيء تعلمت مني؟

قال: **ست كلمات**:

* رأيت الناس في شك من أمر الرزق، فتوكلت على الله، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

---

(١) تنبيه الغافلين: (١/ ١٩٠).

* ورأيت لكل رجل صديقًا يفشي إليه سره ويشكو إليه، فصادقت الخير ليكون معي في الحساب، ويجوز معي الصراط.

* ورأيت لكل أحد له عدو، فمن اغتابني ليس بعدوي، ومن أخذ مني شيئًا ليس بعدوي، بل عدوي من إذا كنت في طاعة أمرني بمعصية، وذلك إبليس وجنوده، فاتخذتهم عدوًا وحاربتهم.

* ورأيت الناس كلهم لهم طالب، وهو ملك الموت، ففرغت له نفسي.

* ونظرت في الخلق، فأحببت ذا وأبغضت ذا، فالذي أحببته لم يعطني، والذي أبغضته لم يأخذ مني شيئًا، فقلت: من أين أتيت؟ فإذا هو من الحسد فطرحته. وأحببت الكل، فكل شيء لم أرضه لنفسي لم أرضه لهم.

* ورأيت الناس كلهم لهم بيت ومأوى، ورأيت مأواي القبر، فكل شيء قدرت عليه من الخير قدمته لنفسي لأعمر قبري..

قال شفيق: عليك بهذه الخصال[1].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

نماذج حية لسيرهم وحياتهم.. إنها درر من الكلام تطرق القلب.. وتحيي الفؤاد..

استعمل **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ بحمص **سعيد بن عامر بن حزيم**، فلمَّا قدم عمر حمص قال: يا أهل حمص كيف وجدتُم عاملكم؟

---

(١) السير: (١١/ ٤٨٥).

فشكوه إليه، وكان يقال لأهل حمص: «الكويفة الصغرى» لشكايتهم العمال.

قالوا: نشكو أربعًا:

لايخرج إلينا حتى يتعالى النهار.

قال: أعظم بها، قال: وماذا؟

قالوا: لا يجيب أحدًا بليلٍ.

قال: وعظيمة، قال: وماذا؟

قالوا: له يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا.

قال: عظيمة، وماذا؟

قالوا: يغنط الغنطة بين الأيام أي تأخذه موته.

فجمع عمر بينهم وبينه وقال: ـ اللهم لا تفيل رأيي فيه اليوم ـ ما تشكون منه؟

قالوا: لا يخرج حتى يتعالى النهار.

قال: والله إن كنت لأكره ذكره، إنه ليس لأهلي خادم فأعجن عجينهم، ثم أجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ، ثم أخرج إليهم.

فقال: ما تشكون منه؟

قالوا: لا يجيب أحدًا بليلٍ.

قال: ما يقولون؟

قال: إن كنت لأكره ذكره، إني جعلت النهار لهم وجعلت الليل لله ـ عز وجل ـ.

قال: وما تشكون منه؟

قالوا: إن له يومًا في الشهر لا يخرج إلينا فيه.

قال: ما يقولون؟

قال: ليس لي خادم يغسل ثيابي، ولا لي ثيابٌ أبدلها، فأجلس حتى تجف، ثم أدلكها، ثم أخرج إليهم من آخر النهار.

قال: ما تشكون منه؟

قالوا: يغنط الغنطة بين الأيام[١].

قال: ما يقولون؟

قال: شهدت مصرع خبيب الأنصاري، وقد بضعت قريش لحمه، ثم حملوه على جذع.

فقال: والله ما أحب أني في أهلي وولدي وأن محمدًا شيك بشوكة، فما ذكرت ذلك اليوم وتركي نصرته في تلك الحال وأنا مشرك لا أؤمن بالله العظيم إلا ظننت أن الله ـ عز وجل ـ لا يغفر لي بذلك الذنب أبدًا، فتصيبني تلك الغنطة.

فقال عمر: الحمد لله الذي لم يفيل فراستي.

سيُعطي الصادقين بفضل صدقٍ
نجاة في الحياة وفي الممات[٢]

إن الأخلاق الفاضلة كالصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة والجود والحلم والعفو والصفح والاحتمال والإيثار وعزة النفس عن الدناءات والتواضع والقناعة والصدق والإخلاص والمكافأة

---

(١) الغنط: أشد الكرب والجهد.

(٢) شرح الصدور: (٢١٦).

على الإحسان بمثله أو أفضل، والتغافل عن زلات الناس وترك الاشتغال بما لا يعنيه وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك، فكلُّها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة، والله ـ سبحانه ـ أخبر عن الأرض بأنها تكون خاشعة ثم ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتأخذ زينتها وبهجتها، فكذلك المخلوق منها إذا أصابه حظه من التوفيق.

وأما النار فطبعها العلو والإفساد ثم تخمد فتصير أحقر شيء وأذله، وكذلك المخلوق منها فهي دائمًا بين العلو إذا هاجت واضطربت، وبين الخسة والدناءة إذا خمدت وسكنت، والأخلاق المذمومة تابعة للنار والمخلوق منها، والأخلاق الفاضلة تابعة للأرض والمخلوق منها، فمن علت همَّته وخشعت نفسه اتصف بكل جميل، ومن دنت همتُه وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل[١].

أخي الحبيب:

كانت ابنة **الربيع بن خثيم** تأتيه فتقول: يا أبتاه ائذن لي أن ألعب. فيقول: يا بنية قولي خيرًا، قال: فتلقنها أمها: قولي أتحدث، فيقول: إني لم أسمع الله رضي لأحدٍ اللعب[٢].

إنـــا أنـــاس مـــن سجيتنـــا
صـــدق الحـــديـــث واينـــا حتـــم[٣]

قال **يحيى بن معاذ**: إن العاقل المصيب من عمل ثلاثًا: ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى ربه قبل أن يلقاه.

---

(١) الفوائد: (١٨٩).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٦٤).
(٣) الصمت: (٢٣١).

هي النفس ما حملتها تتحمل
وللدهر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة
وأحسن أخلاق الرجال التفضل
ولا عار إن زالت عن الحر نعمةٌ
ولكن عارًا أن يزول التجملُ

والنار من مستصغر الشرر.. كل يوم نرى لهيبها في البيوت والطرقات. في الساحات والميادين.. ترتفع الأصوات ويكثر اللغط. ويتجنى المسلم على أخيه المسلم.

قيل إن رجلاً خاصم **الأحنف بن قيس** وقال: لئن قلت واحدةً، لتسمعن عشرًا، فقال: لكنك إن قلت عشرًا لم تسمع واحدًا[١].

هذا هو الحلم وذاك العقل.. ما بال المسلم يتجنبه.. وفي الأزمات والملمات يتركه.. فتشتعل الأرض لهبًا وترمي السماء شُهبًا..

قال **حاتم الأصم**: تعاهد نفسك في ثلاث: إذا عملت فاذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمت فاذكر سمع الله منك، وإذا سكت فاذكر علم الله فيك[٢].

وأنت ـ أخي ـ حين ترى ارتفاع الأصوات، وتداخل الكلمات وكثرة الهرج والمرج.. تذكر قول **عبد الله بن مسعود** حين قال: إن الرجل يخرج من بيته ومعه دينه فيرجع وما معه منه شيء، يأتي الرجل لا يملك

---

(١) السير: (٤/٩٣).
(٢) السير: (١١/٤٨٥).

له ولا لنفسه ضرًّا ولا نفعًا فيقسم بالله أنك لذيت وذيت فيرجع وما جيء من حاجته بشيء ويسخط الله[١].

وهذه الصور تمر أمامنا كشريط يصور مناحي الدنيا ويرحل بنا في خبايا النفس الإنسانية فترتسم الصفات الإسلامية شامخة فوق هامات الرجال تعاملاً وحديثًا وخلقًا.

عن **عبيد الله بن عبد الله بن عتبة** قال: ما كان البر يُعرف في عمر ولا في ابنه حتَّى يقولا، أو يفعلا، عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ[٢].

قال **الحسن**: من استطاع منكم أن يكون إمامًا لأهله، إمامًا لحيه، إمامًا لمن وراء ذلك، فإنه ليس شيء يؤخذ عنك إلا كان لك منه نصيب[٣].

أخي:

مر **حسان بن أبي سنان** بغرفة فقال: مذ كم بنيت هذه؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: وما عليك مذ كم بنيت؟! تسألين عما لا يعنيك. فعاقبها بصوم سنة[٤].

وقال **عبد الله بن عوف**: أحبُّ لكم يا معشر إخواني ثلاثًا: هذا القرآن تتلونه آناء الليل والنهار، ولزوم الجماعة، والكفَّ عن أعراض المسلمين[٥].

---

(١) صفة الصفوة: (١/ ٤١٨).
(٢) حلية الأولياء: (١/ ٣١١).
(٣) الزهد لابن المبارك: (٢٩٢).
(٤) حلية الأولياء: (٣/ ١١٥).
(٥) حلية الأولياء: (٣/ ٣٧).

أخي المسلم:

من حُسن الخلق إظهار الأدب وإبراز المحاسن والأفعال الإسلامية هذا **الإمام الشافعي** يحكي جزءًا من حياته يقول: ما كذبت قطُّ، ولا حلفت بالله، ولا تركتُ غُسل الجمعة، وما شبعت منذ ست عشرة سنة إلا شبعة طرحتها في ساعتي[١].

وانظر ـ أخي ـ إلى الخصال الحميدة والأفعال الجملية.. قال سلم بن جنادة: جالست **وكيعًا بن الجراح** سبع سنين فما رأيته بزق ولا مس حصاة ولا جلس مجلسه فتحرك، ولا رأيته إلا مستقبل القبلة، وما رأيته يحلف بالله[٢].

ونحن نتعجَّب من هذه الأمور المجتمعة فيه.. هذا **عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ** يقول: إنَّه ليعجبني الشَّاب النَّاسك نظيف الثَّوب طيِّب الرِّيح[٣].

والبعض لا يرى للنَّظافة حقَّها ولا لحسن المظهر أثره.. فتراه مهملاً في ملبسه، رثة ثيابه.. كأنَّه قادمٌ من سفر في صحراء قاحلة وأرض مجدبة.. ما رأى الماء منذ شهور ولا اغتسل منذ دهور..

قال **عبد الله بن أحمد** قال: إني ما رأيت أحدًا أنظف ثوبًا ولا أشد تعهدًا لنفسه في شاربه وشعر رأسه وشعر بدنه، ولا أنقى ثوبًا وأشده بياضًا من أحمد بن حنبل.

رحمه الله ورحمنا برحمته لم يهمل جانبًا على حساب جانب، ولم يضيع أمرًا أو يفرط فيه. بل اتبع السنة المطهرة في أمور حياته..

---

(١) السير: (١٠/٩٧).
(٢) تذكرة الحفاظ: (١/٣٠٧).
(٣) تاريخ عمر: (٢١٩).

أخي المسلم:

ما نراه من التهافت على الدنيا ونقص المكاييل والموازين والفرح بخداع المسلم في البيع والشراء إنما هو نتيجة لغفلة نحن سائرون في ظلامها وبحور من الأماني مبحرون في لججها.. ما زادتنا الدنيا إلا حرصًا ولا الغنى إلا شحًّا.. لنرى موقفًا رواه الوليد بن بشار حيث قال: جاءت امرأة **فسألت حسان بن أبي سنان**، فقال لشريكه: هكذا، وأشار بأصبعيه السَّبَّابة والوسطى، فذهب شريكه يزن لها درهمين، فوزن لها مائتين.

فقالوا: يا أبا عبد الله.. كنت ترضى بهذا.. كذا وكذا من سائل.

فقال: إنِّي ذهبت في شيء لم تذهبوا منه، وإنِّي رأيت بها بقية من الشَّباب وخشيت أنْ تحملها الحاجة على بعض ما أكره.

نعم المال!.. ونعم المسلم! يعِفُّ أخته المسلمة.. يصون عرضها بماله، ويقضي حاجتها قبل أنْ يشتدَّ بها العوز والحاجة إلى ما لا يحلُّ.

فهذه فائدة المال وهذا حسن التصرف..

أصـــون عـــرضـــي بمـــالـــي لا أدنســـه
لا بـــارك الله بعـــد العـــرض فـــي المـــال

وحين نظر إلى سفيان وفي يده دنانير فقال: يا أبا عبد الله تُمسك هذه الدنانير، فقال: أسكت، فلولاها لتمندل بنا الملوك.

إذا أعســـرتُ لـــم يعلـــم رفيقـــي
وأستغنـــي فيستغنـــي صـــديقـــي
حيـــائـــي حـــافـــظ لـــي مـــاء وجهـــي
ورفقـــي فـــي مطـــالبتـــي رفيقـــي

ولـــــو أنِّـــي سمحـــــتُ بمـــــاء وجهـــي
لكنـــت إلـــى العُـــلا سهـــل الطـــريـــق[١]

احتجم **داود الطائي** فدفع دينارًا إلى الحجام، فقيل له: هذا إسراف؟!
فقال: لا عبادة لمن لا مروءة له!!

كيف لو رأى زمانًا يفاصل الكثير في ما لا يُذكر من قليل النقود.. بل البعض يضيع من وقته الكثير في سبيل سقط من الدنيا.. يجادل ويخاصم وربما حلف وأقسم!!

قال الأوزاعي: هلك **ابن بلال بن سعيد**، فجاء رجل يدعي عليه ببضعة وعشرين دينارًا.

فقال له بلال: ألك بينة؟! قال: لا، قال: فلك كتاب؟! قال: لا، قال: فتحلف؟ قال: نعم، قال: فدخل فأعطاه الدنانير، فقال: إن كنت صادقًا فقد أديتُ عن ابني، وإن كنت كاذبًا فهي لك صدقة!!

لنعد قرونًا طويلة.. فقد كان جابر بن زيد لا يماكس[٢] في ثلاث: في الكراء إلى مكة، وفي الرقبة يشتريها للعتق، وفي الأضحية. وكان لا يماكس في كل شيء يتقرب به إلى الله ـ عز وجل ـ[٣].

أخي المسلم:

تســـــامـــــح ولا تستـــــوف حقـــــك كلـــــه
وأبـــــق فلـــــم يستـــــوف قـــــط كـــــريـــــم

---

(١) السير: (١٤/ ٢٧٦).
(٢) لا يماكس: أي لا يساوم ولايطلب إنقاص الثمن.
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٢٣٧).

ولا تغـــل فـــي شـــيء مـــن الأمـــر واقتصـــد
كـــلا طـــرفـــي قصـــد الأمـــور ذميـــم[١]

جاء رجل إلى **وكيع بن الجراح** فقال: إني أُومتُّ إليك بحرفة، قال: ما حرفتك؟ قال: كنت تكتب من محبرتي في مجلس الأعمش، فوثب وكيع فدخل منزله فأخرج له صرة فيها دنانير، فقال: أعذرني فإني ما أملك غير هذا[٢].

لم يكن هناك هلع على الدنيا ولا حرصٌ على جمع المال.. بل علموا أنهم ما خلقوا إلا للعبادة والطاعة فأهمهم الأمر واستعدوا للرحيل..

وحين جاء رجل من أصحاب المعتضد إلى **إبراهيم الحربي** بعشرة آلاف درهم من عند المعتضد، فرده فانصرف الرسول ثم عاد، فقال: إن أمير المؤمنين يسألك أن تفرقه في جيرانك فقال: عافاك الله، هذا مال لم نُشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته، قل لأمير المؤمنين: إن تركتنا وإلا تحولنا من جوارك!! والكثير الآن يتحول إلى جواره!!

موقف لا يُنسى **لعبد الله بن المبارك** فقد قال محمد عيسى: كان ابن المبارك كثير الاختلاف إلى طرطوس، وكان ينزل الرقة في خان، فكان شاب يختلف إليه، ويقوم بحوائجه، ويسمع منه الحديث، فقدم عبد الله مرة فلم يره، فخرج في النفير مستعجلاً، فلما رجع سأل عن الشاب؟

فقال: محبوس علىٰ عشرة آلاف درهم، فاستدل على الغريم، ووزن له عشرة آلاف وحلفه ألا يخبر أحدًا ما عاش، فأخرج الرجل، وسرى ابن

---

(١) العزلة (٩٩)، شذرات الذهب: (٣/ ١٢٨).
(٢) تاريخ بغداد: (١٣/ ٥٠٠).

المبارك، فلحقه الفتى على مرحلتين من الرقة، فقال: يا فتى، أين كنت؟ لم أرك، قال: يا أبا عبد الرحمن كنت محبوسًا بدين، قال: وكيف خلصت؟ قال: جاء رجل فقضى ديني ولم أدره، قال: فاحمد الله، ولم يعلم الرجل إلا بعد موت عبد الله.

أخي المسلم:

ألم يمر بك يوم وقد احتجت إلى صاحب وصديق.. الكثير تمر به تلك المواقف فمقل ومكثر منها.. فكيف ترى فرحة صديقك عندما احتجت إليه وقدمته على غيره أم تراه من الذين يتوارون عنك عند الحاجة ويهربون منك وقت الشدة؟! إنَّها مواقف معدودة في حياة المرء ولكنَّها تظهر الصديق الصدوق من ذلك الذي يختفي وقت الحاجة ويهرب وقت الشدة.

قال **مطرف بن عبد الله** لبعض إخوانه: يا أبا فلان. إذا كانت لك حاجة، فلا تكلمني وأكتبها في رقعة، فإني أكره أن أرى في وجهك ذُل السؤال[١]

فـــلا وأبيـــك مـــا فـــي العيـــش خيـــر
ولا الـــدنيـــا إذا ذهـــب الحيـــاءُ
يعيـــش المـــرء مـــا استحيـــا بخيـــر
ويبقـــى العـــود مـــا بقـــي اللحـــاءُ[٢]

دخل علي بن الحسين على **محمد بن أسامة بن زيد** في مرضه فجعل محمد يبكي، فقال: ما شأنك؟ قال: عليَّ دين، قال: كم هو؟ قال:

---

(١) السير: (٤/ ١٩٤).
(٢) مكارم الأخلاق: (٢١).

بضعة عشر ألف دينار، قال: فهو عليَّ[١].

وروي أن **مسروقًا** أدان دينًا ثقيلاً، وكان على أخيه خيثمة دين، فذهب مسروق فقضى دين خيثمة وهو لا يعلم، وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم[٢].

أخي المسلم:

حين يتقدَّم إليك أخوك المسلم في حاجة له فافرح بذلك واعلم أنَّه قدَّمك على غيرك واصطفاك لقضاء حاجته.. ألا فأعنه.. ولا تقف دون قضاء حاجته ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

قال **حكيم بن حزام**: ما أصبحت وليس ببابي صاحب حاجة إلا علمت أنها من المصائب التي أسأل الله الأجر عليها.

والحاجة قد لا تكون مادية بل أحيانًا شفاعة.. فالكثير لا تُقضى حوائجهم إلا بتلك الشفاعة.. وبذل الجاه أحيانًا تزيد حاجته عن بذل المال.. فمن يبذل جاهه اليوم؟! إنهم قلة قليلة.. ومن قلتهم عُرفت أسماؤهم.. وقُصدت منازلهم.

كتب **الحسن بن سهل** لرجل كتاب شفاعة، فجعل الرجل يشكره، فقال الحسن: يا هذا، علام تشكرنا؟ إنا نرى الشفاعات زكاة مروءتنا ثم أنشأ يقول:

فرضتْ عليَّ زكاة ما ملكت يدي
وزكاة جاهي أن أعين وأشفعا

---

(١) السير: (٤/ ٣٩٤).
(٢) الإحياء: (٢/ ١٨٩).

فـــإذا ملكـــت فجـــد فـــإن لـــم تستطـــع
فـــاجهـــد بـــوسعـــك كلـــه أن تنفعـــا[١]

وتأمل ـ أخي المسلم ـ في فضل السعي في قضاء حوائج المؤمنين.

عنه ﷺ أنَّه قال: «**أحبُّ النَّاس إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنفعهم للنَّاس، وأحبُّ الأعمال إلىٰ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سرورًا يُدخله على مسلم، أو يكشف عنه كربه، أو يقضي عنه دينًا، أو يطرد عنه جوعًا، ولإن أمشي مع أخٍ في حاجة أحبُّ إليَّ من أنْ أعتكف في هذا المسجد شهرًا، ومن مشىٰ مع أخٍ في حاجةٍ حتَّىٰ تنتهيَ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام. وإنَّ سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخلُّ العسل**»[٢].

والأخلاق الإسلامية مترابطة متواصلة في جميع أمور الحياة وعبر الأوقات والأزمان..

قال **علي بن أبي طالب** ـ رضي الله عنه ـ: خمس خذوهن عنِّي: لا يخافن أحد منكم إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربَّه، ولا يستحيي من لا يعلم أن يتعلم، ولا يستحيي من لا يعلم إذا سُئل عمَّا لا يعلم أن يقول: الله أعلم، وإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان، وإذا ذهب الرأس ذهب الجسد[٣].

أخي المسلم:

صفة الحلم التي نسيها النَّاس ولم نسمع بها سوىٰ في كتب التُّراث وأقوال العلماء، أين نحن من التَّجمُّل بها والتَّزيُّن بها.

---

(١) وفيات الأعيان: (٢/ ١٢٠).
(٢) رواه ابن أبي الدنيا بإسناد حسن.
(٣) تاريخ الخلفاء: (١٧٣).

فقد قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلَّمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم، قيل: فما بلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته خادمة له بسفود عليه شواء فسقط السفود من يدها على ابن له فعقره فمات، فدهشت الجارية، فقال: ليس يسكن روع هذه الجارية إلا العتق، فقال لها: أنت حرَّة، لا بأس عليك[١].

أخي:

ليســـت الأحـــلام فـــي حيـــن الـــرضـــا
إنمـــا الأحـــلام وقـــت الغضـــب[٢]

قال الحسن: لقد رُوي أن رجلاً شتم أبا ذر ـ رحمه الله ـ فقال: إن بيني وبين الجنَّة عقبة إن جزتها فأنا خير ما تقول، وإن عرج بي دونها إلى النَّار فأنا شرٌّ ممَّا قلت فانته أيُّها الرَّجل، فإنَّك تصير إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصُّدور[٣].

وانظر ـ أخي ـ إلى حسن الصَّنيع وإلى مقابلة الشرِّ بالإحسان! فحين شتم رجل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فلمَّا قضى مقالته، قال: يا عكرمة، انظر هل للرَّجل حاجة فنقضيها؟ فنكس الرَّجل رأسه واستحى[٤].

واسمع ـ أخي ـ جماع الخير كما في قول **الشافعي**: الخير في خمسة:

---

(١) الإحياء: (٢/ ٢٤٠).
(٢) حلية الأولياء: (٤/ ٣٢٧).
(٣) الحسن البصري: (٢٥).
(٤) منهاج القاصدين: (١٩٩).

غنى النَّفس، وكف الأذى، وكسب الحلال، والتَّقوى، والثِّقة بالله[١].

وهذا **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ يقول: من اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خاف الله لم يفعل مايشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون[٢].

أخي الحبيب:

سامح ولا تحقد على أحد ليكن شعارك الآخرة، وكنْ كما قال قائل:

لمـــا عفـــوت ولـــم أحقـــد علـــى أحـــدِ
أرحـــت نفســـي مـــن حمـــل المشقـــات[٣]

يحكى أنَّ **الفضيل بن عياض** ـ رحمه الله ـ كان في الحرم فجاء خرساني يبكي، فقال له: لماذا تبكي؟ قال: فقدت دنانير، فعلمت أنَّها سرقت منِّي، فبكيت، قال: أتبكي من أجل الدَّنانير؟ قال: لا، لكنِّي بكيت لعلمي أنِّي سأقف بين يدي الله أنا وهذا السَّارق، فرحمت السَّارق فبكيت!!

وعندما سُرق **للربيع بن خثيم** فرس أعطى به عشرين ألفًا، فقالوا له: أدع الله عليه، فقال: اللهم إن كان غنيًّا فاغفر له. وإن كان فقيرًا فأغنه[٤].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال بكار بن محمد السيريني: كان فيما حدثني بعض أصحابنا **لابن عون** ناقة يغزو عليها ويحجُّ، وكان معجبًا بها، قال: فأمر غلامًا له يستقر عليها، فجاء بها وقد ضربها على وجهها، فسالت عينها على

---

(١) السير: (١٠/ ٩٧).
(٢) الإحياء: (٣/ ١٨٧).
(٣) شذرات الذهب: (٨/ ٧١).
(٤) صفة الصفوة: (٣/ ٦١).

خدها، فقلنا: إن كان من ابن عون شيء فاليوم، قال: فلم يلبث أن نزل، فلمَّا نظر إلى النَّاقة، قال: سبحان الله أفلا غير الوجه، بارك الله فيك، أخرج عنِّي، اشهدوا أنَّه حرٌّ[١].

أخي المسلم: إذا رأيت كثرة الظُّلم وجور النَّاس وتسلُّط الآخرين فاسمع قول إبراهيم التيمي: إن الرجل ليظلمني فأرحمه، وهذا إحسان وراء العفو، لأنَّه يشتغل قلبه بتعرضِّه لمعصية الله ـ تعالى ـ بالظُّلم وأنَّه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب[٢].

النـــاس فـــي الخيـــر لا يـــرضـــون عـــن أحـــد
فكيـــف ظنُّـــك سيمـــوا الشَّـــر أو ســـامـــوا[٣]

قال **عمرو بن قيس**: ثلاث مِنْ رؤوس التَّواضع: أنْ تبدأ بالسَّلام على مَنْ لقيت، وأنْ ترضىٰ بالمجلس الدون من الشَّريف، وأنْ لا تحبَّ الرِّياء والسُّمعة والمدحة في عمل الله[٤].

والتَّواضع من خصال الإسلام الكريمة، وصفاته الحميدة.. فكان سيد المرسلين متواضعًا يخفض جناحه للمؤمنين.

قال **بكر بن عبد الله** إذا رأيت من هو أكبر منك فقل: هذا سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: سبقته إلى الذنوب والمعاصي فهو خير مني[٥].

---

(١) السير: (٦/ ٣٧١).
(٢) الإحياء: (٣/ ١٩٥).
(٣) وفيات الأعيان: (٢/ ٨٢).
(٤) حلية الأولياء: (٥/ ١٠١).
(٥) صفة الصفوة: (٣/ ٢٤٨).

وانظر ـ أخي المسلم ـ إلى أثر الرِّفقة على سلوك الإنسان وحياته..

قال **عون بن عبدالله**: صحبت الأغنياء فلم يكن أحدًا أطول غمًّا منِّي، إنْ رأيت أحدًا أحسن ثيابًا مني وأطيب ريحًا منِّي، فصحبت الفقراء فاسترحت[١].

وهذا **عمر بن عبد العزيز** الخليفة العادل يسطر موقفًا في التَّواضع وحسن الخلق.. فقد روى رجاء بن حيوة ذلك فقال: سمرت ليلة عند عمر بن عبد العزيز، فعشي السراج، وإلى جانبه وصيف، قلت: ألا أنبهه؟، قال: لا، قلت: أفلا أقوم؟

قال: ليس من مروءة الرجل استخدامه ضيفه!!

فقام إلىٰ بطة الزيت وأصلح السِّراج ثمَّ رجع. وقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز[٢].

ما أجمل هذا التَّواضع! وما أطيب صفاء النَّفس!.. لم يتكبَّر ولم يتجبَّر، قام ـ رحمه الله ـ وهو عمر ورجع وهو عمر.. لم يرغب في خدمه ولم يطلب ثناءً أو مدحًا.

وقد قال **الثوري**: من عرف نفسه لم يضره مدح الناس[٣].

وما ذاك إلا لعلمهم أن الثناء والمدح لا يقدم ولا يؤخر.. فعندما دُخل على محمد بن واسع يُعاد في مرضه قال: ما يغني عني مايقول الناس إذا أخذ بيدي ورجلي فألقيت في النَّار[٤].

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ١٠١)، حلية الأولياء: (٤/ ٢٤٣).

(٢) تاريخ الخلفاء: (٢٢١).

(٣) الإحياء: (١/ ٢٧١).

(٤) صفة الصفوة: (٣/ ٢٧١).

بل ربما يكون هذا المدح باب للكبرياء والغرور والتجبر. وانظر إلى بعض من يحب الثناء والأبهة..

قال **أبو إسحاق الغزاوي**: إن من الناس من يحب الثناء عليه، وما يساوي عند الله جناح بعوضة[١].

كان **زيد بن الحارث** إذا كانت ليلة مطيرة أضاء بشعلة من نار فطاف على عجائز الحي فقال: أوكف عليكم البيت، أتريدون نارًا، فإذا أصبح طاف على عجائز الحي ويقول: ألكم في السوق حاجة؟ أتريدون شيئًا؟[٢].

أخي المسلم:

من منَّا الآن يجري ويسعى في حوائج الأيتام والأرامل؟ من منَّا من يتفقَّد حاجاتهم ويسدُّ عوزهم؟!

من يفعل الخير لا يُعدم جوازيه
لا يهلك العرف بين الله والناس[٣]

إن المسارعة إلى سد حاجات الناس ـ وخاصة من فقدوا عائلهم ـ: من خصال المسلم الحميدة، وعرفت شخصًا جزاه الله خيرًا فرغ نفسه للأرامل والأيتام فيراجع عنهم الدوائر الرسمية، ويقضي حاجاتهم. ويبث شكواهم إلى القادرين، ويتفقَّد أحوالهم.. فيتابع هذا اليتيم في المدرسة، ويبحث عن مرتبات التقاعد إن كان لهم فيها نصيب، ويذهب بأطفالهم إلى المستشفى.. جزاه الله خيرًا ورزقه الإخلاص في العمل..

---

(١) حلية الأولياء: (٨/ ٢٥٥).
(٢) حلية الأولياء: (٥/ ٣١).
(٣) مكارم الأخلاق: (٣٨).

خرج **ابن مسعود** ذات يوم فاتبعه الناس، فقال لهم: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، ولكن أردنا أن نمشي معك، قال: ارجعوا فإنَّه ذلَّة للتَّابع وفتنة للمتبوع.

وحين سُئل **يوسف بن إسباط**: ما غاية الزهد؟ قال: لا تفرح بما أقبل ولا تأسف على ما أدبر.

وقيل له: فما غاية التواضع؟ قال: أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحدًا إلا رأيت أنه خير منك[١].

وهذا **عمر الندي** يقول: خرجتُ مع ابن عمر، فما لقي صغيرًا ولا كبيرًا إلا سلم عليه[٢] ـ رضي الله عنه ـ فما أشد تواضعه رغم غزارة علمه ورفعة قدره، فهو الذي يبدأ بالسَّلام على الصغير والكبير.. والبعض اليوم يتثاقل حتَّى في رد السَّلام. فلا نرى تلك البشاشة وذلك الارتياح.. بل الكثير عليه آثار الغضب والعبوس من أمرٍ بسيطٍ وشأنٍ حقيرٍ.

من كان يأمل أن يرى
من ساقطٍ نيلاً سنيا
فلقد رجا أن يجتني
من عوسج رُطَبًّا جنيا[٣]

كان **قاسم الجوعي** يحدث في حلقته: اغتنموا من زمانكم خمسًا، إن حضرتم لم تعزموا، وإن غبتم لم تفتقدوا، وإن شهدتم لم تشاوروا، وإن قلتم شيئًا لم يقبل قولكم، وإن عملتم شيئًا لم تعطوا به.

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ٢٦٥).
(٢) السير: (٣/ ٢٢١).
(٣) أدب الدنيا والدين: (١٩٤).

وأوصيكم بخمس أيضًا: إن ظلمتم فلا تظلموا، وإن مدحتم لا تفرحوا، وإن ذممتم لا تجزعوا، وإن لذبتم فلا تغضبوا وإن خانوكم فلا تخونوا[١].

أخي المسلم:

تتجسد الصور أمامنا.. وتمر العبر حولنا.. ولكن أين الاعتبار والاستعداد.. بل والتأثر والمتابعة.. لحظات قليلة.. ثم ننسى ما سمعنا وما قرأنا..

أخي:

من خصال الخير في سلفنا الصَّالح الورع، ويتجلَّى بأبهى صورة وأنصع رؤيته في الرَّعيل الأوَّل.. ثمَّ يمتدُّ حتَّىٰ زماننا الحاضر على قلَّة وندرة. فكثيرًا مانسمع عن ورع العلماء والعُبَّاد والصَّالحين في كلِّ زمان ومكان.. تركوا الدُّنيا ولم يتهافتوا عليها.. كان هـمُّهم الدَّار الآخرة..

قال **الحسن** ـ رضي الله عنه ـ: ما ضربت ببصري، ولا نطقت بلساني، ولا بطشت بيدي، ولا نهضت على قدمي حتَّى أنظر أعلى طاعة أو على معصية؟ فإن كانت طاعة تقدَّمت، وإن كانت معصية تأخَّرت[٢].

والأمر يسير على من يسره الله عليه ووفقه وأعانه وجاهد نفسه حتَّى أراها الاستقامة وألزمها الجادة.

عن **ابن المنكدر** قال: كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت[٣].

إنها مكابدة ومصابرة ومجاهدة حتى في أدق الأمور وأصغرها.. فقد

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ٢٣٧).

(٢) جامع العلوم والحكم: (٩٣).

(٣) السير: (٥/ ٣٥٥).

مر رجل يحمل حشيشًا فتناول منه رجل طاقة، فقال له: ابن عمر: أرأيت لو أن أهل منى أخذوا من هذا طاقة وطاقة.. بقي منه شيء؟! قال: لا، قال: لم فعلت؟!

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال **عبد الله بن أحمد بن حنبل**: لم ير أحد أبي إلا في مسجد، أو حضور جنازة أو عيادة مريض، وكان يكره المشي في الأسواق[١].

إن كنت تبغي الرشاد محضًا
لأمر دنياك والمعاد
فخالف النفس في هواها
إن الهوى جامع الفساد[٢]

أخي الحبيب:

هلا وقفت معي نتأمل في ورع **سلمان الفارسي** فقد روى الحسن بقوله: كان عطاء **سلمان الفارسي** خمسة آلاف، وكان أميرًا على زهاء ثلاثين ألفًا من المسلمين، فإذا خرج عطاؤه أمضاه، ويأكل من سفيف يده[٣].

وإني بحمد الله لا ثوب غادر
لبست ولا من غدرة أتقنع

بل أخي:

إذا أظمأتك أكف اللئام
كفتك القناعة شبعًا وريا

---

(١) مناقب الإمام أحمد ص (٣٥٠).
(٢) تذكرة الحفاظ: (٣/ ١١٤٥).
(٣) يعني: أنه كان يتصدق بوظيفته من بيت المال ثم يسف الخوص ويأكل منه.

فكـــــن رجـــــلاً رجلـــــه فـــــي الثـــــرى
وهـــــامـــــاً همتـــــه فـــــي الثـــــريـــــا
أبيـــــاً لنفســـــك عـــــن بـــــاخـــــل
تـــــراه بمـــــا فـــــي يـــــديـــــه أبيـــــا
فـــــإن إراقـــــة مـــــاء الحيـــــاة
دون إراقـــــة مـــــاء المحيـــــا

أخي المسلم:

للذنوب والمعاصي آثار على المسلم.. ولكن كثرت ذنوبنا فلا ندري من أين نُؤتى.

كان **الفضيل بن عياض** يقول: إني لأعصي الله، فأعرف ذلك في خلق دابتي وجاريتي[1].

وقيل: إن سبب ترك **عافية بن يزيد بن قيس** القضاء: أنه تثبت في حكم، فأهدى له الخصم رطبًا، فرده وزجره، فلما حاكم خصمه من الغد قال **عافية**: لم يستويا في قلبي، ثم حكاها للخليفة قال: هذا حالي وما قبلت، فكيف لو قبلت، فأعفاه.

وعفاف النفس وغناها يضرب المثل فيهم ربهم.. قال **أبو يوسف الفولي**: إنه ليكفيني في السنة اثنا عشر درهمًا، في كل شهر درهم، وما يحملني على العمل إلا ألسنة هؤلاء القراء يقولون: أبو يوسف من أين يأكل، وكان يقول: أتفقه في مطعمي من ستين سنة.

وقال موسى بن طريف: سمعت **يوسف بن إسباط** يقول: لي أربعون

---

(١) صيد الخاطر ص (٣٤).

سنة ما حك في صدري شيء إلا تركته.

أخي الحبيب:

صن النفس وأحملها على ما يزينها
تعش سالماً والقول فيك جميل
ولا تر من الناس إلا تجملاً
نبا بك دهر أو جفاك خليل[1]

عن إسحاق بن راهويه قال: لمَّا خرج **أحمد بن حنبل** إلى عبد الرزاق انقطعت به النفقة فأكري نفسه من بعض الجمالين إلى أن وافي صنعاء، وقد كان أصحابه عرضوا عليه المواساة فلم يقبل من أحد شيئًا.

وحين سُئل **الثوري** عن مسألة وهو يشتري شيئًا، قال: دعني فإن قلبي عند درهمي.

أخي المسلم:

ترى الكثير يعجبك مظهره ويجذبك سحر حديثه، وترى أنه هوالرجل.. ولكن قبل أن تستعجل الحكم، عليك بميزان **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ حين قال: لا تعجبكم من الرجل طنطنته، ولكن من أدى الأمانة وكف عن أعراض الناس لهو الرجل[2].

* * *

(١) ديوان الإمام علي ص (١٥٧).
(٢) تاريخ عمر ص (٢٢٦).

حدود الأخلاق

للأخـلاق حد متى جوازته صارت عدوانًا، ومتى قصرت عنه كان نقصًا ومهانة.

فللغضب حَدٌّ وهو الشجاعة المحمودة والأنفة من الرذائل والنقائص، وهذا كماله. فإذا جاوز حده تعدى صاحبه وجار، وإن نقص عنه جبن ولم يأنف من الرذائل.

وللحرص حد وهو الكفاية في أمور الدنيا وحصول البلاغ منها، فمتى نقص من ذلك كان مهانة وإضاعة، ومتى زاد عليه كان شرها ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه.

وللحسد حد وهو المنافسة في طلب الكمال والأنفة أن يتقدم عليه نظيره، فمتى تعدى ذلك صار بغيًا وظلمًا يتمنى معه زوال النعمة عن المحسود ويحرص على إيذائه، ومتى نقص عن ذلك كان دناءة وضعف همة وصغر نفس. قال النبي ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس**»، فهذا حسد منافسة يطالب الحاسد به نفسه أن يكون مثل المحسود لا حسد مهانة يتمنى به زوال النعمة عن المحسود.

وللشهوة حد وهو راحة القلب والعقل من كد الطاعة واكتساب الفضائل والاستعانة بقضائها على ذلك، فمتى زادت على ذلك صارت نهمة وشبقًا والتحق صاحبها بدرجة الحيوانات، ومتى نقصت عنه ولم يكن فراغًا في طلب الكمال والفضل كانت ضعفًا وعجزًا ومهانة.

وللراحة حد وهو إجمام النفس والقوى المدركة والفعالة للاستعداد للطاعة واكتساب الفضائل وتوفرها على ذلك بحيث لا يضعفها الكد والتعب ويضعف أثرها، فمتى زاد على ذلك صار توانيًا وكسلاً وإضاعة وفات به أكثر مصالح العبد، ومتى نقص عنه صار مضرًّا بالقوى موهنًا لها وربما انقطع به كالمنبت الذي لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى.

والجود له حد بين طرفين، فمتى جاوز حده صار إسرافًا وتبذيرًا، ومتى نقص كان بخلاً وتقتيرًا.

وللشجاعة حد متى جاوزته صار تهورًا، ومتى نقصت عنه صار جبنًا وخورًا، وحدها الإقدام، في مواضع الإقدام والإحجام في مواضع الإحجام، كما قال معاوية لعمر بن العاص ـ رضي الله عنه ـ: أعياني أن أعرف أشجاعًا أنت أم جبانًا تقدم حتى أقول من أشجع الناس، وتجبن حتى أقول من أجبن الناس، فقال:

شجـــــاع إذا أمكنتنـــــي فـــــرصـــــةٌ
فـــإن لـــم تكـــن لـــي فـــرصـــة فجبـــان

والغيرة لها حد إذا جاوزته كانت تهمة وظنًّا سيئًا بالبريء، وإذا قصرت عنه كان تغافلاً ومباديء دياثة.

وللتواضع حد إذا جاوزه كان ذلاً ومهانة، ومن قصر عنه انحرف إلى الكبر والفخر.

وللعز حد إذا جاوزه كان كبرًا وخلقًا مذمومًا، وإن قصر عنه انحرف إلى الذل والمهانة.

خير الأمور الوسط:

وضابط هذا كله العدلُ، وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفي

الإفراط والتفريط، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة، بل لا تقوم مصلحة البدن إلا به. فإنه متى خرج بعض أخلاطه عن العدل وجاوزه أو نقص عنه ذهب من صحته وقوته بحسب ذلك. وكذلك الأفعال الطبيعية كالنوم والسهر والأكل والشرب والجماع والحركة والرياضة والخلوة والمخالطة وغير ذلك، إذا كانت وسطًا بين الطرفين المذمومين كانت عدلاً وإن انحرفت إلى أحدهما كانت نقصًا وأثمرت نقصًا.

فمن أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود، ولاسيما حدود المشروع المأمور والمنهي. فأعلم الناس أعلمهم بتلك الحدود، حتى لا يدخل فيها ما ليس منها، ولا يخرج منها ما هو داخل فيها قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧]، فأعدل الناس من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفة وفعلاً[١].

أخي الحبيب:

أين أنت من قول وهب: المؤمن يخالط ليعلم، ويسكت ليسلم، ويتكلم ليفهم، ويخلو لينعم[٢].

* * *

(١) الفوائد: (١٨٣، ١٨٤).
(٢) السير: (٤/ ٥٥١).

الخاتمة

أخي الحبيب:

وقد عشنا سطورًا مضيئة من حياة السلف ومواقفهم الزكية العطرة.. نختم ذلك كله بحديث الرسول ﷺ فقد روى أبو أمامة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه**».

قاله مرتين أو ثلاثًا، فقال القوم: بلى يا رسول الله. قال: «**أحسنكم خلقًا**».

ومع أن رسول الله ﷺ كان على خلق عظيم كما وصفه الله ـ سبحانه وتعالى ـ في محكم آياته فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] فقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يكثر في دعائه بأن يمنحه الله حسن الخلق، فيقول: «**اللهم إني أسألك الصحة والعفة والأمانة وحسن الخلق والرضا بالقدر**».

وجاء في حديث آخر أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي**».

وسوء الخلق والعياذ بالله يفسد العمل ويدفع الإنسان إلى ارتكاب الإثم والاستمرار في ارتكابه، لأنه ـ كما يقال ـ كلما خرج من ذنب دخل في ذنب آخر بسوء خلقه.

أخي المسلم:

جعلني الله وإياك ممن حسن خلقه، وزكّى نفسه، وجمعنا وإياكم ووالدينا في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

المصادر

١ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.
٢ ـ أدب الدنيا والدين للماوردي، دار الكتب العلمية.
٣ ـ الأدب المفرد للبخاري.
٤ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دارالكتب العلمية.
٥ ـ تاريخ الخلفاء، الحافظ جلال الدين السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة.
٦ ـ تاريخ عمر لابن الجوزي تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.
٧ ـ تذكرة الحفاظ، للذهبي، دار إحياء التراث.
٨ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، للقاضي عياض، مكتبة الحياة.
٩ ـ تنبيه الغافلين، الفقيه نصر السمرقندي، تحقيق عبد العزيز الوكيل دار الشروق، ١٤١٠هـ.
١٠ ـ التواضع والخمول لابن أبي الدنيا تحقيق لطفي الصغير، دار الاعتصام.
١١ ـ جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، ط٥/ ١٤٠٠هـ.
١٢ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.
١٣ ـ الحسن البصري لابن الجوزي.

١٤ ـ ديوان الإمام علي جمعه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ.

١٥ ـ الزهد لابن المبارك.

١٦ ـ الزهد للحسن البصري، تحقيق د/ محمد عبدالرحيم محمد، دار الحديث.

١٧ ـ سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، حسين الأسد، مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.

١٨ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

١٩ ـ شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور للحافظ جلال الدين السيوطي، دارالكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٤هـ.

٢٠ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري، ومحمد رواس، دار المعرفة ١٤٠٥هـ.

٢١ ـ كتاب الصمت وآداب اللسان لابن أبي الدنيا دار الكتاب العربي ١٤١٠هـ.

٢٢ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط٢/ ١٤٠٧هـ.

٢٣ ـ كتاب العزلة للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي، ط١/ ١٣٥٦هـ نشرة عزت العطار.

٢٤ ـ الفوائد لابن القيم الجوزية، دار النفائس.

٢٥ ـ مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا، حققه ونشره جينز أ ـ بلمي، مكتبة ابن تيمية.

٢٦ ـ مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، مكتبة الخاني، ١٣٩٩هـ.
٢٧ ـ منهاج القاصدين، لابن الجوزي.
٢٨ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، دار صادر بيروت ١٣٩٧هـ.

* * *

الأنفاس الأخير

كلمة صادقة

كان الحسن يقول: ابن آدم إنَّك تموت وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك.

ابن آدم: لو أنَّ النَّاس كلُّهم أطاعوا الله وعصيت أنت لم تنفعك طاعتهم، ولو عصوا الله وأطعت أنت لمْ تضرك معصيتهم

ابن آدم: ذنبك ذنبك، فإنما هو لحمك ودمك وإنْ تكن الأخرى فإنما هي نار لا تطفأ وجسمٌ لا يبلى ونفسٌ لا تموت[1].

(١) الحسن البصري: (١٠١).

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

أما بعد:

فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جعل هذه الدنيا دار ممر لا دار مقر وجعل بعدها الحساب والجزاء، ولما كان آخر أنفاسنا من هذه الدنيا هي ساعة الاحتضار وما يلاقيه المحتضر من شدة وكرب فإن الكيس الفطن هو من يرى كيف مر الموقف بغيره، وكيف تغشى أحبته وماذا جرى لهم لكي يستعد ويتجهز ويكون على أهبة لملاقاة الموت.

وقد انتقيت للأخ الحبيب مجموعة من تلك المواقف المختلفة ابتداء بنبي الأمة محمد ﷺ ومرورًا بالصحابة والسلف ليكون على بصيرة فينظر موضع قدمه ونهاية أنفاسه.. وهي صور فيها خوف ووجل ولكنها عبرة لمن اعتبر وإيقاظ لمن غفل. وهذا الكتاب هو الثاني عشر من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟**» أخذت أصله من كتابي «**لحظات ساكنة**» بناء على طلب بعض الإخوة.

أدعو الله ـ عز وجل ـ أنْ يجعل آخر كلامنا من الدنيا لا إله إلا الله وأن يمتعنا على طاعته وأنْ يجعل خير أيامنا أواخرها وخير أعمالنا خواتمها وأنْ يجعل ما يصيبنا في سكرات الموت تكفيرًا لذنوبنا ورفعًا لدرجاتنا.

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

مدخل

أخي الحبيب:

ها أنت تسافر في كل حين.. تبحث عن تجارب الآخرين وتنظر في آثار السابقين.. سافر معنا خمس دقائق أو تزيد لترى موقفًا سيمر عليك بمفردك وستقف معه لوحدك.. شئت أم أبيت.

إنَّه موقف مر به المؤمن والكافر والبر والفاجر.. الذكر والأنثى والصغير والكبير.. بل حتى الأنبياء والرسل مر بهم الموقف المهول واللحظات الحاسمة.

إنَّه موقف قادم إليك، فتعال لترى وتسمع وتعيش لحظات مع من مر بهم الموقف قبلنا.. فخبروه وعرفوه وذاقوا طعمه وشربوا من كأسه.

أمَّا وإنَّك العاقل الفطن تسير في عيون الآخرين لترى تجاربهم وتقلِّب الكتب لترى كيف تاريخ الأمم.. تعال لترى نهاية أيَّامهم وآخر أنفاسهم فلقد قرأت كثيرًا وسمعت كثيرًا.. فتواضع لحروفي وأطلق بصرك لتسير معي في رحلة بين السُّطور..

إنَّها رحلة عبر الزَّمن لمنْ مرَّ بهم الموت وحلَّ ضيفًا عليهم.. إنَّها رحلة العمر.. رحلة بدأت وستنتهي، فانظر بين السُّطور نهايتك واختر لنفسك.

لا يزعجك الخوف فلا فائدة منه لدفع الموت ولا لرده، بل تأمل ساعات النهاية لهؤلاء واحسب نفسك منهم فلكل حي نهاية.. وربما يكون لك في ذلك عبرة. فأنت من الأموات غدًا.. ومن أصحاب القبور.

سآخذ بيدك وتأخذ بيدي في رحلة نوآنس بعضنا وتلتقي فيها قلوبنا.. فنحن رفقاء طريق..

سنسير مع الأنبياء والصالحين ونرى حالهم وما نزل بهم من الكرب وشدة الموت.

فإن لخروج الروح آلام وشدائد.. فهي تنزع من الجسد وتجذب معها العروق والأعصاب، ألم تر أن الميت ينقطع صوته وصياحه من شدة الألم!!

إنَّه مشهد مؤثر وموقف لن يتكرر..

إنَّه مشهد الموت ولحظات الاحتضار.. عندما تبلغ الروح الحلقوم وترتفع من كل مفصل ويتحشرج الصدر وتذرف العينان.

عندها يتيقين ويتأكد الفراق.. ويأتي هذا التأكيد بطوي القدمين ورفعهما من الدنيا وكأنك تودع حياة الجري والسعي في هذه الأرض إلى دار الجزاء والحساب.. قال ـ تعالى ـ في أحسن وصف لهذا المشهد: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩﴾ [القيامة: ٢٩].

عندها تبدأ مسيرة الآخرة.. ورحلة الجزاء والحساب: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝٣٠﴾ [القيامة: ٣٠].

حال من يرى ظلالاً من الحزن وساعاتٍ من الندم وتفكر في المآل والمصير.

فالموت حقيقة قاسية رهيبة، تواجه كل حي، فلا يملك لها ردًا، ولا يستطيع لها أحدٌ ممن حوله دفعًا، وهي تتكرر في كل لحظةٍ وتتعاقب على مر الأزمنة، يواجهها الجميع صغارًا وكبارًا، أغنياءً وفقراء، أقوياء وضعفاء، ومرضى وأصحاء، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٨﴾ [الجمعة: ٨].

نهاية الحياة واحدة فالجميع يموت ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾

[آل عمران: ١٨٥] إلا أن المصير بعد ذلك مختلف ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: ٧].

والله ـ عزَّ وجلَّ ـ خلق الموت والحياة لشأن عظيم وأمر جسيم، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ٢].

وقد وصف ـ سبحانه وتعالى ـ شدة الموت في أربع آيات:

الأولى: قول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ١٩].

الثانية: قول الحق سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ٩٣].

الثالثة: قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣﴾ [الواقعة: ٨٣].

الرابعة: قوله ـ تعالى ـ: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦﴾ [القيامة: ٢٦].

وقال ـ تعالى ـ يصف مشهد الموت بتفصيل عجيب وتصوير متتابع لهذا الحدث العظيم: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ [القيامة: ٦٢ ـ ٣٠].

وقال ـ تعالى ـ في أصدق وصف وأحسن تعبير: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ۝٢٠﴾ [ق: ١٩، ٢٠].

وما أدراك ـ يا أخي ـ ما هذا المجيء لسكرات الموت؟ مجيءٌ لا مناص عنه ولا مهرب، لا تجدي معه حيلةٌ ولا تنفع معه وسيلة، إنَّه بداية نهايتك من هذه الدنيا وانقطاعك عنها، والإقبال على الآخرة ودخول معبرها، وترك ما وراءك من الأموال والقصور، والأهل والدور.

إنها ـ والله ـ ساعة مهولة ذات كربٍ شديدٍ وما بعدها إلا وعدٌ أو

وعيد، لو تفكرت في حلولها وأنت في نعيم وهناء لتكدرت حياتك ولهانت الدنيا عندك، وصغر عظيمها في عينيك، ولتبدل فرحك حزنًا وسعادتك كدرًا.. كيف لا، وأنت تفارق المال والولد، والأحباب والأصحاب إلى دار الجزاء والحساب، أهوالٌ تهون عندها أهوال.. حتَّى تنتهي في رحلة طويلة شاقة إلى أحد الفريقين: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: ٧].

قال الحكيم بن نوح لبعض إخوانه: اتكأ **مالك بن دينار** ليلة من أول الليل إلى آخره لم يسجد فيها ولم يركع فيها، ونحن معه في البحر، فلمَّا أصبحنا قلت له: يا مالك، لقد طالت ليلتك لا مصليًا ولا داعيًا، قال: فبكى، ثم قال: لو يعلم الخلائق ماذا يستقبلون غدًا ما لذوا بعيش أبدًا، إني ـ والله ـ لما رأيتُ الليل وهوله وشدة سواده، ذكرت به الموقف وشدة الأمر هنالك، وكل امريء يومئذٍ تهمُّه نفسه، لا يغني والد عن ولد ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئًا، ثم شهق شهقة فلم يزل يضطرب ما شاء الله، ثم هدأ، فحمل عليَّ أصحابنا في المركب، وقالوا: أنت تعلم أنه لا يحمل الذكر فلم تهيجه؟ قال: فكنت بعد ذلك لا أكاد أذكر له شيئًا[1].

إنَّه التذكر الدائم والوجل المستمر من ساعة الاحتضار وما بعدها والاستعداد لها بالعمل الصالح والتوبة النَّصوح.. إنَّه استعداد الأخيار ومبادرة الصَّالحين.

ونحن في هذا الزمن نضيع أعمارنا وننفق أوقاتنا فيما لا طائل من

---

(١) حلية الأولياء: (١/١٨).

ورائه.. ولا فائدة من بعده بل إننا فرحون مستبشرون بذلك.. أرأيت كيف يضيع يومك وتنفق عمرك؟!

أما **الحسن** فحين مر برجلٍ يضحك، سأله: يا ابن أخي.. هل جزت الصراط؟ فقال الرجل: لا، قال: فهل علمت إلى الجنة تصير أم إلى النار؟ فقال: لا، قال: ففيم الضحك؟! عافاك الله والأمر هول، فما رُؤي الرجل ضاحكًا حتى مات[١].

أخي الحبيب:

أي سفر أطول من هذا السفر؟ وأي زاد تحتاج؟ إنه ـ أيها الحبيب ـ زاد الآخرة: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقر: ١٩٧].

أما الموت الذي لم نذقه فلا نعرفُ ألمه وشدته إلا حين يقع.. فكل منَّا سيمر بتلك اللَّحظات العصيبة والدَّقائق الرَّهيبة.. الأنفاس مشدودة والعين حائرة كسيرة.. إنَّها لحظة الاحتضار.

وحين تفتح عينك وملك الموت واقف على رأسك.. تُفكر في ماذا تلك اللحظات؟!

ونحن لم نذق الموت بَعُد.. ألمه وغُصَصه وكُربه.. ما هي؟ لحظاتٌ لنرى حال من سبقنا إلى ذلك فهذا **عمرو بن العاص** ـ رضي الله عنه ـ لما احتضر سأله ابنه عن صفة الموت فقال: والله لكأن جنبي في تخت ولكأني أتنفس من سم إبرة، وكأن غصن شوك يجر به قدمي إلى هامتي[٢].

وسأل **عمر** ـ رضي الله عنه ـ كعبًا، فقال: أخبرني عن الموت؟

---

(١) الحسن البصري ص (٦٩).

(٢) جامع العلوم ص (٤٤٩).

قال: يا أمير المؤمنين، هو مثل شجرة كثيرة الشوك في جوف ابن آدم، فليس منه عرق ولا مفصل، وهو كرجل شديد الذراعين فهو يعالجها ينتزعها، فبكى عمر.

هذا هو الموت وهذه شدته.. سيكون تفكيرك في تلك اللحظات منحصرًا في أي الأبواب ستدخل، وفي أي الدارين تسكن؟

أخي الحبيب:

إن الموت هو الخطبُ الأفظع، والأمر الأشنع، والكأس التي طعمها أكره وأبشع، وإنه الحادث الأهدم للذَّات، والأقطع للراحات، والأجلب للكريهات، فإن أمرًا يُقطِّعُ أوصالك، ويُفرِّق أعضاءك، ويهدم أركانك، لهو الأمر العظيم والخطب الجسيم، وإن يومه لهو اليوم العظيم.

أيها الحبيب:

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كربٌ ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها، لكان جديرًا بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقًا بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده[1].

كيف ونحن نعلم أن وراء الموت القبر وظلمته والصراط ودقته والحساب وشدته أهوالٌ وأهوال.. إنها رحلة ستنتهي بالجميع إلى محط الرحال هناك حيث النهاية جنةٌ أو نار.

قال **وهب بن منبه**: كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض، فدعا بثياب ليلبسها، فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد

---

(١) الإحياء: (٤/ ٤٩٠).

مرات، وكذلك طلب دابة فأُتي بها فلم تعجبه، حتى أُتي بدواب فركب أحسنها، فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة فجلاه كبرًا، ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبرًا، فجاءه رجل رث الهيئة فسلم، فلم يرد عليه السلام، فأخذ لجام دابته، فقال: أرسل اللجام فقد تعاطيت أمرًا عظيمًا. قال: إن لي إليك حاجة، قال: اصبر حتى أنزل، قال: لا، الآن. فقهره على لجام دابته فقال: اذكرها، قال: هو سر، فأدنى له رأسه فسارَّه وقال: أنا ملك الموت، فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال: دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم، قال: لا، والله لا ترى أهلك وثقلك أبدًا، فقبض روحه فخر كأنه خشبة.

ثم مضى فلقي عبدًا مؤمنًا في تلك الحال، فسلم عليه، فرد عليه السلام فقال: إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك، فقال: هات، فسارَّه وقال: أنا ملك الموت، فقال: أهلاً وسهلاً بمن طالت غيبته عليَّ فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إليَّ أن ألقاه منك، فقال ملك الموت: اقضِ حاجتك التي خرجت لها، فقال: ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله ـ تعالى ـ، قال: فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك؟ فقال: تقدر على ذلك؟ قال: نعم إني أمرت بذلك، قال: فدعني حتى أتوضأ وأصلي ثم اقبض روحي وأنا ساجد، فقبض روحه وهو ساجد[1].

أما ـ والله ـ سيأتيك يوم مثل يومي.. وسيمر عليك ما مر بي.. ألا فاعتبر.

قال **أنس بن مالك**: ألا أحدثكم بيومين وليلتين لم تسمع الخلائق

---

(١) الإحياء: (٤/٤٩٦).

بمثلهن: أول يوم يجيئك البشير من الله ـ تعالى ـ إما برضاه، وإما بسخطه، ويوم تُعرض فيه على ربك آخذًا كتابك. إما بيمينك وإما بشمالك. وليلة تستأنف فيها المبيت في القبور ولم تبت فيها قط، وليلة تمخض صبيحتها يوم القيامة[١].

روي أن ملك الموت دخل على داود ـ عليه السلام ـ فقال: من أنت؟ فقال: من لا يهاب الملوك، ولا تمنع منه القصور، ولا يقبل الرُّشا. قال: فإذًا أنت ملك الموت، قال: نعم، قال: أتيتني ولم استعد بعد!؟ قال: يا داود أين فلان قريبك؟ أين فلان جارك؟ قال: مات. قال: أما كان لك في هؤلاء عبرة لتسعد[٢].

أخي الحبيب:

أيام عمرك أيام قلائل، ولحظات محسوبة، وأنفاس معدودة، لو أردت زيادة في عمرك ولو للحظات ـ مقابل أموال الدنيا أجمع ـ لما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فكيف بك الآن تضيعها في غير طاعة الله.. تنفق الساعات الطوال في لهو ولعب وهي لحظات عمرك الغالية وساعات حياتك الثمينة.. وقد ذكر ذلك **أبو حازم** فقال: إن بضاعة الآخرة كاسدة، يوشك أن تنفق فلا يوصل منها إلى قليل ولا كثير، ومتى حيل بين الإنسان والعمل لم يبق له إلا الحسرة والأسف عليه، ويتمنى الرجوع إلى حالٍ يتمكن فيها من العمل فلا تنفعه الأمنية[٣].

ولنسير لحظات لنرى بعضًا من حالات الاحتضار ونزلات الموت التي

---

(١) التذكرة: (٩٨).
(٢) التذكرة: (٤٨).
(٣) جامع العلوم: (٤٦٨).

هي إلينا قادمة عاجلاً أو آجلاً. هذه حال رسول الله ﷺ خير الأنبياء والمرسلين وأكرم الخلق على الله أجمعين عندما أصابته سكرات الموت وشدتها.

فقد قال ﷺ: وهو يدخل يديه في ركوة ماء ويمسح بها وجهه الشريف: «**لا إله إلا الله، إن للموت سكرات**» [رواه البخاري].

ولما رأت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذي يتغشاه قالت: واكرب أباه، فقال لها: «**ليس على أبيك كرب بعد اليوم**» [رواه البخاري].

هذه حال سيد الخلق وحال من تفطَّرت قدماه وغفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخَّر.

أما حال **الصديق أبي بكر** ـ رضي الله عنه ـ وهو المبشر بالجنة لما احتضر ـ رضي الله عنه ـ تمثلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ بهذا البيت:

أعاذل ما يغني الحذار عن الفتى
إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

فقال **أبو بكر** ـ رضي الله عنه ـ: ليس كذلك يا بنية ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: ١٩].

ثم قال: انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما ثم كفنوني فيهما فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت[1].

وهذا **فاروق الأمة** وثاني الخلفاء الراشدين والمبشر بالجنة.. هذه حاله وهذا خوفه من الله ـ عز وجل ـ فقد قال **عبد الله بن الزبير**: ما أصابنا حزنٌ منذ اجتمع عقلي مثل حزن أصابنا على عمر بن الخطاب ـ رضي الله

---

(١) الزهد: (١٦٣).

عنه ـ ليلة طُعن، قال: صلى بنا الظهر والعصر والمغرب والعشاء، أسر الناس وأحسنهم حالاً. فلمَّا كانت صلاة الفجر صلى بنا رجل أنكرنا تكبيره، فإذا هو عبدالرحمن بن عوف، فلمَّا انصرفنا قيل: طُعن أمير المؤمنين. قال: فانصرف الناس وهو في دمه لم يُصل الفجر بعد، فقيل: يا أمير المؤمنين الصلاة، الصلاة. قال: ها الله ذا لاحظ لامريء في الإسلام ضيع الصلاة، قال: ثم وثب ليقوم فانبعث جرحه دمًا، قال: يا أيها الناس أكان هذا على ملأ منكم؟ فقال له علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: لا والله، لا ندري من الطاعن من خلق الله؟. أنفسنا تفدي نفسك، ودماؤنا تفدي دمك، فالتفت إلى عبدالله بن عباس فقال: أخرج، فسل الناس ما بالهم وأصدقني الحديث.

فخرج ثمَّ جاء، فقال: يا أمير المؤمنين أبشر بالجنَّة، لا والله ما رأيت عينًا تطرف من خلق من ذكر أو أنثى.. إلا باكية عليك، يفدونك بالآباء والأمهات، طعنك عبد المغيرة بن شعبة، وطعن معك اثني عشر رجلاً فهم في دمائهم حتَّى يقضي الله فيهم ما هو قاضٍ، تَهْنَك يا أمير المؤمنين الجنَّة.. قال: غُر بهذا غيري يا ابن عباس، فقال ابن عباس: ولِمَ لا أقول لك يا أمير المؤمنين؟ فوالله إن كان إسلامك لعزًا، وإن كانت هجرتك لفتحًا، وإن كانت ولايتك لعدلاً، لقد قُتلتَ مظلومًا، ثمَّ التفت إلى ابن عباس فقال: تشهد بذلك عند الله يوم القيامة؟ فكأنَّه تلكأ. قال: فقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وكان بجانبه: نعم يا أمير المؤمنين نشهد لك عند الله يوم القيامة، قال: ثمَّ التفت إلى ابنه عبد الله بن عمر فقال: ضع خدي إلى الأرض يا بني، قال: فلم أبح (أعبأ) بها وظننت أن ذلك اختلاس من عقله. فقالها مرة أخرى: ضع خدي إلى الأرض يا بني، فلمَّا أفعل، ثمَّ

قال لي المرة الثالثة: ضع خدي إلى الأرض لا أم لك، فعرفت أنَّه مجتمع العقل، ولم يمنعه أن يضعه إلا ما به من الغلبة، قال: فوضعت خدَّه إلى الأرض حتَّى نظرت إلى أطراف شعر لحيته خارجة من بين أضغاث التُّراب، قال: وبكى حتَّى نظرت إلى الطِّين قد لصق بعينيه، قال: وأصغيت بأذنين لأسمع ما يقول، قال: فسمعته وهو يقول: يا ويل عمر وويل أمه إن لم يتجاوز الله عنه[1].

فلـــو كـــان هـــول المـــوت لا شـــيء
لهـــان علينـــا الأمـــر واحتُقِـــر الأمـــرُ
ولكنَّـــه حشـــرٌ، ونشـــرٌ، وجنَّـــة
ونـــارٌ ومـــا قـــد يستطيـــل بـــه الخبـــرُ

ولمَّا احتضر **عثمان بن عفَّان** ـ رضي الله عنه ـ جعل يقول ودمه يسيل: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، اللهم إني أستعين بك على أموري، وأسألك الصبر على بلائي.

هؤلاء أصابتهم شدة الموت وسكراته وهم الصحابة الأجلاء والرفقاء الأخلاء.. خلفاء الأمة الراشدون والمبشرون بالجنة.. فما بالك بحالنا وكيف إذا نزل بساحتنا؟! فالله المستعان.

أما **معاوية بن أبي سفيان** ـ رضي الله عنه ـ عندما حضرته الوفاة، قال: أقعدوني. فأقعد، فجعل يُسبح الله ـ تعالى ـ ويذكره، ثم بكى. وقال: تَذْكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط، ألا كان هذا وغض الشباب نضر ريان، وبكى حتى علا بكاؤه، وقال: يا رب ارحم الشيخ العاصي ذا

---

(١) تاريخ عمر ص (٢٤٥).

القلب القاسي، اللهم أقل العثرة، واغفر الزل، وجد بحلمك على من لا يرجو غيرك ولا يثق بأحدٍ سواك[١].

وبكى **أبو هريرة** في مرضه فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أمَّا إنِّي لا أبكي على دنياكم هذه، ولكنِّي أبكي على بعد سفري وقلَّة زادي، وأنِّي أصبحت في صعود مُهبطٌ على جنة ونار، ولا أدري أيَّهما يؤخذ بي[٢].

وقالت **فاطمة بنت عبد الملك بن مران**امرأة عمر بن عبدالعزيز: كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول: اللهم أخفِ عليهم موتي ولو ساعة من نهار، فلمَّا كان اليوم الذي قبض فيه، خرجت من عنده فجلست في بيت آخر بيني وبينه باب وهو في قبة له فسمعته يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

ثم هدأ فجعلت لا أسمع حركة ولا كلامًا، فقلت لوصيف له: انظر أنائمٌ هو؟ فلما دخل صاح، فوثبت فإذا هو ميت[٣].

الله أكبر ما أسرع قدوم تلك اللحظات إلينا: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] نعم أينما اتجهنا ومهما اختفينا فإنه ملاقينا يومًا ما. ولو قيل: إنه سيقدم علينا بعد مئات السنين لأهمنا نقص اليوم والليلة لأن ذلك يقربنا إليه ويدنينا منه وكيف وأعمارنا دون المائة وتقارب الستين.. بل وربما نؤخذ ونحن في زهرة الشباب أو دون ذلك.

---

(١) الثبات عند الممات: (٨٩).
(٢) العاقبة: (١٣٥).
(٣) حلية الأولياء: (١/ ٢٨٣).

ولكن أين الاستعداد للرحيل.. والاستعداد لملاقاته ثم والله ما بعده من السُّؤال في تلك الحفرة الضيقة ثم الفزعات والأهوال يوم القيامة.. ثمَّ المنصرف إلى أحد الدارين.

أخي المسلم:

قال **صفوان بن سليم**: في الموت راحة للمؤمن من شدائد الدنيا وإن كان ذا غُصص وكُرب، ثمَّ ذرفت عيناه[١].

وعند ذكر ما بعد الموت يهون الموت وشدَّته وألمه وغصصه وسكراته خاصَّة إذا كان الخوف من فتنة الدين كما قال **سفيان الثوري**: ما من موطن من المواطن أشد عليَّ من سكرة الموت أخاف أن يشدد علي، فأسأل التخفيف فلا أجاب فأفتن[٢].

وقد بكى ليلة إلى الصَّباح، فلمَّا أصبح قيل له: أكلُّ هذا خوفًا من الذنوب؟ فأخذ تبنة من الأرض وقال: الذُّنوب أهون من هذه، وإنَّما أبكي خوفًا من سوء الخاتمة.

وهذا من أعظم الفقه أنْ يخاف الرجَّل أن تخدعه ذنوبه عند الموت فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء أنَّه لمَّا احتضر جعل يُغمى عليه ثمَّ يفيق ويقرأ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

---

(١) السير: (٥/٣٦٦).

(٢) صفة الصفوة: (٣/١٤٨).

فمن أجل هذا خاف السَّلف من الذُّنوب أن تكون حجابًا بينهم وبين الخاتمة الحسنى.

قال: واعلم أنَّ سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله تعالى ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه.. ما سُمع بهذا ولا عُلم به ولله الحمد، إنَّما تكون لمن له فسادٌ في العقيدة أو إصرار على الكبيرة، وإقدام على العظائم، فربَّما غلب ذلك عليه حتَّى نزل به الموت قبل التَّوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطَّوية، ويصطدم قبل الإنابة، فيظفر به الشَّيطان عند تلك الصَّدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة ـ والعياذ بالله ـ[1].

لما نزل الموت بسليمان التيمي قيل له: أبشر فقد كنت مجتهدًا في طاعة الله ـ تعالى ـ، فقال: لا تقولوا هكذا فإني لا أدري ما يبدو لي من الله ـ عز وجل ـ فإنه يقول ـ سبحانه ـ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: ٤٧].

قال بعضهم: عملوا أعمالاً كانوا يظنُّون أنَّها حسنات فوجدوها سيِّئات.

وقالت أم الدَّرداء: كان أبو الدَّرداء إذا مات الرَّجل على الحال الصَّالحة قال: هنيئًا لك، يا ليتني كنت مكانك، فقالتْ أمُّ الدَّرداء له في ذلك فقال: هل تعلمين يا حمقاء أنَّ الرَّجل يصبح مؤمنًا ويمسي منافقًا، يُسلبُ إيمانه وهو لا يشعر، فأنا لهذا الميت أغبط منِّي لهذا بالبقاء في الصَّلاة والصِّيام[2].

---

(١) الجواب الكافي ص (٢٤٥).

(٢) شرح الصدور ص (١١).

أخي المسلم:

اسأل الله الثَّبات على هذا الدين فكل حين نسمع أخبار من ترك طريق الهداية وزلَّت به قدمه في طريق الغواية.. أخبار تقشعرُّ لها الأبدان وتذهل لها العقول فإنَّها أشدُّ فتنة وأكبر مصيبة أن يتحوَّل الإنسان من حال الصَّلاح إلى حال أخرى ـ عصمنا الله من ذلك وأحيانا مسلمين وأماتنا مسلمين ـ.

لما حضرت **ابن المنكدر** الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: والله ما أبكي لذنب أعلم أني أتيته، ولكن أخاف أني أتيت شيئًا حسبته هينًا وهو عند الله عظيم[1].

ووالله إن في ذلك لعبرة، فنحن نودع الآباء والأبناء ونرى كيف يوسدون الثرى وينثر عليهم التراب وتغلق عليهم تلك الحفر الضيقة في قبور صغيرة موحشة، ولكننا لا نتفكر فيما نحن عليه مقبلون، ولممر نحن له عابرون.. ولطريقٍ عليه سائرون.

بكى **الحسن البصري** عند موته وقال: نُفيسة ضعيفة، وأمر مهولٌ عظيم وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولو تفكرت ـ **يا أخي الحبيب** ـ الآن في أن الموت ببابك وملك الموت يطلب جنابك، لعلمت هول المطلع، ووالله لفزعت وذُهلت، هذا وأنت بحال الدنيا، فكيف والأمر جد، ومن الموت لابد.. نزل بساحة من سبقنا وله منزل بساحتنا حتى نقدم على الله ـ عز وجل ـ.. وما ظنك بهذا القدوم.. وكيف تجهزت له؟! إنه قدوم على الله بعد مسير في هذه

---

(١) الثبات عند الممات: (٩٤).

الدنيا وضرب في أطرافها وحساب لأزمانها وأوقاتها وذنوبها وحسناتها. . إنه حساب لا يدع مثقال ذرة إلا أحصاها ولا أقل من ذلك ولا أكثر إلا في كتاب.

سئل **أبو حازم**: كيف القدوم على الله؟ قال: أما المطيع فكقدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه، وأما العاصي فكقدوم الآبق على سيده الغضبان.

أخي الحبيب:

عـــش مـــا بـــدالـــك ســـالمًـــا
فـــي ظـــل شـــاهقـــة القصـــور
يُسعـــى عليـــك بمـــا اشتهـ
يـــت لـــدى الـــرواح وفـــي البكـــور
فـــإذا النُّفـــوس تقعقعـــت
فـــي ضيـــق حشـــرجـــة الصـــدور
فهنـــاك تعلـــم مـــوقنًـــا
مـــا كنـــت إلا فـــي غـــرور

أخي الحبيب:

حريٌّ بنا أنْ نعي قول العلاء بن زياد الغدوي: ليُنزِلَ أحدكم نفسه أنَّه قد حضره الموت فاستقال ربَّه ـ تعالى ـ نفسه فأقاله، فليقل بطاعة[1].

فأقل ـ **أيُّها الحبيب** ـ نفسك من اليوم، وكنْ منْ بقيَّة القوم الذين استعدوا وللآخرة جدُّوا.

---

(١) حلية الأولياء: (٢/ ٢٤٤).

وحالنا ـ الآن ـ قريبة من رجل قيل له وهو يجود بنفسه: ما حالك؟ فقال: وما حال من يريد سفرًا بعيدًا فلا زاد، ويدخل قبرًا موحشًا بلا مؤنس، وينطلق إلى ملكٍ عدلٍ بلا حُجَّة[١].

وقال بعضهم: دخلنا على **عطاء السُّلمي** نعوده في مرضه الذي مات فيه، فقلنا له: كيف ترى حالك؟ فقال: الموت في عنقي، والقبر بين يديَّ، والقيامة موقفي، وجسر جهنَّم طريقي.. ولا أدري مايفعل بي.

ثمَّ بكى بكاءً شديدًا.. حتَّى غشي عليه، فلمَّا أفاق، قال: اللَّهمَّ ارحمني وارحم وحشتي في القبر ومصرعي عند الموت، وارحم مقامي بين يديك يا أرحم الراحمين.

ويا أخي:

اعلم أنَّ الموت قادم وخطره عظيم، وغفل عنه النَّاس لقلَّة حديثهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلبٍ فارغٍ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا، فلا ينجع ذكر الموت قلبه.

فالطَّريق فيه أنْ يفرغ العبد قلبه عن كلِّ شيءٍ إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أنْ يسافر إلى مفازة خطرة أو يركب البحر فإنَّه لا يتفكَّر إلا فيه[٢].

وإلا لأصابه ما أصاب الحسن حين دخل على مريض يعوده فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كربه وشدَّة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللَّون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: الطَّعام يرحمك الله، فقال: يا

---

(١) الإحياء: (٢/ ٢٥١).

(٢) الإحياء: (٤/ ٤٧٩).

أهلاه عليكم بطعامكم وشرابكم، فوالله لقد رأيت مصرعًا لا أزال أعمل له حتَّى ألقاه[١].

وأهل الإيمان استعدُّوا بالعمل الصَّالح وبرجاء رحمة الله.. هاهم يطوون أكفانهم ويجهزون أنفسهم ويستعُّدون للرَّحيل.

قالت **زينب بنت جحش** حين حضرتها الوفاة: إنِّي قد أعددت كفني، فإن بعث لي عمر بكفن، فتصدَّقوا بأحدهما، وإن استطعتم إذ أدليتموني أن تتصدَّقوا بحقوقي فافعلوا..

أمَّا **عبدالله بن عبد العزيز العمري** فقد قال عند موته: بنعمة ربي أُحدِّث.. إنِّي لم أصبح أملك إلا سبعة دراهم من لحاء شجرة مثلثها بيدي، وبنعمة ربي أحِّدث.. لو أنَّ الدُّنيا أصبحت تحت قدمي لا يمنعني من أخذها إلا أن أزيل قدمي عنها ما أزلتها[٢].

وقال **المغيرة بن حبيب**: دخلنا على مالك بن دينار في مرضه الذي مات فيه وهو يكيد بنفسه، فرفع رأسه إلى السَّماء، ثمَّ قال: اللَّهمَّ إنَّك تعلم أنِّي لم أكن أحبُّ البقاء في الدُّنيا لفرج ولا لبطن[٣].

رحم الله الجميع.. بيننا وبينهم البون الشَّاسع، فحبُّ الدُّنيا عندهم رغبة في العبادة والطَّاعة.. أمَّا الحال اليوم فلماذا حُبُّ البقاء!!

سؤال لا يحتاج إلى جواب، فالحال يُغني والواقع يشهد بأنَّ الدُّنيا ثارت ثائرتها وأجلبت بخيلها ورجلها.. فطار غبار الكثير يلهث خلفها

---

(١) التذكرة: (١٤).
(٢) الثبات عند الممات: (١٥٣).
(٣) حلية الأولياء: (٣/ ٣٦١).

ويجري في إثرها.. فأناخ ركابه ببابها وكأنَّه مخلد فيها.. فالله المستعان.

قيل: إن **محمَّد بن المنكدر** بكى بكاءً شديدًا عند موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فرفع طرفه إلى السَّماء وقال: اللَّهمَّ إنَّك أمرتني ونهيتني فعصيت، فإن غفرت فقد مننت، وإن عاقبت فما ظلمت[١].

وعندما سُئل **سعيد بن السَّائب**: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أنتظر الموت على غير عدة[٢].

ولذلك يجب على كل من لا يدري متى يبغته الموت أن يكون مستعدًا، ولا يغتر بالشَّباب والصِّحة.. فإن أقلَّ من يموت الأشياخ.. وأكثر من يموت الشُّبان، ولهذا يندر من يكبر..

ولكن من يدري متى يبغته الموت وتنشب المنيَّة أظفارها في عمره؟ فإذا بها تسكت أنفاسه وتقطع أوصاله.. وتنقله في لحظات من دار الدُّنيا إلى دار الآخرة فسبحان من ملك فأمر وحكم فعدل وتجاوز فغفر.

عن عمران الخيَّاط قال: دخلنا على **إبراهيم النَّخعي** نعوده، وهو يبكي، فقلنا له، ما يبكيك أبا عمران؟ قال: أنتظر ملك الموت لا أدري يبشِّرني بالجنَّة أم بالنَّار[٣].

وصدق فما بعد هذه الدُّنيا إلا جنَّةٌ ونار.. ولكن هل نظرنا أين نحن ذاهبون ولأيِّ طريقٍ نحن سالكون، اجتمع علينا طول تسويف وغفلة

---

(١) الزهر الفائح ص (٩١).
(٢) صفة الصفوة: (٢/ ٢٨٣).
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٨٩).

وأمل ورقدة.. فاللَّهمَّ أيقظ قلوبنا من سباتها وأغثها بالإيمان وحسن الاعتبار.

أخي الحبيب. تأهب:

إن للمـــــوت سكـــــرة فـــــارتقبهـــــا
لا يـــــداويـــــك إذا أتتـــــك طبيـــــبُ

أعاننا الله على لقائه وجعلنا ممن استعد للموت وكربه وغصصه وجعلنا مثل سلفنا الصالح، فقد كان الجنيد يقرأ القرآن وهو في سياق الموت ويصلي، فختم، فقيل له: في مثل هذه الحال يا أبا علي؟ فقال: ومن أحق منِّي بذلك، وها هو ذا تطوي صحيفة عملي ثم كبَّر.. ومات[1].

وقال محمد بن واسع وهو في الموت.. يا إخوتاه تدرون أين يذهب بي؟ والله الذي لا إله إلا هو إلى النَّار، أو يعفو عني[2].

أخي:

كـــــأن أهلـــــك قـــــد دعـــــوك فلـــــم
تسمـــــع وأنـــــت مُحشـــــرج الصـــــدر
وكـــــأنَّهـــــم قـــــد قلَّبـــــوك علـــــى
ظهـــــر الســـــريـــــر وأنـــــت لا تـــــدري
وكـــــأنهـــــم قـــــد زودوك بمـــــا
يتـــــزود الهلكـــــى مـــــن العِطـــــر

---

(١) العاقبة: (١٣٣).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٢٧١).

أخي الحبيب:

يا ليت شعري كيف أنت إذا
غُسِّلت بالكافور والسدر
أوليت شعري كيف أنت على
نبش الضريح وظُلمة القبر

لما نزل الموت بأحدهم، وكان صاحب طاعة وعبادة شق عليه وساءه ذلك، فقيل له: أتحب الحياة يا فلان؟ فقال: يا قوم القدوم على الله شديد.

الله أكبر إذا قدمنا على أهل الدنيا حسبنا ألف حساب وقدمنا وأخرنا وأصلحنا وأبدلنا.. هذا وهم بشرٌ مثلنا فكيف القدوم على رب الأرباب ونحن في حال من الزلل والخطأ.. والمعصية والذنب لا يعلمها إلا الله.

أرأيت ـ أخي الحبيب ـ كيف نستعد لامتحان الدنيا ونبذل الغالي والرخيص ونعطل مصالح كثيرة ولا نبالي بسؤال الآخرة.. وهو ـ والله ـ عنوان الفوز أو الخسارة.

قيل لأبي مسعود الأنصاري: ماذا قال حذيفة بن اليمان عند موته؟ قال: لما كان عند السحر، قال: أعوذ بالله من صباح إلى النَّار.. ثلاثًا.. ثمَّ قال: اشتروا لي ثوبين أبيضين، فإنَّهما لن يتركا عليَّ إلا قليلاً حتَّى أبدِّل بهما خيرًا منهما أو أُسلبهما سلبًا قبيحًا[1].

أخي الحبيب:

هذه نداءات قلبية صادقة من أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ وهو يحتضر

---

(١) السير: (٢/٢٦٨).

فقد جعل يقول: ألا رجل يعمل لمثل مصرعي هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل ساعتي هذه؟ ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا؟ وبكى، فقالت له امرأته: تبكي وقد صاحبت رسول الله ﷺ؟ فقال: ما لي لا أبكي ولا أدري علام أُهجم من ذنوبي.

أين الاستجابة لهذه النداءات المخلصة التي تهز أعماق المسلم وتذكره بتلك اللحظات القادمة إليه؟ إنها لحظات طوتها الغفلة وألقى عليها التسويف رداءه، فطال الأمل وقصر العمل وبَعُدَ فجر التوبة.

قال **أبو سليمان الداراني**: قلت لأم هارون العابدة: أتحبين أن تموتي؟ قالت: لا، قلت: ولِمَ؟ قالت: والله لو عصيت مخلوقًا لكرهت لقاءه.. فكيف بالخالق ـ جلَّ جلاله ـ[1].

والناس في هذه الدنيا على ضربين مختلفين كما ذكر ذلك **شميط بن عجلان** بقوله: الناس رجلان، فمتزود من الدنيا ومتنعم فيها، فانظر أي الرجلين أنت؟ إني أراك تحب طول البقاء في الدنيا فلأي شيء تحبه؟ أن تطيع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وتحسن عبادته وتتقرب إليه بأعمال صالحة فطوبى لك، أم لتأكل وتشرب وتلهو، وتلعب وتجمع الدنيا وتثمرها، وتنعم زوجتك وولدك؟ فلبئس ما أردت له البقاء.

ونحن ـ يا أخي ـ كما قال بعض الزهاد: لنا من كل ميت عظة بحاله وعبرة بمآله[2].

كان **حميد الطويل** قائمًا يصلي فمات، فذكروه لابن عون وجعلوا

---

(١) العاقبة: (٣٠).
(٢) العاقبة: (٤٣).

يذكرون من فضله، فقال: احتاج حميد إلى ما قدم[١].

وقال أبو السور حسان بن حريث وقرأ هذه الآية: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣] قال: هما نشرتان، وطية، أما ما حييت يا ابن آدم فصحيفتك منشورة فأمل فيها ما شئت، فإذا متَّ طويتْ، ثم إذا بعثت نشرت: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾[٢] [الإسراء: ١٤].

فصحيفة الحي كتابٌ يُدون فيه حتى إذا انتهى عمره طويت تلك الصحائف للحساب. فصحفنا الآن منشورة ولكن ماذا يدون فيها؟ أهي أعمال صالحة وعبادة مقبولة أم غير ذلك.. ولو حمل أحدنا ورقة وقلمًا لمدة ساعة وسجل فيها أفعاله وأقواله ثم أعاد قراءتها بعد تلك الساعة لعلم حاله ورأى صحيفته وهو حي!!

وربما تدارك زلله ورجع عن غيه وأحسن العمل وجدد التوبة.

عن حميد قال: بينما الحسن في المسجد تنفس تنفسًا شديدًا، ثمَّ بكى حتَّى أرعدت منكباه، ثمَّ قال: لو أنَّ بالقلوب حياة، لو أن بالقلوب صلاحًا لأبكتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة، إن ليلة تمخض عن صبيحة يوم القيامة ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر من عورة بادية، ولا عين باكية من يوم القيامة[٣].

ولمَّا حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه: اجعل رأسي على التراب. فبكى نصر، فقال: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هنا تموت فقيرًا غريبًا، فقال: اسكت فإني سألت الله أن

---

(١) تذكرة الحفاظ: (١/ ١٥٢).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٢٣٠).
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٢٤٣).

يحييني حياة السعداء ويميتني ميتة الفقراء، ثمَّ قال: لقني الشهادة ولا تعد علي إلا أن أتكلم بكلام ثان[١].

الله أكبر همهم الآخرة.. يرون الدنيا مطية للآخرة ومزرعة للحسنات ورفعًا للدرجات.. ولذا استثمروا أوقاتهم وحافظوا على أيامهم وألزموا أنفسهم الطاعة والبعد عن المعصية.. فكانت حياتهم زيادة في الخير.. وطول أعمارهم زيادة في عمل الصالحات.

قال **مهدي بن ميمون**: رأيت حسان بن أبي سفيان في مرضه، فقيل له كيف تجدك؟ قال: بخير إن نجوت من النار، فقيل له: ماتشتهي؟ قال: ليلة بعيدة ما بين الطرفين، أحي ما بين طرفيها[٢].

لقد كان استعدادهم للموت استعداد من لا يعلم متى يرحل فلم يلهه الأمل ولم يثنه بُعد الأجل.. كانت **معاذة العدوية** إذا جاء النَّهار قالت: هذا يومي الذي أموت فيه، فما تنام حتى تُمسي، وإذا جاء الليل قالت: هذه ليلتي التي أموت فيها، فلا تنام حتى تصبح[٣].

وقال **أبو المنذر إسماعيل بن عمر**: دخلنا على ورقاء بن عمر بن كليب وهو يموت فجعل يكبر ويهلل ويذكُر الله، فلمَّا كَثُرَ الناس قال لابنه: اكفني رد السلام لا يشغلوني عن ربي[٤].

إنَّ الطبيب بطبه ودوائه
لا يستطيع دفاع مكروه أتى

---

(١) العاقبة: (١٤٥).
(٢) حلية الأولياء: (٣/ ١١٧).
(٣) صفة الصفوة: (٤/ ٢٢).
(٤) تذكرة الحفاظ: (١/ ٢٣٠).

ما للطبيب يموت بالداء الذي
قد كان يُبري منه فيما قد مضى
ذهب المُداوي والمَداوى والذي
جلب الدواء وباعه ومن اشترى

لمَّا نزل الموت **بحذيفة بن اليمان** ـ رضي الله عنه ـ قال: حبيبٌ جاء على فاقة.. قد كنت قبل اليوم أخشاك وأنا اليوم أرجوك[١].

وبكى **الحسن** ـ رضي الله عنه ـ بكاءً شديدًا، فقيل له: يا أبا سعيد ما يبكيك؟ فقال: خوفًا من أن يطرحني في النَّار ولا يبالي[٢].

وقال **سليمان التيمي**: دخلت على بعض أصحابنا وهو في النزع، فرأيت من جزعه ما ساءني، فقلت له: هذا الجزعُ كله لماذا؟ وقد كُنت ـ بحمد الله ـ على حالة صالحة؟ فقال: وما لي لا أجزع ومن أحقُ مني بالجزع؟، والله لو أتتني المغفرة من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأهمني الحياءُ منه فيما أفضيت به إليه[٣].

الله أكبر عرفوا الله حق معرفته وقدروه حق قدره فاستحيوا من سيئاتهم وندموا على زلاتهم، همهم الآخرة ورجاؤهم في الله كبير.. تخالط الآية شغاف قلوبهم: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩] يحدوهم الرجاء ويرفرف فوق قلوبهم الخوف.

هذا **الربيع بن خثيم** لما مرض قالوا له: ألا ندعو لك طبيبًا؟ فتفكر

---

(١) العاقبة ص (١٤٦).
(٢) الزهر الفائح ص (٩١).
(٣) تسلية أهل المصائب ص (٨٨).

وقال: أين عاد وثمود وأصحاب الرس وقرون بين ذلك كثيرًا؟ قد كانت فيهم الأدواء والأطباء، فلا أرى المداوي بقي ولا المداوى، كل قد قضى ومضى[١].

يأتي القضاء ولا ينفع الاستشفاء: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٦ ـ ٣٠].

أخي المسلم:

وحدثتك الليالي إن شيمتها
تفريق ما جمعته فاسمع الخبرا
وكن على حذر منها فقد نصحت
وانظر إليها ترى الآيات والعبرا
فهل رأيت جديدًا لم يعد خلقًا
وهل سمعت بصفوٍ لم يعد كدرا

والموت يمر عبر السطور.. وتقشعر له النفوس.. نتمنَّى أن ينتهي الحديث عن الموت.. لكن يا رفيق الرحلة بقي خطوات قليلة.. تعال لنرى عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وهو يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد[٢].

عجبًا لهم أمة فيها قلوب حية وأذنًا مستمعة.. الله المستعان الموت لا يفارق ذهنه ساعة، ونحن لا نصبر على سماع شيء عن الموت ولو شطر

---

(١) العاقبة ص (١١٩).
(٢) العاقبة ص (٣٩).

ساعة.. بل ربما بعضهم يقوم من المكان الذي فيه ذكرٌ للموت وحديث عن الاحتضار.. وما ذاك إلا من الغفلة والحرص على الدنيا ونعيمها الزائل.. هذا وهو حديث في مكانٍ مُنعم بالنعم.. ولغلة الهوى والنفوس والبعد عن الآخرة ومن باب الموعظة والتذكير.

كان **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ يقول: أكثروا من ذكر النار فإن حرها شديد وقعرها بعيد، ومقامعها حديد[١].

ولما حضرت الوفاة **الفضيل بن عياض** ـ رحمه الله ـ غشي عليه، ثم أفاق وقال: يا بعد سفري وقلة زادي[٢].

وكان **مطرف بن عبد الله** يقول: إن هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه[٣].

وذلك بالاتجاه إلى الله وعبادته حق العبادة وصدق العودة إليه ـ جل وعلا ـ كما قال **العلاء بن زياد**: ليُنزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، وأنه استقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله[٤].

فلو أنزلنا أنفسنا في هذه المنزلة وأوقفنا أنفسنا هذا الموقف لتغيرت أحوالنا ولصلحت أعمالنا.. فصل ـ أيها الحبيب ـ صلاة مودع.. واستشعر قرب الموت ودنو الأجل يصلح عملك وينقطع رجاؤك إلا من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

تهون الدنيا في عينيك وتجعل الآخرة والسعي لها في قلبك.. يلازمك

---

(١) الحسن البصري: (١٠٨).
(٢) العاقبة: (١٣٣).
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٢٢٤).
(٤) العاقبة: (٩٠).

خوف ورجاء.. وعمل وطمأنينة.. فهو خوف بعده أمن وتعب بعده راحة.. ونعيم ما بعده زوال.

وما خاف مؤمنٌ اليوم إلا أمن غدًا بحُسن اتعاظه وصلاح عمله، فإننا في دارٍ أفسح الله لنا فيها بالنعم التي يسبغها علينا صباح مساء، ونحن نُضيع أعمارنا في غير ما خُلقنا له، ثم إذا فاجأنا الموت صرخ البعض: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩].

لماذا ترجع وتعود وأنت لك سنوات تسعى في هذه الدنيا؟ هل نسيت شيئًا لترجع؟ وهل أضعت مفقودًا لتعود وتنظر؟ سنوات طويلة مرت من عمرك أنت غافل عنها ومقصر في حقها فالآن تطلب الرجوع وترجو العودة.

نعم أنادي بالعودة ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وأين أنت عن هذا اليوم؟ ألا تعمل وأنت في سعة من الوقت وفسحة من الزمن؟

قيل **لجابر بن زيد** عند موته: ما تشتهي؟ فقال: نظرة إلى الحسن، فجاء الحسن، فلمَّا دخل عليه قيل له: هذا الحسن، فرفع طرفه وقال: يا إخوتاه السَّاعة أفارقكم إما إلى الجنَّة وإما إلى النَّار.

مـــــا هـــــي إلا جنَّـــــةٌ ونـــــارُ
أفلـــــح مـــــن كـــــان لـــــه اعتبـــــارُ

وصدق ـ والله ـ في قوله.. فهناك معبران أحدهما إلى الجنَّة وآخر إلى النَّار.. وعندها لا يستوي أصحاب الجنَّة وأصحاب النَّار.. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠].

عن المزني قال: دخلت على **الشافعي** في علته التي مات فيها، فقلت: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني

مفارقًا، ولكأس المنية شاربًا، ولسوء عملي ملاقيًا، وعلى الله ـ تعالى ـ واردًا، فلا أدري روحي تصير إلى الجنة فأهنيها أو إلى النار فأعزيها، ثم بكى[١].

ولمَّا احتضر **نافع** بكى، فقيل ما يبكيك؟ قال ذكرت سعدًا وضغطة القبر (أي حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: «**إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجيًا منها نجا سعد بن معاذ**»)[٢].

أخي المسلم:

ها هو **عمر بن عبدالعزيز** ـ رحمه الله ـ يذكرنا بمآلنا ومصيرنا وانقطاعنا عن الدُّنيا فيقول: ألا ترون أنَّكم تجهزون كلَّ يوم غاديًا أو رائحًا إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وتضعونه في صدع من الأرض، قد توسد التُّراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب[٣].

بل هذا **عبدالله بن علي** لمَّا حضرته الوفاة بكىٰ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لتفريطي في الأيَّام الخالية وقلَّة عملي للجنَّة العالية، وما ينجيني من النَّار الحامية[٤].

ولنرى ثمن الزَّمن عندهم وقيمة الوقت لديهم واغتنامهم لذلك فإنَّه لمَّا احتضر **عامر بن عبد الله** بكىٰ، وقال: لمثل هذا المصرع فليعمل العاملون، اللَّهمَّ إنِّي أستغفرك من تقصيري وتفريطي، وأتوب إليك من جميع ذنوبي، لا إله إلا الله، ثمَّ لم يزل يردِّدها حتَّى مات رحمه الله.

---

(١) صفة الصفوة: (٢/ ٢٥٨)، والسير: (١٠/ ٧٦).
(٢) السير: (٥/ ٩٩).
(٣) الإحياء: (٤/ ٤٨٠).
(٤) العاقبة ص (١٣١).

أخي الحبيب:

والله إنَّ الموت كما قد أفسد على أهل النَّعيم نعيمهم، ووالله أنَّ النَّعيم في جنَّات عدن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.. جنَّة فيها الأنبياء والصدِّيقون والشُّهداء وحسن أولئك رفيقًا.. فسر إليها وجد في طلبها وأسرع الخطا لتنالها.

قال **إبراهيم بن أبي عبده**: بلغني أنَّ المؤمن إذا مات تمنَّى الرَّجعة إلى الدُّنيا ليس ذلك إلا ليكبِّر تكبيرةً، أو يهلِّل تهليلةً أو يسبِّح تسبيحةً[١].

ولمعرفتهم لهذا ولأهمية الزَّمن في حياتهم والاستفادة منه في الطَّاعة والتَّزوُّد للآخرة حرصوا على الاستفادة منه وعدم التَّفريط في لحظاته.

قال **بكير بن عامر**: كان لو قيل لعبد الرحمن بن أبي نعيم: قد توجَّه إليك ملك الموت، ما كان عنده زيادة عمل[٢].

وكان **يزيد الرقاشي** يقول لنفسه: ويحك يا يزيد.. من ذا الذي يصلِّي عنك بعد الموت؟ من ذا الذي يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا الذي يُرضي ربَّك بعد الموت؟ ثمَّ يقول: أيُّها النَّاس، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ ويا من الموت موعده والقبر بيته، والثَّرى فراشه والدُّود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر.. كيف يكون حاله؟ ثمَّ يبكي حتَّى يسقط مغشيًا عليه[٣].

وروي أنَّ **معاذ بن جبل** لما حضرته الوفاة قال: انظروا هل أصبحنا؟ فأتي فقيل لم تُصبح، حتَّى أتى في بعض ذلك، فقيل له: قد أصبحنا.

---

(١) شرح الصدور: (٨).
(٢) السير: (٥/ ٩٢).
(٣) العاقبة: (٤٠).

فقال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النَّار، ثمَّ قال: مرحبًا بالموت زائر مُغيب، وحبيب جاء على فاقة، اللَّهمَّ إنِّي كنت أخافك.. وأنا اليوم أرجوك.. اللَّهمَّ إنَّك تعلم أنِّي لم أكن أحبُّ الدُّنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار ولا لغرس الأشجار.. ولكن لطول ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشِّتاء.. ومكابدة السَّاعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذِّكر[١].

أخي الحبيب:

أرأيت الحياة لديهم كيف تكون ولماذا يعيشون؟ أين نحن من ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء؟ أين نحن من طلب العلم والاستماع للعلماء؟ كيف نرى أوقاتنا الضائعة إذا وافانا الأجل وحان الرحيل؟

كان **حبيب العجمي** عند موته يبكي ويقول: أريد أنْ أسافر سفرًا ما سافرته قطُّ.. وأسلك طريقًا ما سلكته قط.. وأزور سيدي ومولاي وما رأيته قط.. وأشرف على أهوال ما شاهدتها قط..

أما **عمر بن عبد العزيز** ـ رحمه الله ـ فقد قال: لولا أن تكون بدعة لحلفت أن لا أفرح من الدُّنيا بشيء أبدًا، حتَّى أعلم ممَّا في وجوه رسل ربي إليَّ عند الموت، وما أحبُّ أنْ يهون على الموت لأنَّه آخر ما يؤجر عليه المؤمن[٢].

وقال **بعضهم**: عجبًا لمن يعرف أنَّ الموت حقٌّ، كيف يفرح؟ وعجبًا لمن يعرف أنَّ النَّار حقٌّ، كيف يضحك؟ وعجبًا لمن رأى تقلُّب الدُّنيا

---

(١) منهاج القاصدين ص (٤٣١).
(٢) حلية الأولياء: (٥/ ٣١٦).

بأهلها، كيف يطمئنُّ إليها؟ وعجبًا لمن يعلم أنَّ القدر حقٌّ، كيف ينصب[١]؟.

ونحن في هذه الدُّنيا تتخطَّفنا الآمال ونبحر في نهر التَّسويف.. نجاهد النَّفس والهوى والشَّيطان.. حينًا وحينًا.. لنا في نصيحة عمر بن عبدالعزيز تطبيق عملي لغلبة الأماني والتَّفكُّر والمآل والمصير.

قال **عمر بن عبد العزيز** ـ رحمه الله ـ لأبي حازم: عظني. فقال: اضطجعْ ثمَّ اجعلْ الموت عند رأسك ثمَّ انظرْ ما تحبُّ أنْ يكونَ فيك تلك السَّاعة فجد فيه الآن، وما تكره أنْ يكونَ فيك فدعه الآن.

يا أيُّها الناس:

اعملوا على مهلٍ، وكونوا من الله على وجلٍ، ولا تغترُّوا بالأمل ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدُّنيا فإنَّها غدَّارة خدَّاعة، قد تزخرفت لكم بغرورها، وفتنتكم بأمانيها، وتزيَّنت لخُطَّابها، فأصبحت كالعروس المحيلة، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها عاكفةٌ، والنُّفوس لها عاشقةٌ، فكم من عاشقٍ لها قتلت، ومطمئن إليها خذلت، فانظروا إليها بعين الحقيقة، فإنَّها دارٌ كثير بوائقها، وذمَّها خالقها. جديدها يبلى، ومُلكها يفنى، وعزيزها يذلُّ، وكثيرها يقلُّ، ودها يموت، وخيرها يفوت، فاستيقظوا ـ رحمكم الله ـ من غفلتكم ومن رقدتكم قبل أنْ يقال فلانٌ عليل أو مدنف ثقيل، فهل على الدواء من دليل؟ وهل إلى الطبيب من سبيل؟ فتُدعى لك الأطبَّاء، ولا يُرجى لك الشِّفاء.

ثمَّ يقال: قد ثقل لسانه فما يكلِّم إخوانه، ولا يعرف جيرانه، وعرق

---

(١) مكاشفة القلوب ص (١٥٧).

عند ذلك جبينك وتتابع أنينك، وثبت يقينك، وطمحت جفونك، وصدقت ظنونك، وتلجلج لسانك، وبكى إخوانك.

وقيل لك: هذا ابنك فلان، وهذا أخوك فلان، ومنعت من الكلام فلا تنطق، وختم على لسانك فلا ينطق، ثمَّ حلَّ بك القضاء، وانتزعت نفسك من الأعضاء، ثمَّ عُرج بها إلى السَّماء، فاجتمع عند ذلك إخوانك، وأحضرت أكفانك، فغسَّلوك وكفَّنوك، فانقطع عوادك واستراح حسَّادك، وانصرف أهلك إلى مالك، وبقيت مرتهنًا بأعمالك[1].

واعلم ـ رحمك الله ـ أنَّ ممَّا يعينك على التَّفكُّر في الموت ويفرغك له ويكثر اشتغالك به تذكر من مضى من إخوانك وخلانك، وأصحابك وأقرانك، الذين مضوا قبلك وتقدَّموا أمامك، كانوا يحرصون حرصك ويسعون سعيك ويأملون أملك ويعملون في هذه الدُّنيا عملك، وقصت المنون أعناقهم، وقلعت أعراقهم وقصمت أصلابهم، وفجعت فيهم أهليهم وأحباءهم، فأصبحوا آيةً للمتوسِّمين وعبرةً للمعتبرين[2].

فالموت قد عدل.. ساوى بين الملك والصغير والكبير، يدخل الغرف الصغيرة.. ولا يرده حاجب القصور الكبيرة.. أفنى من ملكوا الدُّنيا وقضى على من لا يملكون شيئًا من الدُّنيا، ولكن..

النَّـــــاس فـــــي غفـــــلاتهـــــم
ورحـــــى المنيـــــة تطحـــــنُ

---

(١) الإحياء: (٣/ ٢٢٥).
(٢) العاقبة: (٥٠).

أمَّا أصحاب القصور والدور وأصحاب المناصب الذين يغبطهم الكثير من أهل الدُّنيا على هذه النِّعمة لنرى حالهم عند الموت.. كيف يواجهونه وكيف يستقبلونه.. هل تبقى القوَّة والمنعة والأبهة والوجاهة؟ أم يسقط كل ذلك ويبقى العمل؟

قال **محمد بن منصور البغدادي**: دخلت على عبدالله بن طاهر وهو في سكرات الموت فقلت: السَّلام عليكم أيُّها الأمير، فقال: لا تسمني أميرًا وسمني أسيرًا.

ولما حضرت **عبد الملك بن مروان** الوفاة جعل يقول: والله لوددت أنِّي عبد لرجل من تهامة أرعى غنيمات في جبالهم ولم آلي[١].

وكان **المنتصر** يضطرب علىٰ نفسه عند موته فقيل له: لا بأس عليك يا أمير المؤمنين، فقال: ليس إلا هذا، لقد ذهبتِ الدُّنيا وأقبلت الآخرة[٢].

وهذا التفاوت في معايش الدنيا لا يرد الموت عن العدل بين الجميع فهو بأمر الله مهلك القوى ومفني الدول.. ولكن البدار البدار.. التوبة التوبة قبل الموت.

قال **شفيق بن إبراهيم**: استعد إذا جاءك الموت أن لا تسأل الرجعة[٣].

والرَّجعة ـ أخي الحبيب ـ لن تُعطى إيَّاها، فلكلِّ أجلٍ كتاب.. ولكن استعد للموت من الآن بالعمل الصَّالح وبالتَّوبة النَّصوح قبل أنْ تقول نفس: يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله.. إنَّه ذهاب لا رجوع بعده وندم لا تجدي معه دموع.. ورحيل من الدُّنيا بلا عودة.. إنَّه نهاية

---

(١) تسلية أهل المصائب: (٨٨).
(٢) الثبات عند الممات: (٩٢).
(٣) الزهد للبيهقي: (٢٣٩).

الدُّنيا . . والرَّحيل من فوق أرضها إلى داخلها . . من سعة القصور ورحابة الدُّور إلى ضيق القبور . . سؤال وجواب . . وحساب ونقاش . .

لمَّا كان **عمر بن عبدالعزيز** ـ رحمه الله ـ في مرضه الذي مات فيه قال: أجلسوني، فأجلسوه ثمَّ قال: أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا الله. ثمَّ رفع رأسه وأحدَّ النَّظر، فقالوا له: إنَّك لتنظر نظرًا شديدًا، قال: إنِّي لأرى حضرة ما هم بإنس ولا جن، ثم قُبض[١].

وها هو **أمير المؤمنين المأمون** لمَّا حضرته الوفاة أمر بجل دابته ففرش له، فاضطجع عليه، ووضع الرماد على رأسه وجعل يقول: يامن لا يزول ملكه ارحم اليوم من قد زال ملكه[٢].

ولمَّا حضرت الوفاة **أبا جعفر المنصور أمير المؤمنين**، قال للربيع: يا ربيع هذا السلطان . . لا سلطان من يموت[٣].

إنَّه الموت نهاية كل حي، لا يفلت منه أحد، ولا يُسبق فيفوته أحد . .

وعندما أيقن **عبد الملك بن مروان** بالموت، قال: والله لوددت أنِّي كنت منذ ولدت إلى يوم هذا حمالاً[٤].

وقال **أبو الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ: إذا ذكرت الموتى فعدَّ نفسك كأحدهم[٥].

وقد قيل **لعبد الملك بن مروان** في مرض موته: كيف تجدك؟ فقال:

---

(١) حلية الأولياء: (٥/ ٣٢٥).
(٢) العاقبة ص (١٣٠).
(٣) العاقبة ص (١٢٨).
(٤) تاريخ الخلفاء ص (٢٠٥).
(٥) الإحياء: (٤/ ٤٨٠).

أجدني كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

نعم.. لقد ذهب ملك الدنيا وزخرفها.. وقدم الكل على الله.

والعمر زمنٌ يمرُّ سريعًا كأضغاث أحلام.. يراه الإنسان لا نهاية له.. ويلهه الأمل عن الآخرة ولذلك كان **المعتصم** يقول عند موته: لو علمت أن عمري هكذا قصيرٌ ما فعلت[1].

كلُّنا أعمارنا قصيرة وآجالنا مكتوبة وأنفاسنا معدودة.. أعمارنا التي مضت كأنَّها حلم، ووالله إنَّها كساعة من نهار ولكن الخوف من نار تلظَّى.. وحفرة تختلف فيها الأضلاع.

لنتأمل فعل أمير المؤمنين **هارون الرشيد** وهو ينتقي أكفانه بيده وينظر إليها ويقول: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ۝٢٩ ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩].

من منا ينتقي أكفانه ويضعها في بيته.. بل ربما لو وجد البعض ثوبًا يشبه الكفن في بيته لأخرجه.. فلا داعي له.. وهل الموت قريب ليستعد له..؟!

تنام ولم تنم عنك المنايا
تنبه للمنية يا نؤومُ

أخي الحبيب:

لا تقف عن القراءة استمر لحظات وانظر في حال من سبقك واعتبر بحالهم فإن من أتى بعدك سيعتبر بحالك!!

لما احتضر **عبدالرَّحمن بن الأسود** بكى، فقيل له، فقال: أسفًا على

(١) البداية والنهاية: (٩/ ٧٤).

الصَّلاة والصَّوم. . ولم يزل يتلو حتَّى مات[١].

والخروج من هذه الدنيا خروج بكفن وعمل صالح تُحمل ملفوفًا بكفن تاركًا وراءك قصورًا شيدتها ودورًا بنيتها، فيها أحباب وأصحاب، وزوجات وأبناء.

وكل هذا لديك ولكنك ترحل بكفن. . أرأيت كيف هوان الدنيا ونهايتها؟

قال **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ لابنه: اقتصدوا في كفني فإنْ كان لي عند الله خيرٌ أبدلني ما هو خيرٌ منه، وإنْ كنت على غير ذلك سلبني فأسرع سلبي. . واقتصدوا في حفرتي. . فإنَّه إنْ كان لي عند الله خيرٌ أوسع لي منها مدَّ بصري. . وإن كنت على غير ذلك ضيقها عليَّ حتَّى تختلف أضلاعي[٢].

ولمَّا **احتضر سعيد بن مروان** قال: يا ليتني لم أكنْ شيئًا، يا ليتني كهذا الماء الجاري، ثمَّ قال: هاتوا كفني. . أُفٍّ لك، ما أقصر طويلك وأقل كثيرك[٣].

وقال **عبدالملك بن مروان** في مرض موته. . ارفعوني فرفعوه حتَّى شمَّ الهواء، وقال: يا دنيا ما أطيبك. . إنَّ طويلك لقصير، وإنَّا كثيرك لحقير، وإنَّ كنَّا بك لفي غرور[٤].

إخواني:

جدوا فقد سُبقتم، واستعدُّوا فقد لُحقتم، وانظروا بماذا من الهوى

---

(١) الثبات عند الممات ص (٩٢).
(٢) السير: (٥/ ١١٢).
(٣) تاريخ الخلفاء ص (١٣٦).
(٤) السير: (٤/ ٢٥٠).

علقتم.. ولا تغفلوا عمَّا له خُلقتم، ذهبت الأيَّام وما أطعتم، وكتبت الآثام وما أصغيتم، وكأنَّكم بالصَّادقين قد وصلوا وانقطعتم، أهذا التَّوبيخ لغيركم؟ أو ما قد سمعتم؟!

كم سكن مثلك في هذه الدار!، فحام الموت حول حماهم ودار، ثمَّ ناهضهم وسلب الجار، فمن أنذر قبل هجومه فمَا جار، يا هذا العمر عمرٌ قليل، وقد مضى أكثره بالتعليل، وأنت تعرض البقية للتأويل.. وقد آن الأوان أن يرحل النزيل[١].

يروى عن **عبد الله بن شرمة** أنه قال: دخلت مع عامر الشعبي على مريضٍ نعوده، فوجدنا لما به.. ورجلٌ يلقنه الشهادة ويقول له: قل لا إله إلا الله، وهو يُكثر عليه، فقال له الشعبي: ارفق به، فتكلم المريض وقال: إن يلقني أو لا يلقني فإني لا أدعها، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦] فقال **الشعبي**: الحمد لله الذي نجا صاحبنا[٢].

وقال **القعقاع بن حكيم**: قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة، فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء.

ويروى عن **عبد الله بن المبارك** أنه لما احتضر نظر إلى السماء، فضحك ثم قال: لمثل هذا فليعمل العاملون[٣].

واحتضر بعض الصالحين فبكت امرأته فقال: ما يبكيك؟ قالت:

---

(١) البداية والنهاية: (٩/ ٧٥).
(٢) التذكرة في الاستعداد لليوم الآخرة ص (٩١).
(٣) العاقبة ص (١٣٦).

عليك أبكي. . قال: إن كنت باكية فابك على نفسك، فأما أنا فقد بكيت على هذا اليوم منذ أربعين سنة[١].

وقال **محمد بن القاسم**: دخلت على ابن أسلم قبل موته بأربعة أيام بنيسابور، فقال: يا أبا عبدالله، تعال أبشرك بما صنع الله بأخيك من الخير، قد نزل بي الموت، وقد منَّ الله عليَّ. . إنَّه ما لي درهم يحاسبني الله عليه. . ثمَّ قال: أغلق الباب ولا تأذن لأحد حتَّى أموت، وتدفنون كتبي، واعلم أني أخرج من الدنيا وليس أدع ميراثًا غير كسائي ولبدي وإنائي الذي أتوضأ فيه وكتبي هذه، فلا تكلفوا الناس مؤنة. . وكان معه صرة فيها ثلاثين درهمًا، فقال: هذا لابني أهداه قريب له، ولا أعلم شيئًا أحلَّ لي منه؛ لأن النبي ﷺ قال: «**أنت ومالك لأبيك**» وقال: «**أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه**» فكفنوني منها. . فإن أصبتم لي بعشرة ما يستر عورتي فلا تشتروا بخمسة عشر، وابسطوا على جنازتي لبدي وغطوا عليها كسائي. . وأعطوا إنائي مسكينًا[٢].

وقيل **للكناني** لما حضرته الوفاة: ما كان عملك؟ فقال: لولم يقرب أجلي ما أخبرتكم به. وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبته عنه[٣].

أخي:

كم وقفنا على أبواب قلوبنا. . لنرى ولو ساعة من نهار. . ماذا في صحائفنا وماذا نعمل في أيامنا ولياليا. .

---

(١) العاقبة: (١٣٥).
(٢) الزهد للبيهقي: (١٢٧٨).
(٣) السير: (٢/ ١٩٩).

هذا **بلال** ـ رضي الله عنه ـ مؤذن رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة قالت: امرأته: واحزناه، فقال: بل واطرباه غدًا نلقي الأحبة؛ محمدًا وحزبه[١].

وعن **أنس بن عياض** رأيت صفوان بن سليم ولو قيل له: غدًا القيامة ما كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة[٢].

وقد قيل **لعبد الله بن عمر** ـ رضي الله عنهما ـ: توفي فلان الأنصاري، قال: رحمه الله، قالوا: ترك مائة ألف، قال: لكن هي لم تتركه.

وكيف تتركه وهناك كتابٌ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. إنَّها الدُّنيا حلالها حساب وحرامها عذاب.

أخي الحبيب:

وقد دبَّ الخوف إلى قلبك.. وتعثر لسانك واهتزت أطرافك وتبعثرت أوراقك ترغب في توبة صادقة وتجد في طلب ملجأ آمن.. رنت عيناك نحو الدَّار الآخرة وهمك مطلب عال سام.. ترجو رحمة ربك وتخشى عذابه.

أبشر برحمة ومغفرة لمن لجأ إلى جناب الله هاربًا من ذنوبه فارًا من معاصيه.

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ إنه فرار إلى الله من المعاصي والذنوب ولجوء إلى الرحمن الرحيم غافر الذنب وقابل التوب.

ومن أراد الجنة فلابد من الموت، رغم آلامه وأهواله وغصصه وروعاته.

---

(١) الإحياء: (٤/ ٥١٣).

(٢) الثبات عند الممات ص (٩٣).

قال ابن عبد ربه **لمكحول**: أتحب الجنَّة؟ قال: ومن لا يُحبُّ الجنَّة؟ قال: فأحبب الموت فإنَّك لن ترى الجنَّة حتى تموت[١].

وقال **بلال بن سعد** ـ رحمه الله ـ: يقال لأحدنا: تريد أن تموت؟ فيقول: لا، فيقال له: لِمَ؟ فيقول: حتَّى أتوب وأعمل صالحًا، فيقال له: اعمل، فيقول: سوف أعمل، فلا يُحب أن يموت ولا يحب أن يعمل، فيؤخر عمل الله ـ تعالى ـ ولا يؤخر عمل الدنيا[٢].

* * *

(١) السير: (٥/٣٦٦).
(٢) شرح الصدور: (١٧).

نصائح غالية ودرر نفيسة
تقدم لمن أراد النجاة وأراد الآخرة

قال **أبو حازم سلمة بن دينار**: كل عمل تكره الموت من أجله فاتركه، ثمَّ لا يضرك متى متَّ[١].

أرأيت ـ أخي الكريم ـ كيف القياس..

هاك الأخرى..

قال **ميمون بن مهران**: من كان يريد أنْ يعلم منزلته عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فلينظر في عمله، فإنَّه قادم على عمله كائنًا من كان[٢].

وجماع ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحشر: ١٨].

قال **أبو عياش القطان**: كانت امرأة بالبصرة متعبدة يقال لها منيبة ولها ابنة أشد عبادة منها، فكان الحسن ربما رآها وتعجب من عبادتها على حداثتها، فبينما الحسن ذات يوم جالس إذ أتاه آت، فقال: أما علمت أن الجارية قد نزل بها الموت، فوثب الحسن فدخل عليها، فلمَّا نظرت إليه الجارية بكت، فقال لها: يا حبيبتي ما يبكيك؟ فقالت له: يا أبا سعيد، التراب يحثى على شبابي ولم أشبع من طاعة ربي، يا أبا سعيد، انظر إلى والدتي وهي تقول لوالدي: احفر لابنتي قبرًا واسعًا وكفنها بكفن حسن، والله لو كنت أجهز إلى مكة لطال بكائي.. كيف وأنا أجهز إلى ظلمة

---

(١) العاقبة: (٩١).

(٢) تذكرة الحفاظ: (١/ ١٣٣).

القبور ووحشتها وبيت الظلمة والدود[١].

ولنتأمل في نصيحة محمد بن واسع وهي نصيحة قلبية صادقة في وقت حرج وزمنٍ ضيق. قال محمد بن عبدالله مولى الثقفيني: دخلنا على محمد بن واسع وهو يقضي، فقال: يا إخوتي، يا إخوتاه.. هبوني وإيَّاكم سألنا الله الرجعة فأعطاكموها ومنعنيها، فلا تخسروا أنفسكم[٢].

نعم أنا وأنت سألنا الرجعة فنحن في دار العمل فهيا إلى البدار ولنجلي صدأ القلوب بتوبة صادقة. وأوبة سريعة فالأنفاس لم تتوقف بعد ولازلنا في دار العمل.

كان بعض الصَّالحين ينادي بليلٍ على سور المدينة. الرحيلُ.. الرحيلُ، فلمَّا تُوُفِّي فَقَدَ صوته أمير المدينة فسأل عنه، فقيل: إنه قد مات. فقال:

مـــازال يلهـــج بـــالـــرحيـــلِ وذِكـــره
حتَّـــى أنـــاخ ببـــابـــه الجمـــالُ
فـــأصـــابـــه متيقظًـــا مُتشمِّـــرًا
ذا أُهبـــةٍ لـــم تُلهـــه الآمـــال[٣]

قيل: إنَّ يعقوب ـ عليه السلام ـ قال لملك الموت: إنِّي أسألك حاجةً؟ قال: وما هي؟ قال: أن تعلمني إذا دنا أجلي وأردت أنْ تقبض روحي؟ فقال: نعم، أرسل إليك رسولين أو ثلاثة، فلمَّا انقضى أجله أتى إليه ملك الموت فقال: أزائر جئت أم لقبض روحي؟ فقال: لقبض

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ٢٧).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٢٧١).
(٣) التذكرة للقرطبي ص (٤٠).

روحك، فقال: أولست كنت أخبرتني أنَّك ترسل إليَّ رسولين أو ثلاثة؟ قال: قد فعلت.. بياض شعرك بعد سواده، ضعف بدنك بعد قوته، انحناء جسمك بعد استقامته، هذه رسلي يا يعقوب إلى بني آدم قبل الموت[١].

وليس هذا هو السائد فكم أخذ الموت من طفل رضيع.. وكم بغت من قد استقام عوده وشب..

بل نرى أكثر أصحاب القبور من الشباب والأطفال والرضع.. ولكن هاك نصيحة موثقة تصلح لجميع الأعمار وتُبنى بها الديار في جنات الخلد.

تأمل ـ **أيُّها الحبيب** ـ في وصية تكتب بماء الذهب وتحفظ في ثنايا القلوب.

فقد قال رجل لزهير بن نعيم: يا أبا عبد الرحمن توصي بشيء؟ قال: نعم، احذر أن يأخذك الله وأنت على غفلة[٢].

وهذه هي النصيحة الباقية.. والمحبة في الله.. حثٌّ على الطاعات وتواص باجتناب المحرمات. تذكير بالآخرة واستعداد لها.

قال **عبيد بن عمير**: كان لرجل ثلاثة أخلاء بعضهم أخص له من بعض، فنزلت به نازلة، فلقي أخص الثلاثة به فقال: يافلان إنه نزل بي كذا وكذا وإني أحب أن تعينني، قال: ما أنا بالذي أفعل، فانطلق إلى الذي يليه في الخاصة، فقال: يا فلان إنه قد نزل بي كذا وكذا وأنا أحب

---

(١) إرشاد العباد ص (٧).

(٢) صفة الصفوة: (٤/ ٩).

أن تُعيننني، قال: فانطلق معك حتى تبلغ المكان الذي تريد، فإذا بلغت رجعت وتركتك، قال: فانطلق إلى أبعد الثلاثة، فقال: يا فلان، إنه قد نزل بي كذا وكذا فأنا أحب أنْ تُعيننني، قال: أنا أذهب معك حيث ذهبت، وأدخل معك حيث دخلت، قال:

فالأول: ماله، خلفه في أهله ولم يتبعه منه شيء.

والثاني: أهله وعشيرته ذهبوا معه إلى قبره، ثم رجعوا وتركوه.

والثالث: هو عمله وهو معه حيث ما ذهب، ويدخل معه حيث ما دخل[1].

أخي الحبيب:

دعني أسحُ دموعًا لا انقطاع لها
لو كنت تعلم ما بي تعذُرني
كأني بين تلك الأهل منطرحًا
على الفراش وأيديهم تقلبني
كأني وحولي من ينوح ومن
يبكي عليَّ وينعاني ويندبني
وقد أتوا بطبيب كي يعالجني
ولم أر الطبيب اليوم ينفعني
واشتد نزعي وصار الموت يجذبها
من كل عرقٍ بلا رفقٍ ولا هونِ

---

(١) حلية الأولياء: (٣/ ٢٦٩).

واستخـــرج الـــروح منـــي فـــي تغـــرغـــرهـــا
وصـــار ريقـــي مـــريـــرًا حيـــن غـــرغـــرنـــي
وغمضـــونـــي وراح الكـــل وانصـــرفـــوا
بعـــد الإيـــاس وجـــدُّوا فـــي شـــر الكفـــن
وأنـــزلـــونـــي فـــي قبـــري علـــى مهـــلٍ
وأنـــزلـــوا واحـــدًا منهـــم يلحـــدنـــي
وكشـــف الثـــوب عـــن وجهـــي لينظـــرنـــي
وأسبـــل الـــدمـــع مـــن عينيـــه اغـــرقنـــي
فقـــام محتـــدمًـــا بـــالعـــزم مشتمـــلاً
وصَفَّـــف اللبـــن مـــن فـــوقـــي وفـــارقنـــي
وقـــال هُلـــوا عليـــه التـــراب واغتنمـــوا
حُســـن الثـــواب مـــن الـــرحمـــن ذي المنـــنِ

إنَّها رحلة سريعة كلمح البصر.. سحابة، بدت واختفت تلك هي الدنيا.. تمر مر السحابة ساعة من زمن ثم تنقضي، ألا إنها ـ يا أخي ـ رحلة بدأت وستنتهي.

عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قام رسول الله ﷺ على حصيرة فقام وقد أثَّر في جنبه، قلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً! فقال: «**ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرةٍ ثم راح وتركها**» [رواه الترمذي].

الخاتمة

أيُّها الحبيب:

سرت معي في دروب نالك فيها من الخوف الكثير فهانت الدنيا في عينك ولكن هاهو بصرك بدأ يفارق حزوفي فأوصيك ونفسي بتقوى الله.. انفض غبار الدنيا، الق رداء الكسل وعليك بالعزيمة الصَّادقة في مجاهدة النفس.. واجعل آخر حرف في هذا الكتاب بداية للتَّوبة.. تسبقها دمعة تُجمل مآقيك وينفتح لها قلبك. وأبشر بجنتين وعدك إيَّاها من لا يخلف الوعد: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٤٦].

أيُّهاالحبيب:

سنستوحش أنا وأنت إذا افترقنا ولكن لنا في كتاب الله عصمة وفي حديث الرسول ﷺ قدوة وفي مجالسة الصالحين أنسٌ وفرحة.. فنعم الزاد ليوم المعاد.

أخي الحبيب:

جمعني الله وإياك في دار كرامته وهون علينا سكرات الموت، وثبَّتنا بالقول الثَّابت في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة، وآنس وحشتنا في القبور، وثبتَّنا على الصِّراط يوم البعث والنُّشور، وحرم وجوه آبائنا وأمهاتنا عن النَّار، وجمعنا معهم في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر.. والحمد لله ربِّ العالمين.

سهم إبليس وقوسه

المقدمة

الحمد لله الذي خلق السَّمع والأبصار والأفئدة، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ من نعم الله التي لا تعد ولا تحصى نعمة البصر، وهي وإن كانت نعمة في ذاتها فإنَّها ربما أوردت صاحبها المهالك إذا أطلقها في غير ما أحلَّ الله.

ولتوسع الناس في أمر النَّظر المحرَّم وكثرته، أقدِّم للأحبَّة القرَّاء الجزء الثَّالث عشر من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء**» تحت عنوان «**سهم إبليس وقوسه**» فيه أطايب الكلام من قول الله ـ جلَّ وعلا ـ، وكلام رسوله ﷺ وذكر حال السلف في مجاهدة أنفسهم وحفظ أبصارهم.

نزَّه الله أسماعنا وأبصارنا وجوارحنا عن كلِّ ما نهى عنه وجعلها عونًا علىٰ الطَّاعة ومتَّعنا بها حتَّى نلقاه.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

مدخل

لقد أسبغ الله ـ جلَّ وعلا ـ علينا نعمًا ظاهرةً وباطنةً لا تعدُّ ولا تُحصىٰ ومن أعظم وأشرف تلك النِّعم نعمة البصر، قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك: ٢٣].

ومن عظيم قدرها أن أبدل الله من سلب منه عينيه فصبرَ الجنَّةَ، قال رسول الله ﷺ: «**إذا ابتلَيتُ عبد بِحَبِيْبَتَيْه، ثم صَبرَ، عوَّضتُه منها الجنَّة**»(١).

ونعمة البصر أعظم النِّعم إذا استخدمها العبد في طاعة الله ـ سبحانه ـ، أمَّا إذا كان خلاف ذلك، فإنَّها تكون سببًا للحسرة في الدُّنيا، والعذاب في الآخرة، ولذا جاء الأمر الإلهي للمؤمنين كافةً بغضِّ البصر وحفظه قال الله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ . . .﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

قال ابن كثير: وهذا أمر من الله ـ تعالى ـ لعباده المؤمنين أنْ يغضُّوا من أبصارهم عمَّا حرَّم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النَّظر إليه، وأنْ يغضُّوا أبصارهم عن المحارم، فإنْ اتفق أن وقع البصر على محرَّم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعًا(٢).

وقال ابن كثير: في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي أطهر

---

(١) رواه البخاري.

(٢) تفسير ابن كثير: (٦/ ٤٣).

لقلوبهم وأتقى لدينهم، كما قيل: من حفظ بصره أورثه الله نورًا في بصيرته. ويروى في قلبه[١].

وقال ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ. . .﴾:

هذا أمر من الله ـ تعالى ـ للنِّساء المؤمنات وغيرةٌ منه لأزوجهنَّ عباده المؤمنين، وتمييز لهنَّ عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات[٢].

وقال **الشوكاني** ـ رحمه الله ـ أيضًا حول هذه الآية: خصَّ الإناث بهذا الخطاب علىٰ طريق التَّأكيد لدخولهنَّ تحت خطاب المؤمنين تغليبًا كما في سائر الخطابات القرآنية[٣].

و ﴿مِنْ﴾ في قوله ـ تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ للتَّبعيض فكأنَّه خصَّ بالحظر والتَّحريم نوعًا من النَّظر وأطلق بعض النَّظر إلى ذوي المحارم، وما تدعو الحاجة إليه، ثمَّ عطف على ذكر النِّساء مفردًا لهنَّ بالذِّكر مع أنَّهن يدخلن في عموم خطاب الشَّرع تبعًا للرِّجال، فقال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ تأكيدًا لزمن النَّظر، واحتياطًا لصيانة الفرج عن الزِّنا والخطر، ولئلا يتوهَّم متوهِّم أنَّ الأمر يختصُّ بالرِّجال[٤].

قال **ابن القيم** ـ رحمه الله تعالى ـ: وأمر الله ـ تعالى ـ نبيَّه أن يأمر المؤمنين بغضِّ أبصارهم وحفظ فروجهم، وأنْ يُعلِّمَهم أنَّه مشاهد

---

(١) تفسير ابن كثير: (٦/ ٤٤).
(٢) المرجع السابق.
(٣) فتح القدير: (٤/ ٢٢).
(٤) أحكام النظر ص (١٨).

لأعمالهم مطلع عليها ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر: ١٩] ولمَّا كان مبدأ ذلك من قِبَلِ البصر جعل الأمر بغضِّه مقدَّمًا على حفظ الفرج، فإنَّ الحوادث مبدأها من البصر كما أنَّ معظم النَّار من مستصغر الشَّرر تكون نظرة، ثمَّ خطرة، ثمَّ خطوة، ثمَّ خطيئةً، لهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات والخطرات، واللقطات والخطوات.

فينبغي للعبد أنْ يكونَ بوَّاب نفسه علىٰ هذه الأبواب الأربعة، ويلازم الرباط علىٰ ثغورها فمنها يدخل عليه العدوُّ فيجوس خلال الديار فيُتبِّر ما علا تتبيرًا[١].

وقد جعل الله ـ سبحانه ـ العين مرآة القلب فإذا غضَّ العبد بصره غضَّ القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته.

ولما كان إطلاق البصر سببًا لوقوع الهوىٰ في القلب، أمر الشَّرع بغضِّ البصر عمَّا يُخاف عواقبه.

قال **ابن القيم** معلِّقًا على حديث الرسول ﷺ: «**كُتب علىٰ ابن آدم حظُّه من الزِّنا**...»[٢] الحديث. فبدأ بزنا العين لأنَّه أصل زنا اليد والرِّجل والقلب والفروج.

ثمَّ قال أيضاً: وهذا الحديث من أبين الأشياء علىٰ أنَّ العين تعصي بالنَّظر وأنَّ ذلك زناها، ففيه ردٌّ علىٰ من أباح النَّظر مطلقًا، وثبت عنه ﷺ أنَّه قال: «**يا علي لا تتبع النَّظرة النَّظرة فإنَّ لك الأولىٰ وليست لك الثَّانية**»[٣].

---

(١) الجواب الكافي: (١٧٩).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) روضة المحبين ص (٩٣، ٩٤). الحديث رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

فاحذر يا أخي ـ وفَّقك الله ـ من شرِّ النَّظر فكم قد أهلك من عابدٍ، وفسخ عزم زاهدٍ، فاتعظ بذلك وتلمح معنىٰ قول النبي ﷺ: «**النَّظرة سهمٌ مسموم**»[(١)] لأنَّ السم يسري إلى القلب فيعمل في الباطن قبل أنْ يرى عمله في الظَّاهر، فاحذر من النَّظر فإنَّه سبب الآفات إلا أنَّ علاجه في بدايته قريب، فإذا كرَّر تمكّن الشر فصعب علاجه.

وأضرب لك في ذلك مثلاً: إذا رأيت فرسًا قد مالت براكبها إلى درب ضيق فدخلت فيه ببعض بدنها، ولضيق المكان لا يمكن دخولها، فإنَّ قبل وردَّها خطوة إلىٰ ورائها، سَهُل الأمر، وإنْ توانى حتَّى ولجت، ثمَّ قام بجذبها بذنبها طال تعبه وربما لم يتهيَّأ له.

وكذلك النَّظرة إذا كثرتْ في القلب. فإن عجَّل الحازم بغضِّها وحسم المادة من أولها سَهُلَ علاجه، وإنْ كرَّر النَّظر نقب عن محاسن الصُّورة ونقلها إلىٰ قلب متفرغ فنقشها فيه، فكلَّما تواصلت النَّظرات كانت كالمياه تُسقى بها الشجرة، فلا تزال تنمى فيفسد القلب ويعرض عن الفكر فيما أمر به، ويخرج بصاحبه إلى المحن ويوجب ارتكاب المحظورات ويلقى في التلف. والسبب في هذا الهلاك. أن الناظر أوَّل نظرة التذَّ بها فكرَّرها يطلب الإلتذاذ بالنظر مستهيناً بذلك فأعقبه ما استهان به التَّلف، ولو أنَّه غضَّ عند أوَّل نظرةٍ لَسَلِمَ في باقي عمره[(٢)].

أخي الحبيب:

إنَّ فتنة النَّظر إلىٰ ما حرَّم الله أصل كلِّ فتنةٍ، ومنجم كلِّ شهوةٍ، فالنَّظر

(١) رواه أحمد والحاكم.

(٢) ذم الهوى ص (٨٢).

هو رائد الشَّهوة ورسولها، وحفظه أصل حفظ الفرج، فمن أطلق نظرة أورد نفسه موارد الهلاك، وقد جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ العين مرآة القلب، فإذا غضَّ العبد بصره غضَّ القلب شهوته وإرادته وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته.

لذلك لمَّا أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في سورة النُّور بحفظ الفرج قدَّم الأمر بغض البصر لأنَّه هو بريد الزِّنا وبابه حيث قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

فمن سرح ناظره أتعب خاطره، من كثرتْ نظراته ضاعت أوقاته ودامت حسراته، فيا من يريد السلامة، ويطلب الخلاص، غض من بصرك، وأقصر عن محارم الله طرفك، ولا تقلِّل من شأن النَّظر وتستصغره فإنَّ كلَّ الحوادث مبدؤها من النَّظر، كما أنَّ معظم النَّار مبدؤها من مستصغر الشَّرر، تكون نظرةً، ثمَّ خطرةً، ثمَّ خطوةً، ثمَّ خطيئةً.

أخي المسلم:

إنَّ الذي أجمعت عليه الأمَّة واتفق علىٰ تحريمه علماء السَّلف والخلف من الفقهاء والأئمَّة هو نظر الأجانب من الرِّجال والنِّساء بعضهم إلىٰ بعض، وهم مَنْ ليس بينهم رَحمٌ من النَّسب، ولا محرم من سبب، كالرِّضاع وغيره، فهؤلاءِ حرامٌ نظر بعضهم إلى بعض، وهم كل من حرَّم الشَّرع تزويج بعض منهم ببعض علىٰ التأبيد، فالنَّظر والخَلوة محرم على هؤلاء عند كافَّة المسلمين، لا يباح بدعوى زهد وصلاح، ولا تَوَهُّم عدم

آفة ترفع عنهم الجناح، إلا في أحوال نادرة من ضرورة أو حاجة، فما سوى ذلك محرم: سواء كان عن شهوة، أو عن غيرها، وكذلك لا يجوز النَّظر إلى الأمرد[١] بشهوةٍ وغيرها من غير حاجةٍ، كلُّ ذلك لخوف الفتنة والوقوع في الهلكة.

ففي غضِّ البصر: زكاة وطهارة لقلوب المؤمنين، وحفظ لفروجهم، وقد قدم الله ـ سبحانه ـ الأمر بغضِّ البصر على الأمر بحفظ الفرج، لأنَّ مبدأ المعاصي من النَّظر، وهو بريد الزِّنا، والنَّظرة تفعل في القلب ما يفعل السَّهم في الرَّميَّة، فإنْ لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النَّار تُرمى في الحشيش اليابس، فإنْ لم تحرقه كلَّه، أحرقت بعضه، كما قيل:

كلُّ الحوادثِ مَبْداها مِنَ النَّظَرِ
ومُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُستَصْغَرِ الشَّرَرِ
كم نظْرةٍ فتكتْ في قلبِ صاحبِها
فتك السِّهام بلا قوسٍ ولا وترِ
والمرءُ مادام ذا عينٍ يقلبها
في أعين الغيد موقوفٌ على خطر
يسرُّ مقلته ما ضرَّ مُهجته
لا مرحبًا بسرورٍ عاد بالضرر[٢]

والله ـ سبحانه ـ مطلع على أعمالنا؛ سرِّها وعلانيتها، ألا ترى أنه ـ سبحانه وتعالى ـ عقَّب على الأمر بغضِّ البصر وحفظ الفرج بقوله:

---

(١) الأمرد: الشاب طَرَّ شاربه ولم تنبت لحيته.
(٢) الجواب الكافي: (٢٢٤).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[النور: ٣٠]، وهو ـ سبحانه ـ: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾[1] [غافر: ١٩].

* **عن ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «**إن الله كتب على ابن آدمَ حظَّه من الزِّنا أدركَ ذلك لا محالةَ: فزنا العينِ النَّظرُ، وزنا اللِّسان المنطقُ، والنَّفسُ تَتمنَّى وتشْتَهي، والفرج يُصدِّق ذلك كلَّه ويكذِّبه**» [متفق عليه].

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: محل الشَّاهد منه، قوله ﷺ: **فزنا العين النَّظر**» فإطلاق اسم الزِّنا علىٰ نظر العين إلىٰ ما لا يحلُّ دليل واضح علىٰ تحريمه والتَّحذير منه.

ومعلوم أنَّ النَّظر سبب الزِّنا، فإنَّ منْ أكثر من النَّظر إلىٰ جمال امرأة مثلاً قد يتمكَّن بسببه حبها من قلبه تمكنا يكون سبب هلاكه والعياذ بالله، فالنظر بريد الزِّنا[2].

قال البخاري: قال **سعيد بن أبي الحسن** للحسن: إنَّ نساء العجم يكشفن صدورهنَّ ورؤوسهنَّ، قال: اصرف بصرك عنهنَّ، يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ﴾[النور: ٣٠]

قال قتادة: عمَّا لا يحلُّ لهم.

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾.

يقول **الشنقيطي** في تلك الآيات: وبه تعلم أنَّ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ فيه الوعيد بمن يخون بعينه بالنَّظر إلى ما لا يحلُّ له، وهذا

---

(١) أحكام النظر لابن القيم ص (٩).
(٢) أضواء البيان: (٦/ ٩١).

الذي دلَّت عليه الآيتان من الزَّجر عن النَّظر إلىٰ ما لا يحلُّ جاء موضحًا في أحاديث كثيرة[١].

قال **أطباء القلوب**: بين العين والقلب منفذ وطريق، فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد وصار المزبلة التي هي محلُّ النَّجاسات والقاذورات والأوساخ، فلا يصلح لسكن معرفة الله ومحبَّته، والإنابة إليه والأنس به، والسُّرور بقربه، وإنَّما يسكن فيه أضدادُ ذلك[٢].

وعن **علي بن أبي طالب** ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: إنَّ النَّبي ﷺ أردف الفضل بن عباس خلفه في الحجِّ، فجاءت جارية من خَثْعَم تستفتي رسول الله ﷺ فلوَىٰ النَّبيُّ ﷺ عُنُقَ الفضل لئلا ينظر إليها، فقال له: عمُّه العبَّاس: لمَ لوَيْتَ عنقَ ابن عمِّك يا رسول الله، فقال ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ: **رأيتُ شابًّا وشابَّة، فلمْ آمن الشَّيطان عليهما**»[٣]، يعني: أنَّ يشغل قلب أحدهما بصاحبه إذا نظر إليه.

فانظر كيف فعل بابن عمِّه وهو في حضرته متلبس بأسباب حجِّه، ولم يأمن الطِّباع من الفتنة، والشَّيطان من الوسوسة والمحنة.

وعنه ﷺ أنَّه قال يومًا لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: «**يا عليُّ، إنَّ لك، كَنزًا في الجنَّة، فلا تُتْبِعِ النَّظرةَ النَّظرةَ، فإنَّ لكَ الأولى، وليستْ لك الآخرةُ**»[٤]، يعني: أنَّ النَّظرة الأولى نظرة الفجأة من غير قصدٍ يمنح لك عفو بلا إثم، وليست لك الثَّانية إذا أتبعتها نظرة تمتُّعٍ.

---

(١) أضواء البيان: (٦/ ٩١).

(٢) تزكية النفوس ص (٣٨).

(٣) رواه الترمذي.

(٤) رواه أحمد، وابن حبان. تقدم تخريجه دون قوله: «**إنَّ لك كنزًا في الجنة**» فالله أعلم.

هذا خطابه لعلي ـ رضي الله عنه ـ، مع علمه بكمال زُهده وورعه، وعفَّة باطنه، وصيانة ظاهره، يحذره من النَّظر، ويؤمنه من الخطر، لئلا يدَّعي الأمن كلُّ بطَّال، ويغترَّ بالعصمة والأمن من الفتنة ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩].

وعن جرير بن عبدالله البجلي، قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة، فقال لي: «**اصرف بصرَكَ**»[(١)] يعني: عن النَّظر الثَّاني؛ لأنَّك لا تأمن فيه الشَّهوة والفتنة.

ولاشكَّ أنَّ حفظ البصر أشدُّ من حفظ اللِّسان، فإنَّ العين مبدأ الزِّنا فحفظها مهم، وهو عسر من حيث إنَّه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه والآفات كلُّها منه تنشأ.

والنظرة الأولى إذا لمْ تقصد لا يؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها.

قال **مجاهد**: إذا أقبلت المرأة جلس الشَّيطان على رأسها فزيَّنها لمن ينظر، وإذا أدبرت جلس على عجزها فزيَّنها لمن ينظر[(٢)].

قال **العلاء بن زياد**: لا تتبع بصرك رداء المرأة فإنَّ النَّظر يزرع في القلب شهوة، وقلَّما يخلو الإنسان في ترداده عن وقوع البصر على النِّساء والصبيان. فمهما تخايل إليه الحسن تقاضى الطَّبع المعاودة وعنده ينبغي أنْ يقرِّر في نفسه أنَّ هذه المعاودة عين الجهل، فإنَّه إن حقَّق النَّظر فاستحسن ثارت الشَّهوة وعجز عن الوصول فلا يحصل له إلا التَّحسُّر، وإن استقبح لم يلتذ؛ لأنَّه قصد الالتذاذ فقد فعل ما آلمه، فلا يخلو في كلتا حالتيه عن معصية وعن تألم وعن تحسر، ومهما حفظ العين بهذا

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (١٢/٢٢٧).

الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات، فإن أخطأت عينه وحفظ الفرج مع التَّمكن فذلك يستدعي غاية القوَّة ونهاية التَّوفيق[١].

وفي الصَّحيحين عنه ﷺ: «**لا يحلُّ دم امريء مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثَّيب الزَّاني، والنَّفس بالنَّفس، والتَّارك لدينه المفارق للجماعة**»، وهذا الحديث في اقتران الزِّنا بالكفر وقتل النَّفس نظير الآية التي في الفرقان، ونظير حديث ابن مسعود.

فقد بدأ رسول الله ﷺ بالأكثر وقوعًا، والذي يليه، فالزِّنا أكثر وقوعًا من الرِّدَّة، وأيضًا فإنَّه انتقل من الأكبر إلى ما هو أكبر منه، ومفسدة الزنا مناقضة لصلاح العالم، فإنَّ المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها، ونكست رؤوسهم بين الناس وإن حملت من الزِّنا، فإن قتلت ولدها جمعت بين الزِّنا والقتل، وإن حملته على الزَّوج أدخلت على أهله وأهلها أجنبيًا ليس منهم، فورثهم وليس منهم، ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وليس منهم، إلى غير ذلك من مفاسد زناها، وأما زنا الرجل فإنه يوجب اختلاط الأنساب أيضًا، وإفساد المرأة المصونة، وتعريضها للتَّلف والفساد، وفي هذه الكبيرة خراب الدُّنيا والدِّين، وإن عمرت القبور في البرزخ والنَّار في الآخرة، فكم في الزِّنا من استحلال لحرمات، وفوات حقوق، ووقوع مظالم!.

ومن خاصيته: أنَّه يوجب الفقر، ويقصر العمر، ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس.

ومن خاصيته أيضًا: أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته، ويجلب

---

(١) الإحياء: (٣/ ١١٤).

الهم والحزن والخوف، ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان، فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته، ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها، ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمته قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنَّها زنت.

وقال **سعد بن عبادة** ـ رضي الله عنه ـ: «لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسَّيف غير مُصفح»[1]، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**تعجبون من غيْرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، والله أغير منِّي، ومن غيرة الله حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»[2] [متفق عليه].

أخي الحبيب:

خَـــلِّ الـــذنـــوب صغيـــرهـــا
وكبيـــــرهـــــا ذاك التُّقـــــىٰ
واصنـــــع كمـــــاشٍ فـــــوقَ أر
ض الشَّـــوكِ يحـــذرُ مـــا يَـــرىٰ
لا تحقـــــرنَّ صغيـــــرة
إنَّ الجبـــــال مـــــن الحصـــــىٰ

قال محمد بن عبدالعزيز: جلسنا إلى **أحمد بن رزين** من غدوة إلى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة، فقيل له في ذلك فقال: إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله ـ تعالى ـ، فكلُّ من نظر بغير اعتبار كتبت له خطيئة.

الله أكبر.. أين من يطلق بصره ليل نهار، بل أين هذا الذي يقصد

---

(١) مصفَح: بضم الميم وفتح الفاء، يقال: أصفحه بالسَّيف، أي: ضربه بعرضه دون حده.
(٢) الجواب الكافي: (١٤٧).

الأسواق وغيرها للنظر في ما لا يحل له، بل أين من يبقى ساعات طوال ليشاهد القنوات والمحطات.. الرجل ينظر إلى النساء والمرأة تنظر إلى الرِّجال.. أين غض البصر وحفظه عن تلك المحرمات؟!!.

قال سعيد بن المسيب: ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء.

وقال **سعيد** وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعثو بالأخرى: وما من شيء أخوف عندي من النساء[١].

أخي: اختلت الموازين واختلفت المعايير، وإلا فأين من يطلق بصره من قول **عمرو بن مرَّة**: نظرت إلى امرأة فأعجبتني، فكُفَّ بصري، فأرجو أن يكون ذلك كفَّارة.

وانظر إلى ما يتواصوان به ويحرصون عليه، ونحن أحق به وأولى خاصة في هذا الزمن الذي انتشرت فيه الفتن وعمَّت به المحن!!.

قال وكيع: خرجنا مع **سفيان الثوري** في عيد، فقال: إنَّ أوَّل ما نبدأ به في يومنا غضُّ أبصارنا[٢].

قال **سفيان الثوري**: عليك بالمراقبة لمن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة.

أين أنت ـ أيُّها المسلم ـ من الثواب العظيم إذا صرفت بصرك وأطعت ربك؟ ألا فأبشر بوعد من لا يخلف الوعد..

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

[النازعات: ٤٠، ٤١].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

---

(١) صفة الصفوة: (٢/ ٨٠)، السير: (٤/ ٢٣٧).
(٢) الورع لابن أبي الدنيا: (٦٣).

قال **ابن سيرين**: إني أرى المرأة في المنام فأعرف أنَّها لا تحل لي، فأصرف بصري عنها.

الله أكبر.. في المنام ويصرف بصره؛ لأنه يعلم أنَّها لا تحلُّ له، ومن صرف بصره في النَّار لم يرض بغير ذلك في المنام..

وأما من زلَّتْ به العين فماذا يرى كفارة ذلك.. أهي المعاودة وتكرار النَّظر أم التَّوبة إلى الله.

قال **عمر بن مرَّة**: ما أحبُّ أنِّي بصير أني أذكر أني نظرت نظرة وأنا شاب[١].

وحين خرج **حسَّان بن أبي سنان** يوم العيد، فلمَّا رجع قالت له امرأته: كم من امرأة حسنة قد نظرت اليوم إليها؟ فلمَّا أكثرت عليه، قال: ويحك! مانظرت إلا في إبهامي منذ خرجت حتَّى رجعت إليك[٢].

أيُّها الحبيب:

أعجب الأشياء اغترار الإنسان بالسَّلامة، وتأميله الإصلاح فيما بعد وليس لهذا الأمل منتهى، ولا للاغترار حدٌّ. فكلَّما أصبح وأمسى معافى زاد الاغترار وطال الأمل.

وأي موعظة أبلغ من أنْ ترى ديار الأقران وأحوال الإخوان وقبور المحبوبين فتعلم أنَّك بعد أيَّام مثلهم، ثمَّ لا يقع انتباه ينتبه الغير بك، هذا والله شأن الحمقى[٣].

---

(١) صفة الصفوة: (٣/١٠٦).
(٢) الورع لابن أبي الدنيا ص (٦٤).
(٣) صيد الخاطر: (٤٢٧).

وكنـــتَ متـــى أرسلـــتَ طـــرفـــك رائـــدًا
لقلبـــك يـــومًـــا أتعبتْـــك المنـــاظـــرُ
رأيـــتَ الـــذي لا يـــأكلـــه أنـــت قـــادرٌ عليـــه
ولا عـــن بعضـــه أنـــت صـــابـــرُ

قال **أبو الدرداء**: يا بني لا تتبع بصرك كلَّما ترى في الناس فإنَّه من يتبع بصره كلَّما يرى في الناس يطل تخزنه ولا يشف غيظه ومن لا يعرف نعمة الله إلا في مطعمة أو مشربة فقد قلَّ علمه وحضر عذابه ومن لا يكن غنيًّا من الدنيا فلا دنيا له[1].

أيها الحبيب:

اعلم أن شهوة الفرج والعين هي أغلب الشهوات على الإنسان وأعصاها عند الهيجان على العقل، إلا أنَّ مقتضاها قبيح يستحيا منه ويخشى من اقتحامه، وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها إما لعجز أو لخوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه، وليس في شيء من ذلك ثواب فإنَّه إيثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخر. نعم من المعصية أن لا يقدر ففي هذه العوائق فائدة وهي دفع الإثم، فإن من ترك الزنا اندفع عنه إثمه بأيِّ سبب كان تركه، وإنَّما الفضل والثَّواب الجزيل في تركه خوفًا من الله ـ تعالى ـ مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب.

وزنا العين من كبائر الصغائر وهو يؤدي إلى القرب على الكبيرة الفاحشة وهي زنا الفرج، ومن لم يقدر على غضِّ بصره لم يقدر على حفظ فرجه.

---

(١) الزهد: (١٩٦).

قال **عيسى ـ عليه السلام ـ**: «إيَّاكم والنَّظرة فإنَّها تزرع في القلب شهوةً وكفى بها فتنة».

قال **داود ـ عليه السلام ـ**: «يا بني امش خلف الأسد والأسود ولا تمش خلف المرأة».

وقيل **ليحيىٰ ـ عليه السَّلام ـ**: ما بدء الزِّنا؟ قال: «النَّظر والتَّمنِّي».

وقال **الفضيل**: يقول إبليس: هو قوسي القديمة وسهمي الذي لا أخطيء به يعني النظر[١].

وقال **بعض الحكماء**: كلٌّ يجري من عمره إلى غاية تنتهي إليها مدة أجله وتنطوي عليها صحيفة عمله، فخذ من نفسك لنفسك وقس يومك بأمسك، وكفَّ عن سيئاتك، وزد في حسناتك، قبل أن تستوفي الأجل، وتقصر عن الزيادة في السَّعي والعمل[٢].

هذه نصائح غالية ودرر ثمينة ممن يعرفون عظَم الذنب وقدر من يطلع على السَّرائر فيخافون ربهم ويخشونه.

قال **يحيىٰ بن معاذ**: ألا إن العاقل المصيب من عمل ثلاثًا: ترك الدنيا قبل أن تتركه وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى ربه قبل أن يلقاه[٣].

أيُّها الشاب:

إن إطلاق البصر فيما لا يحل ذنب قد يؤدي بك إلى المهالك وقد ترى أثره في الدنيا قبل الآخرة كما قال **حماد بن زيد ـ** رضي الله عنه ـ: إذا

---

(١) الإحياء: (٣/ ١١٢).
(٢) العاقبة ص (٨٨).
(٣) صفة الصفوة: (٤/ ٩٤).

أذنب العبد بالليل أصبح ومذلته في وجهه[١].

يـــا راقـــدًا الليـــلَ مَسْـــرورًا بـــأوَّلـــه
إن الحـــوادث قـــد يطـــرقـــن أسحـــارَا
أفنـــى القـــرون التـــي كـــانـــت مسلطـــةً
مـــرُّ الجـــديـــديـــن إقبـــالاً وإدبـــارَا
يـــا مـــن يكـــابـــدُ دنيـــا لا مقـــام بهـــا
يُمســـي ويصبـــح فـــي دنيـــاه سيَّـــارَا
كـــم قـــدْ أبـــادتْ صُـــروفُ الـــدَّهـــر مـــنْ
ملـــكٍ قـــدْ كـــان فـــي الأرض نفَّـــاعَـــا

وفضول النظر يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور في قلب الناظر؛ فيحدث **أنواعًا من الفساد** في قلب العبد:

منها: ما ذكره رسول الله ﷺ كما جاء في المسند: «**النظرة سهمٌ من سهام إبليس؛ فمنْ غضَّ بصره لله أورثه حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه**»[٢].

منها: دخول الشيطان مع النَّظرة، فإنَّه ينفذ معها أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي؛ ليُزيِّن صورة المنظور، ويجعلها صنمًا يعكف عليه القلب، ثمَّ يعده ويمنِّيه، ويوقد على القلب نار الشَّهوات ويُلقي حطب المعاصي التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة.

منها: أنَّه يشغل القلب؛ وينسيه مصالحه، ويحول بينه وبينها؛ فيفرط

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) الزهرة الفائح: (٩٥).

عليه أمره، ويقع في اتباع الهوى والغفلة، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[1] [الكهف: ٢٨].

قال **داود الطائي**: كانوا يكرهون فضول النظر[2].

والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان فإنَّ النَّظرة تولد الخطرة، ثمَّ تولد الخطرة فكرة، ثم تولد شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة حازمة فيقع الفعل ولابد ما لم يمنع مانع، وفي هذا قيل الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده.

قيل: إن **حسان بن ثابت** ـ رضي الله عنه ـ خرج يوم عيد، فصلَّى ثم عاد إلى زوجته فقالت له: يا حسان، كم رأيت من وجه مليح؟ فقال: والله ما رفعت طرفي ولا علمت ما كان من الناس ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من نظر إلى ما لا يحل له حرَّم الله عليه النظر إلى وجهه وألقاه في النار**»[3].

وهذه الدنيا مزرعة الآخرة ودار عملٍ وتعب ونصب فإنْ أحسن العبد فيها فهنيئًا له وإنْ قصَّر وفرَّط ندم في يوم تشخص فيه الأبصار.

قال أحمد تنهدت عند **أبي سليمان الداراني** يومًا فقال: إنَّك مسؤول عنها يوم القيامة فإن كانت على ذنب سلف فطوبى لك وإن كانت على فوت دنيا أو شهوة فويل لك[4].

قال **الثوري**: يُسألون والله عن كلِّ شيءٍ حتَّى التبسم فيم تبسمت يوم

---

(١) تزكية النفوس: (٣٧).
(٢) الورع لابن أبي الدنيا: (٦٢).
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٣٣٧).
(٤) المنتخب: (٢٠).

كذا وكذا؟ فذلك قوله: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

أخي الحبيب:

إذا مـا خلـوتَ الـدَّهـر يـومًـا فـلا تقـلْ
خلـوتُ ولكـنْ قـل عليَّ رقيـبُ
ولا تحسبـنَّ الله يغفـلُ سـاعـةً
ولا أنَّ مـا تُخفيـه عنـه يغيـبُ
ألـمْ تـر أن اليـوم أسـرعُ ذاهـبٍ
وأنَّ غـدًا للنَّـاظـريـن قـريـب

قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه العزيز: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ٦١].

قال **علماء التفسير**: كان هذا الإنسان المذكور عابدًا في صومعة له، مشهورًا بالعبادة، ومشهورًا بالزهادة، يستشفي بدعائه المرضى، وإذا عرض بأحد مرضٌ أو جنون حُمل إلى صومعته، ليدعوَ له ليبرأ، فمرضت ابنة بعض كُبراء البلدة ذات جمال، فجاءوا بها ومضوا، فلمَّا خلا بها نظر إليها فأعجبته، فواقعها فعلقتْ (حملت) منه، فجاءه الشيطان الذي أغراه حتى نظر إليها، وأمَّنه الفتنة حتَّى خلا بها، فقال له: اقتلها وادفنها في جانب الصومعة، فإذا جاءوا يطلبونها، تقول: ماتت، فيقبلوا قولك لموضعك عندهم، وإلا أتوا فرأوها حُبْلى منك، فتفضح وربما قتلوك، فقبل منه وقتلها ودفنها، فلمَّا جاء أهلها أخبرهم بموتها، وأنَّه دفنها، فصدَّقوا قوله ومضوا. فمضى الشيطان إلى إخوتها، وأخبرهم بخبر العابد وفعله بأختهم، وقتله لها، وقال: علامة ذلك دفنها في الموضع الفلاني

من صومعته، فجاءوا إلىٰ العابد، ودخلوا الصومعة، ونبشوا الموضع، فوجدوا ابنتهم، فأخذوا العابد ليصلبوه، فلمَّا رُقي به الخشبة ليصلب، أتاه الشيطان، فقال له: أعلمت أني فعلت بك هذا كلَّه وأنا أقدر أن أخلصك مما أنت فيه؟ فقال: افعل، قال بشرط أن تسجد لي سجدة واحدةً، وأخلِّصك، فسجد له، فكفر بهاوصُلب، فولَّى الشيطان عنه يقول: إنِّي بريء منك.

فاغتر أوَّلاً بعبادته واغترَّ آخراً بعدة عدوِّه، فهكذا العبادة بالجهل، يخيل لصاحبها الأمن، وكان سبب هلاك هذا العابد نظرةً أصابه فيها سهم من الشيطان، فلا ينبغي للعاقل أنْ يغتر بالعبادة، وقبول العام، ولا يأمن من فتنة النظر على مر الأيام.

ولعظم الأمر المترتب على النظر وما يقود إليه من فساد وربما الوقوع في فاحشة الزنا فقد حرَّمه الله ـ سبحانه ـ رحمةً بعباده لئلا يقعوا في تلك الجريمة الشنعاء، تلك الجريمة التي خصَّ الله حدَّ فاعلها بخصائص قال **ابن القيم** ـ رحمه الله ـ: خصَّ سبحانه حدَّ الزنا من بين الحدود **بثلاث خصائص**:

أحدها: القتل فيه بأشنع القتلات، وحيث خفَّفه جمع فيه بين العقوبة على البدن بالجَلْدِ وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة..

الثاني: أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه، بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم، فإنَّه ـ سبحانه ـ من رأفته ورحمته بهم شرع هذه العقوبة فهو أرحم بهم، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره.

وهذا ـ وإن كان عامًّا في سائر الحدود ـ ولكن ذكر في حد الزنا خاصة

لشدة الحاجة إلى ذكره، فإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني مايجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر، فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم، والواقع شاهد بذلك، فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله.

* **وسبب هذه الرحمة**: أنَّ هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل، وفي النفوس أقوى الدواعي إليه، والمشارك فيه كثير، وأكثر أسبابه العشق والقلوب مجبولة على رحمة العاشق، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة، وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليه.

وأيضًا فإن هذا ذنب غالبًا ما يقع مع التراضي من الجانبين، ولا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه، وفي النفوس شهوة غالبة له فيصور ذلك لها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحدِّ، وهذا كله من ضعف الإيمان، وكمال الإيمان أنْ تقوم به قوة يقيم بها أمر الله ورحمة يرحم بها المحدود، فيكون موافقًا لربِّه ـ تعالى ـ في أمره ورحمته.

الثالث: أنه ـ سبحانه ـ أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين، فلا يكون في خلوة بحيث لا يراهما أحد، وذلك أبلغ في مصلحة الحدِّ وحكمة الزجر[1].

وأعقلُ النَّاسِ مَنْ لَمْ يرتكب سبباً
حتَّى يفكِّر ما تجني عواقبه

كان **وهيب بن الورد** يقول: خف الله على قدر قدرته عليك، واستح منه على قدر قربه منك.

---

(١) الجواب الكافي ص (١٧٦).

وقال له رجل: عظني، فقال له: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك.

أيُّها المسلم:

تخشى رجال الحسبة والأمن بل وعامة الناس، ولا تخشى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو مطلع على خلوتك وسريرتك. لا يبلغ بك الجهل أن يكون الله أهون الناظرين إليك.

أخي الحبيب:

هاك جواب لمن يبرر النظرة الثانية وأنَّها تطفيء لهب النظرة الأولى..

سُئل ابن قيم الجوزية:

ما تقول السادة العلماء في رجل نظر إلى امرأة نظرة فعلق حبها بقلبه واشتد عليه الأمر، فقالت له نفسه: هذا كله من أول نظرة فلو أعدت النظر إليها لرأيتها دون ما في نفسك فسلوت عنها، فهل يجوز له تعمد النظر ثانيًا لهذا المعنى؟

فكان الجواب: الحمد لله، لا يجوز هذا لعشرة أوجه:

أحدها: أنَّ الله ـ سبحانه ـ أمر بغض البصر ولم يجعل شفاء القلب فيما حرمه على العبد.

الثاني: أنَّ النبي ﷺ سُئل عن نظرة الفجأة، وقد علم أنَّه يؤثر في القلب فأمر بمداواته بصرف البصر لا بتكرار النظر.

الثالث: أنَّه صرح بأن الأولى له وليست له الثانية، ومحال أن يكون داؤه مما له ودواؤه فيما ليس له.

الرابع: أن الظاهر قوة الأمر بالنظرة الثانية لا تناقصه، والتجربة شاهدة والظاهر أن الأمر كما رآه أول مرة فلا تحسُنُ المخاطرة بالإعادة.

الخامس: أنَّه ربما رأى ما هو فوق الذي في نفسه فزاد عذابه.

السادس: أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية يقوم في ركائبه فيزين له ما ليس بحسن لتتم البليَّة.

السابع: أنَّه لا يُعان على بليته إذا أعرض عن امتثال أوامر الشرع وتداوى بما حرَّمه عليه، بل هو جدير أن تتخلف عنه المعونة.

الثَّامن: أن النظرة الأولى سهم مسموم من سهام إبليس، ومعلوم أن الثانية أشدُّ سُمًّا فكيف يتداوى من السم بالسم.

التاسع: أن صاحب هذا المقام في مقام معاملة الحق ـ عزَّ وجلَّ ـ في ترك محبوب كما زعم، وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبين حال المنظور إليه، فإن لم يكن مرضيًّا تركه، فإذًا يكون تركه، لأنَّه لا يلائم غرضه لا لله ـ تعالى ـ، فأين معاملة الله ـ سبحانه ـ بترك المحبوب لأجله؟.

العاشر: يتبين بضرب مثل مطابق للحال، وهو: أنك إذا ركبت فرسًا جديدًا فمالت بك إلى درب ضيق لا ينفذ ولا يمكنها أن تستدير فيه للخروج، فإذا همَّت بالدخول فيه فاكبحها لئلا تدخل، فإذا دخلت خطوة أو خطوتين فصح بها وردها إلى وراء عاجلاً قبل أن يتمكن دخولها، فإن رددتها إلى ورائها سهُل الأمر، وإن توانيت حتى ولجت وسقتها داخلاً ثم قمت تجذبها بذنبها عسُر عليك أو تعذر خروجها، فهل يقول عاقل: إن طريق تخليصها سَوْقُها إلى داخل؟ فكذلك النظرة إذا أثَّرت في القلب، فإن عجَّل الحازم وحسم المادة من أولها سهُل علاجه، وإن كرَّر النظر ونقب عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلب فارغ فنقشها فيه تمكنت المحبة، وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة فلا تزال شجرة الحب تنمو!! حتى يفسد القلب ويعرض عن الفكر فيما أمر به فيخرج بصاحبه إلى المحن ويوجب ارتكاب المحظورات والفتن ويلقى القلب في التلف.

والسبب في هذا أن الناظر التذَّت عينه بأول نظرة فطلبت المعاودة، كأكل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمة، ولو أنه غض أوَّلاً لاستراح قلبه وسَلِمَ، وتأمل قول النبي ﷺ: «**النظرة سهم من سهام إبليس**»، فإن السهم شأنه أن يسري في القلب فيعمل فيه عمل السم الذي يسقاه المسموم، فإن بادر واستفرغه وإلا قتله ولابد.

قال المروذي: قلت **لأحمد**: الرجل ينظر إلى المملوكة. قال: أخافُ عليه الفتنة. كم نظرة قد ألقت في قلب صاحبها البلاء[١].

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: وقد أمر الله في كتابه بغضِّ البصر، وهو نوعان: غض البصر عن العورة، وغضها عن محل الشهوة، والثاني: أشد من الأول.

وأمَّا ما يجوز من النَّظر إلى الأجنبية لحاجة ما، ففي **حالات**:

* **منها**: إذا أراد الرجل التزويج بامرأة، فإنَّه يجوز له أن ينظر إلىٰ وجهها وكفيها وما يدعو إلى نكاحها، لما روى جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: **إذا خطب أحدُكم المرأة، فاستطاع أن ينظر إلى ما يدعوهُ إلى نكاحها، فليفعلْ**»[٢].

يعني: الوجه والكفين وهي مستترة، ولا يباح له النظر إلى جسمها، ولا شيء من عورتها بحال.

* **الحالة الأخرى**: إذا أردت شراء جارية، فيجوز أن تنظر إلى ما دون السُّرة والرُّكبة ومواضع التقليب لأجل الشراء لا متمتعًا بالنظر عبثًا، فإنْ

---

(١) أحكام النظر ص (١٠).

(٢) رواه أحمد، وأبو داود.

قصد التمتع بالنظر، وأظهر إرادة الشراء، كان عاصيًا لمولاه، كاذبًا في دعواه، كمن يظهر أخوة النسوان بناموس الزهد، وقصده التمتع بمعاشرتهن، فهو ملعون ممقوت عند الله، مارق عن شريعة رسول الله ﷺ.

* **الحالة الأخرى**: في المعاملة المفتقرة إلى الشهادة عليها، والتعريف لها، للرجوع بالعهدة، إلى غير ذلك مما تدعو إليه ضرورة المعاملة، فينظر الشاهد إلى وجهها، لتحقيق الشهادة، لا ليتمتع بالمشاهدة، فإنْ قصد هذا، فسق وعصى، وإن كان الأولى صيانتهنَّ عن المعاملات المفضية إلى هذا النَّوع من تبذلهنَّ، والتَّعرض لفتنتهنَّ، والافتتان بسببهنَّ.

ويجب على من نظر للحاجات المذكورة أن يتحفظ بقصر نظره على محل الضرورة، ولا يتعدى إلى التمتع فيقع في الخطر والتحريم والفتنة.

* **والحالة الأخرى**: يجوز للطبيب أن ينظر من المرأة إلى المحل الذي تدعو الضرورة إلى نظر إليه لمداواة العلَّة.

كما أبيح النظر إلى العورة لوجوب الختان ضرورةً.

ورُبما تسامح بعض الجهال من العوام في نظر الأخ إلى زوجة أخيه، والمرأة تنظر إلى زوج أختها، لا سيَّما إن اجتمعوا في منزل واحدٍ، وربما خلا كل واحد من الأخوين بزوجة الآخر في غيبته، وكلُّ ذلك محرَّم ممنوع شرعًا، لا يسيغه مذهب.

وقد روى عقبةُ بن عامر أن النبي ﷺ قال: «**إيَّاكم والدخول على النساء**»، فقال رجلٌ من الأنصار: أريت الحَمُو؟ فقال ـ عليه السلام ـ: «**الحمو الموت**»[1].

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.

وروي فيه أنَّه قال: «**الحمو القبر**».

قال العلماء: أراد بالحمو هاهنا أخا الزوج.

فانظر كيف كان بالغ في الزجر عن التسامح في نظر أخي الزوج إلى امرأة أخيه، حتَّى آثر الموت في القبر عليه ومن سد الأبواب التي تؤدي إلى النظر وما وراءه أنَّه لا يجوز الدخول على من غاب عنها زوجها، وإن كان قد وكَّله بأمرها أو نفقتها، فضلاً عمن هو أجنبي منه ومنها[١].

قال **ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ: لم يكفر من كفر ممن مضى إلا من قبل النساء، وكُفر من بقي من قبل النساء[٢].

والإسلام عندما حرَّم النظر إلى ما لا يحل فإنه أيضًا سد جميع الوسائل التي تفضي إلى تحريك الشهوة والوقوع في الحرام حتى ولو كان بالوصف أو بالتشبيه؛ لأن الأذن تعشق قبل العين أحيانًا.

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ «**لا تنعتِ المرأة المرأةَ لزوجها كأنَّه ينظر إليها**»[٣].

فانظر ـ رحمك الله ـ كيف نهى عن وصف المرأة المرأةَ لزوجها صفة امرأة أجنبية؛ لئلا تسمو همته إليها؛ لأن الوصف يقوم مقام النظر، كلُّ ذلك احتياطٌ وزجرٌ عن النَّظر وما يُدانيه.

وقد روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللمم ممَّا روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ**

---

(١) أحكام النظر: (٣٨).

(٢) أحكام النظر: (١٥).

(٣) رواه البخاري بلفظ: «**لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنَّه ينظر إليها**» فتح الباري: (٩/٣٣٨).

كتب على ابن آدم حظَّه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين بالنظر، وزنا اللسان النطق، وزنا اليدين اللمس، والنفس تتمنَّى وتشتهي، والفرج يصدِّق ذلك كلَّه أو يُكذِّبه»[1].

فسمَّى النظر إلى غير المحارم، والحديث معهن ولمسهن أجزاءً من الزنا الحقيقي، الذي يصدق إلى تحقيقه الفرج، ويصدقه في وجوب الحد في الدنيا، واستحقاق النار في الأخرى.

وفي الحديث الآخر عن المصطفى ﷺ أنه قال: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس**».

معناه: أنَّ النَّظر من الرَّجل إلى المرأة، أو المرأة إلى الرَّجل سهم يرمي به العدو إلى النَّفس والقلب، فقد يهلكها دنيا وأخرى، كالسَّهم المسموم؛ لأنَّه يجرح الظَّاهر بحدِّه، ويفسد الباطن بسمِّه.

وأما الخطوات: فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه، فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالقعود عنها خير له، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة ينوبها لله، فتقع خطاه قربة.

ولما كانت **العثرة عثرتين**: عثرة الرجل، وعثرة اللسان جاءت إحداهما قرينة الأخرى في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣].

فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم، كما جمع بين اللحظات والخطوات في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾[2] [غافر: ١٩].

---

(١) رواه البخاري، دون قوله: وزنى اليدين اللمس».

(٢) الجواب الكافي ص (١٧٤).

كتب ابن السمَّاك الواعظ إلى أخ له:

أمَّا بعد: أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيك في سريرتك ورقيبك في علانيتك، فاجعل الله من بالك على كلِّ حال في ليلك ونهارك، وخف الله بقدر قربه منك وقدرته عليك، واعلم أنَّك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ولا من ملكه إلى ملك غيره، فليعظُم منه حذرُك وليكثُر منه وَجَلُك والسَّلام[١].

أيُّها الشاب:

دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة، فدافع الفكرة، فإن لم تفعل صارت شهوة. فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلاً، فإن لم تتداركه بضده صار عادة فيصعب عليك الانتقال عنها[٢].

ولا تنس أنَّ كلَّ ذلك في صحائفك التي ستنشر لك وتراها يوم القيامة إن خيرًا فخيرًا وإنْ شرًّا فشرًّا.

نمـــوت ونبلـــى غيـــر أن ذنـــوبنـــا
إذا نحـــن متنـــا لا تمـــوت ولا تبلـــى[٣]

التقوى ثلاث مراتب:

إحداها: حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات.

الثانية: حميتها عن المكروهات.

---

(١) جامع العلوم والحكم ص (١٦١).
(٢) الفوائد ص (٤٦).
(٣) البداية والنهاية: (١٠/ ٢٦٣).

الثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني.

فالأولى: تعطي العبد حياته، والثانية: تفيده صحته وقوته، والثالثة: تكسبه سروره وفرحه وبهجته[١].

واعلم أن باب الخير مفتوح وكذلك باب الشر، فجاهد نفسك وخذها بقوة تستقم أمورك ويصلح حالك وتفوز في العاجلة والآجلة.

من خلقه الله للجنَّة لم تزل هداياها تأتيه من المكاره، ومن خلقه للنَّار لم تزل هداياها تأتيه من الشهوات[٢].

عليك ـ أيُّها الشاب ـ بنصيحة اجتهد في تطبيقها وسترى أنَّها ستثمر في قلبك حلاوةً وخيرًا.

عن أبي روح عن أنس قال: إذا مرَّتْ بك امرأة فغمِّض عينيك حتَّى تجاوزك[٣].

وماذا يضرك لو أغمضت عينيك وصرفت بصرك طاعةً لله ولرسوله؟! إنَّها أسهل من النظرة الثانية وما بعدها ثم الحساب والجزاء!!؟

وفي غض البصر عدَّةُ فوائد:

أحدها: تخليص القلب من ألم الحسرة، فإنَّ من أطلق نظره، دامت حسرته، فأضرُّ شيء على القلب إرسال البصر، فإنَّه يريه ما يشتد طلبه، ولا صبر له عنه، ولا وصول له إليه.

الفائدة الثانية: أنَّه يُورثُ القلبَ نورًا وإشراقًا يظهر في العين وفي

---

(١) الفوائد ص (٤٦).
(٢) المرجع السابق.
(٣) الورع لابن أبي الدنيا ص (٦٦).

الوجه وفي الجوارح، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمة تظهر في وجهه وجوارحه.

الفائدة الثالثة: أنَّه يورث صحة الفراسة؛ فإنها من النور وثمراته، وإذا استنار القلب، صحت الفراسة.

الفائدة الرابعة: أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه، ويسهل عليه أسبابه؛ وذلك بسبب نور القلب.

الفائدة الخامسة: أنَّه يورث قوَّة القلب وثباته وشجاعته، فيجعل له سلطان البصيرة مع سلطان الـحُجَّة.

الفائدة السَّادسة: أنَّه يورث القلب سرورًا وفرحةً وانشراحًا أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر، وذلك لقهره عدوه بمخالفته، وحبس شهوته لله، وفيها مسرةُ نفسه الأمارة بالسوء، أعاضه الله ـ سبحانه ـ مسرَّةً ولذةً أكمل منها.

الفائدة السَّابعة: أنَّه يخلِّص القلب من أسر الشهوة، فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه.

الفائدة الثَّامنة: أنَّه يسدُّ عنه بابًا من أبواب جهنَّم، فإن النظر باب الشهوة الحاملة على مواقعة الفعل، وتحريم الرب ـ تعالى ـ وشرعه حجابٌ مانع من الوصول، فمتى هتك الحجاب، ضري على المحظور، ولم تقف نفسه منه عند غاية، فإن النفس في هذا الباب لا تقنع بغاية تقف عندها، وذلك أن لذتها في الشيء الجديد.

الفائدة التَّاسعة: أنه يقوي عقله، ويزيده ويثبته فإن إطلاق البصر وإرساله لا يحصل إلا من خفَّة العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب،

فإن خاصة العقل ملاحظة العواقب، ومُرسلُ النظر لو علمَ ما تجني عواقبُ نظره عليه، لما أطلق بصره.

الفائدة العاشرة: أنه يخلِّص القلب من سكر الشهوة ورقدة الغفلة، فإن إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة ويوقع في سكرة العشق.

فالنظرة كأسٌ من خمر، والعشق هو سكر ذلك الشراب، وسكر العشق أعظم من سكر الخمر، فإنَّ سكران الخمر يفيق، وسكران العشق قلَّما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات.

وفوائد غضِّ البصر وآفات إرساله أضعافُ ما ذكرنا، وإنَّما نبَّهنا عليه تنبيهًا[١].

أيُّها الشاب:

إن ممَّا يعين على غضِّ البصر المسارعة إلى الزواج قال ﷺ: حاثًّا على ذلك: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوَّج فإنَّه أغضُّ للبصر وأحفظ للفرج**»[٢].

وقال **عمر** ـ رضي الله عنه ـ: لا يمنع من النكاح إلا عجز أو فجور[٣].

وكان **ابن مسعود** ـ رضي الله عنه ـ يقول: لو لم يبق من عمري إلا عشرة أيَّام لأحببت أن أتزوج لكيلا ألقى الله عزبًا[٤].

واختار **أحمد بن حنبل** عوراء على أختها وكانت أختها جميلةً فسأل

---

(١) أحكام النظر: (١٧).
(٢) رواه البخاري، ومسلم.
(٣) الإحياء: (٢/ ٢٦).
(٤) المصدر السابق.

من أعقلهما؟ فقيل: العوراء، فقال: زوِّجوني إيَّاها[١].

وتأمل في نظرتهم العلوية في اختيار الزوجة وأن هذه الدار دار عمل وجد.. إنَّها أنفسٌ سمت عن هذه الدنيا وفتنتها وتطلعت إلى جنَّة عرضها السمٰوات والأرض.

قال **شميط بن عجلان**: رحم الله رجلاً تبلَّغ بامرأة وإنْ كانت نصفًا، وكان في وجهها رداءة، أنْ كان موقنًا بنساء أهل الجنة[٢].

قال **ابن طاوس**: قلت لأبي: أريد أن أتزوج فلانة، قال: اذهب فانظر إليها، قال: فذهبت فلبست من صالح ثيابي وغسلت رأسي وادَّهنت، فلمَّا رآني في تلك الهيئة قال اقعد لا تذهب.

وما ذاك إلا لأنَّه تجاوز الحدَّ الذي يخشى والده عليه وعليها أيضًا.

كان **مالك بن دينار** ـ رحمه الله ـ يترك أحدكم أن يتزوج يتيمة فيؤجر فيها أن أطعمها وكساها تكون خفيفة المؤنة ترضى باليسير، ويتزوج بنت فلان وفلان يعني أبناء الدنيا، فتشتهي عليه الشَّهوات وتقول أكسني كذا وكذا[٣].

تلك هي نظرتهم للزواج الإسلامي أنَّه مودة ورحمة وسكن وراحة وهو قبل ذلك من أنواع العبادة التي يحبُّها الله ورسوله، فيها إعفاف مسلمة وحسن معاشرة، وإنفاق وصدقة وصلة رحم وذرية يعبدون الله ويوحدونه ويجاهدون لإعلاء دينه.. وفيها ما شاء الله من الخير والأجر.

قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

---

(١) الإحياء: (٢/ ٤٤).
(٢) حلية الأولياء: (٣/ ١٣١).
(٣) الإحياء: (٢/ ٤٤).

لكـــل أبـــي بنـــت يـــراعـــي شُـــؤونهـــا
ثـــلاثـــة أصهـــار إذا حُمـــد الصِّهـــر
فبعـــل يـــراعيهـــا وخـــدر يُكفهـــا
وقبـــرٌ يـــواريهـــا وأفضلهـــا القبـــر[١]

روي عن **أسماء بنت أبي بكر الصديق** ـ رضي الله عنهما ـ أنَّها قالت: تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه وناضحه، فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه وأدق النَّوى لناضحه وأعلفه واستقي الماء وأخرز غربه وأعجن وكنت أنقل النَّوى على رأسي من ثلثي فرسخ حتى أرسل إلى أبو بكر بجارية فكفتني سياسة الفرس فكأنَّما أعتقني[٢].

وقال **أبو هاشم الزَّاهد**: أخذُ المرءِ نفسه بحسن الأدب تأديب أهله[٣].

فإن مَنْ حسَّنَ خُلُقه وجمَّل أفعاله رأى ذلك في تصرفاته وأفعال أهله، وهل هو إلا صورة لمنزله ينعكس ضوءه فينير دروب الزوجة والأبناء؟!

وفي حسن العشرة وكمال الخلق تسير مركبة الأسرة في بحور من نور كل منهم يشد الآخر ويدله على طريق الآخرة.. يتجاوز عن زلله ويصفح عن خطئه.

قال **عمرو بن العاص**: لا أمل ثوبي ما وسعني، ولا أمل زوجتي ما

---

(١) أدب الدنيا والدين: (١٦٢).
(٢) القصة رواها البخاري فتح الباري: (٩/ ٣١٩).
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ٣٠٦).

أحسنت عشرتي ولا أملُّ دابتي ما حملتني، إن الملال من سيء الأخلاق[١].

وهذه صورة مشرقة من صور صدر الإسلام. . تُعيدك قرونًا لترى حال الآباء والأجداد ممن صنعوا مجد هذه الأمة بإيمانهم وأعمالهم.

عن مالك بن دينار قال: لما أتى عمر ـ رضي الله عنه ـ الشام طاف بكورها (مدنها) قال: فنزل بحضرة حمص، فأمر أن يكتبوا لهم فقراءهم، قال: فرفع إليه الكتاب فإذا فيه **سعيد بن عامر بن حزيم** أميرها، فقال من سيعد بن عامر؟ قالوا: أميرنا، قال: أميركم؟ قالوا: نعم، فعجب عمر ثم قال: كيف يكون أميركم فقيرًا، أين عطاؤه، أين رزقه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين لا يمسك شيئًا.

قال: فبكى عمر، ثم عمد إلى ألف دينارٍ فصرَّها، ثمَّ بعث بها إليه وقال: اقرئوا منِّي السَّلام وقولوا بعث بهذه إليك أمير المؤمنين تستعين بها على حاجتك، قال فجاء بها إليه الرَّسول، فنظر فإذا هي دنانير.

قال: فجعل يسترجع، قال: تقول له امرأته: ما شأنك أمات أمير المؤمنين؟ قال: بل أعظم من ذلك، قالت: فما شأنك؟ قال: الدنيا أتتني، الفتنة دخلت عليَّ، قالت: فاصنع فيها ما شئت، قال: عندك عون؟ قالت: نعم.

قال: فأخذ دريعة (قميص المرأة) فصرَّ الدنانير فيها مرارًا ثمَّ جعلها في مخلاة ثمَّ اعترض جيشًا من جيوش المسلمين فأمضاها كلها، فقالت له امرأته: ـ رحمك الله ـ لو كنتَ حبست منها شيئًا نستعين به، قال: فقال لها: إنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لو اطلعت امرأة من نساء أهل**

---

(١) السير: (٣/ ٥٧).

الجنَّة إلى أهل الأرض لملأت بريح مسك»[١] وإنِّي والله، ما كنت لأختارك عليهن، فسكتت.

خـــذي العفـــو منِّـــي تستـــديمـــي مـــودَّتـــي
ولا تنطقـــي فـــي ســـورتـــي حيـــن أغضـــب
ولا تنقـــرينـــي نقـــرك الـــدُّفَّ مـــرة
فـــإنَّـــك لا تـــدريـــن كيـــف المغيَّـــب
ولا تكثـــري الشكـــوى فتـــذهـــب بـــالهـــوى
ويـــأبـــاكِ قلبـــي والقلـــوبُ تقلَّـــبُ
فـــإنِّـــي رأيـــتُ الحـــبَّ فـــي القلـــب والأذى
إذا اجتمعـــا لـــم يلبـــثِ الحـــبُّ يـــذهـــبُ[٢]

أيُّها الحبيب:

تعدد الزوجات أمر مندوب إليه لمن استطاع العدل فكيف حالهم ـ رحمهم الله ـ في هذا العدل وكيف حفظوه وقاموا به. هذه صورة من ذلك العدل وتلك الصور المشرقة في حياتهم. كما يفعل البعض من الظلم وقهر إحدى الزوجين على حساب الأخرى.

كانت تحت معاذ بن جبل امرأتان، فإذا كان عند أحدهما لم يشرب من بيت الأخرى الماء[٣]*.

---

(١) رواه البزَّار من حديث سعيد بن عامر وأخرجه البخاري من حديث أنس بلفظ: «لو أنَّ امرأة من نساء أهل الجنَّة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحًا» أي: طيبة. قاله الحافظ ابن حجر فتح الباري: (١١/٤١٨، ٤٤٢).

(٢) مكاشفة القلوب: (٣٩٨).

(٣) حلية الأولياء: (١/٢٤٣).

* وأعرف من يفعل مثل ذلك الآن.

وعندما وقع طاعون (عَمْواس)[١] توفيت زوجتاه في يوم واحد، وكان الناس في شغل عن حفر قبر لكل إنسان لكثرة الموتى بسبب هذا الوباء، فدفنهما ـ رضي الله عنه ـ في قبر واحد، ولكنَّه من شدَّة عدله أسهم بين زوجتيه في أيتهما تُقدَّم في اللَّحد أولاً.

أمَّا احتمال أذى الزَّوجة والصَّبر عليها وعلى سوء خلقها فإنَّه من صلاح الحال والصَّبر على العيال.. فقد راجعت امرأة عمر ـ رضي الله عنه ـ في الكلام، فقال: أتراجعيني يا لكعاء؟ فقالت: إنَّ أزواج رسول الله ﷺ يراجعنه وهو خيرٌ منك[٢].

واعلم ـ **أيها الحبيب** ـ أنَّه ليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها، والحلم عند طيشها وغضبها اقتداء برسول الله ﷺ فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام وتهجره الواحدة منهنَّ يومًا إلى الليل[٣].

وعند نهاية العشرة الزوجية فإنَّه يبقى للمؤمنة حقَّها في الحفظ والصون ويبقى الفضل مذكورًا والخير منشورًا. أولئك الرِّجال الذين غشى قلوبهم الإيمان وزينهم بتعاليمه وأفاض عليهم من آدابه امتثالاً لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

يُروى عن **بعض الصالحين** أنَّه أراد طلاق امرأته فقيل له: ما الذي يريبك فيها؟ فقال: العاقل لا يهتك ستر امرأته، فلمَّا طلَّقها قيل له: لم طلقتها؟ فقال: مالي ولامرأة غيري؟[٤].

---

(١) كان بالشام في زمن عمر ـ رضي الله عنه ـ مات فيه خمسة وعشرون ألفًا.
(٢) رواه البخاري.
(٣) مكاشفة القلوب: (٣٩٣).
(٤) الإحياء: (٢/ ٦٤).

سبحان الله ما أعظم إيمانهم؟! وما أصدق سرائرهم؟! وما أحفظ ألسنتهم؟! لو لحظت الأمر اليوم كيف حال النساء وسوء عشرتهن وإيذائهن وظلمهن قبل الطلاق وبعده؟. لرأيت اختلال الموازين ونقص المكاييل.

أخي الحبيب:

رأيت المعافى لا يعرف قدر العافية إلا في المرض، كما لا يعرف شكر الإطلاق إلا في الحبس.

وتأملت على الآدمي حالة عجيبة، وهو أن تكون معه امرأة لا بأس بها إلا أن قلبه لا يتعلق بمحبتها تعلقًا يلتذُّ به.

ولذلك **سببان**:

أحدهما: أنْ تكون غير غاية في الحسن.

والثَّاني: أنَّ كلَّ مملوك مكروه، والنفس تطلب ما لاتقدر عليه.

فتراه يضج ويشتهي شيئًا يحبُّه أو امرأة يعشقها، ولا يدري أنَّه إنَّما يطلب قيدًا وثيقًا يمنع القلب من التَّصرُّف في أمور الآخرة أو في أي علم أو عمل، ويخبطه في تصريف الدنيا، فيبقى ذلك العاشق أسير المعشوق، همُّه كلُّه معه.

فالعجب لمطلق يؤثر القيد، ومستريح يؤثر التَّعب.

فإنْ كانت تلك المرأة تحتاج أن تحفظ فالويل له لا قرار له ولا سكون، وإن كانت من المتبرجات اللواتي لا يؤمنُ فسادهن فذاك هلاكه بمرة.

فلا هو إن نام يلتذَّ بنومه، ولا إن خرج من الدار يأمن محلَّه. وإن كانت تريد نفقة واسعة وليس له، فكم يدخل مدخل سوء لأجلها؟ وإن كانت تؤثر الجماع وقد عَلَتْ سنه فذاك الهلاك العظيم! وإن كانت تبغضه فما بقيت من أسباب تلفه بقية، فيكون هذا ساعيًا في تلف نفسه.

وهذا على الحقيقة كعابد صنم.

فليتق الله من عنده امرأة لا بأس بها، وليعرض عن حديث النفس ومُنَاها فما له منتهى.

ولو حصل له غرضه كما يريد وقع الملل وطلب ثالثة، ثمَّ يقع الملل ويطلب رابعة، وما لهذا آخر. إنَّما يفيده ذلك في العاجلة تعلق قلبه وأسر لُبُّه، فيبقى كالمبهوت.

فكرُه كله في تحصيل ما يريد محبوبه، فإنَّ جرت فرقة أو آفة فتلك الحسرات الدائمة إن بقي أو التلف عاجلاً.

وأين المستحسن المصون الدين القنوع بمن يحبه هذا أقل من الكبريت الأحمر.

فلينظر في تحصيل ما يجمع معظم الهمِّ. ولا يلتفت إلى سواد الهوى وغاية المنى، يسلم[1].

شكا رجلٌ من بغضه لزوجته **لابن الجوزي** فقال: ما أقدر على فراقها لأمور، منها كثرة دينها عليَّ وصبري قليل، ولا أكاد أسلم من فلتات لساني في الشكوى، وفي كلمات تعلم بغضي لها.

فقال له **ابن الجوزي**: هذا لا ينفع وإنما تؤتى البيوت من أبوابها! فينبغي أن تخلو بنفسك فتعلم أنَّها إنما سُلطت عليك بذنوبك فتبالغ في الاعتذار والتوبة.

فأما التضجر والأذى لها فما ينفع كما قال الحسن عن الحجاج: عقوبة من الله لكم فلا تقابلوا عقوبته بالسيف قابلوها بالاستغفار.

---

(١) صيد الخاطر: (٤٩٨).

واعلم أنَّك في مقام مبتلى ولك أجر بالصبر: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فعامل الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالصبر على ما قضى واسأله الفرج. فإذا جمعت بين الاستغفار وبين التوبة من الذنوب والصبر على القضاء وسؤال الفرج، حصَّلتَ ثلاثة فنون من العبادة تثاب على كل منها. ولا تضيع الزمان بشيء لا ينفع، ولا تحتل ظانًا منك أنك تدفع ما قُدِّر: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾[١] [الأنعام: ١٧].

قال **داود الطائي**: ما أخرج الله عبدًا من ذلِّ المعاصي إلى عز التقوى إلا أغناه بلا مال، وأعزَّه بلا عشيرة، وآنسه بلا بَشَر[٢].

عليك أخي المسلم: بترك المعاصي في السرِّ. وإلى هذا المعنى الإشارة في القرآن بقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١].

كان **بعض السلف** يقول لأصحابه: زهَّدَنا الله وإياكم في الحرام زُهد من قدر عليه في الخلوة فعلم أن الله يراه فتركه من خشيته أو كما قال.

وقال **الشافعي**: أعز الأشياء ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى أو يخاف[٣].

ذُكر أن أعرابيًا قال: خرجت في بعض الليالي الظلم فإذا أنا بجارية كأنَّها علم فأردتها عن نفسها فقالت: ويلك أما كان لك زاجرًا من عقل إذا لم يكن ناه من دين؟ فقلت: إنَّه ـ والله ـ ما يرانا إلا الكواكب، قالت: فأين مكوكبها[٤].

---

(١) المرجع السابق.
(٢) صيد الخاطر: (٥١٣).
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ١٣٢).
(٤) روضة المحبين: (٣٩٥).

واتَّـــــــق الله فتقـــــــوى الله مـــــــا
اورثْ قلْـــــــبَ امـــــــريء إلا وصـــــــل

وهناك الآن من يحاول إفساء المرأة بالنظر والمهاتفة. . أو عن طريق نشر الفساد بين نساء المسلمين. . رحم الله من كانوا قبلنا. . كانوا يسعون لإعفاف المسلمة وسد جميع طرق الفساد حتى لا ترى إلا طريق الحق فتنقاد له وتعرض عن الشر وتبتعد عنه. . إنهم أهل إيمان وأصحاب قلوب حية يرون أن كل مسلمة لهم أخت وعليهم واجب إعفافها وسترها.

جاءت امرأة عليها ثوب قد نفض من الصبغ فسألت **حسان بن أبي سنان**، فقال لشريكه هكذا وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى، فذهب شريكه يزن درهمين قال: زن لها مائتين، فقالوا: يا أبا عبدالله، كنت تُرضي بذا، كذا وكذا من سائل، فقال: إنِّي ذهبت في شيء لم تذهبوا فيه، إني رأيت بها بقية من الشباب، وخشيت أن تحملها الحاجة على بعض ما يكره[1].

أنعم به من مال يصون به عرض أخته المسلمة التي يرى فيها حاجة ويخشى عليها من الانحراف. . كم من مسلم يقوم بهذا العمل اليوم؟!

كان بعض السلف يقول: أتراك ترحم من لم يقر عينيه بمعصيتك حتى علم أن لا عين تراه غيرك؟.

وقال **بعضهم**: ابن آدم إن كنت حيث ركبت المعصية لم تصف لك من عين ناظرة إليك، فلمَّا خلوت بالله وحده صفتْ لك معصيتُك ولم تستح منه حياءك من بعض خلقه، ما أنت إلا **أحد رجلين**: إن كنت ظننت أنه لا

---

(١) حلية الأولياء: (٣/١١٦).

يراك فقد كفرتَ، وإن كنتَ علمت أنَّه يراك فلم يمنعك منه ما منعك من أضعف خلقه لقد اجترأت[١].

قال مجرز أبو القاسم الجلاب: حدثني سعدان قال: أمر قوم امرأة ذات جمال بارع أن تتعرض للربيع بن خثيم فلعلها تفتنه[٢]، وجعلوا لها إن فعلت ذلك ألف درهم، فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب، وتطيبت بأطيب ما قدرت عليه، ثمَّ تعرَّضت له حين خرج من مسجده، فنظر إليها فراعه أمرها، فأقبلت عليه وهي سافرة، فقال لها الربيع: كيف بك لو قد نزلت الحمَّى بجسمك فغيَّرت ما أرى ما لونك وبهجتك؟ أم كيف بك لو قد ساء لك منكر ونكير؟ فصرخت صرخة فسقطت مغشيًا عليها، فوالله لقد أفاقت وبلغت من عبادة ربها أنها كانت يوم ماتت كأنها جذع محترق[٣].

وكان بالكوفة شاب متعبد لازم المسجد الجامع لا يكاد يفارقه، وكان حسن الوجه حسن القامة حسن السمت فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به وطال عليها ذلك، فلمَّا كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد فقالت: يا فتى، اسمع منِّي كلمات أكلمك بها ثم اعمل ما شئت، فمضى ولم يكلمها، ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله فقالت له: يا فتى اسمع مني كلمات أكلمك بها، فأطرق مليًا وقال لها: هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعًا فقالت له: والله، ما وقفتُ موقفي هذا جهالة مني بأمرك ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا مني، والذي حملني على أن لقيتك في مثل هذا الأمر بنفسي

---

(١) جامع العلوم والحكم: (١٦١).
(٢) هذا من فعل الفساق ولا يجوز.
(٣) كتاب التوابين: (٢٦٢).

لمعرفتي أن القليل من هذا عند الناس كثير، وأنتم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شيء يعيبها. وجملة ما أقول لك أن جوارحي كلها مشغولة بك، فالله الله في أمري وأمرك. فمضى الشاب إلى منزله وأراد أن يصلي فلم يعقل كيف يصلي، فأخذ قرطاسًا وكتب كتابًا ثم خرج من منزله وإذا بالمرأة واقفة في موضعها فألقى الكتاب إليها ورجع إلى مكانه، وكان فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، اعلمي أيتها المرأة أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذا عصاه العبد حلم، وإذا عاد إلى المعصية مرة أخرى ستره، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله ـ تعالى ـ لنفسه غضبة تضيق لها السمٰوات والأرض والجبال والشجَّر والدَّواب، فمن ذا يطيق غضبه، فإن كان ما ذكرت باطلاً فإنِّي أذكركِ يومًا تكون فيه السَّماء كالمهل وتصير الجبال كالعن، وتجثوا الأمم لصولة الجبَّار العظيم، وإنِّي والله قد ضعفت عن إصلاح نفسي فكيف بإصلاح غيري؟ وإن كان ما ذكرت حقًّا فإنِّي أدلك على طبيب هدى يداوي الكلوم الممرضة والأوجاع المرفضة ذلك الله رب العالمين فاقصديه بصدق المسألة فإني مشغول عنك بقول ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٨، ١٩].

فأين المهرب من هذه الآية، ثمَّ جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على الطريق فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله كيلا يراها فقالت: يا فتى لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبدًا إلا غدًا بين يدي الله ـ تعالى ـ، ثم بكت بكاء شديدًا وقالت: أسأل الله الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك، ثم إنها تبعته وقالت: أمنن عليَّ بموعظة أحملها عنك وأوصني بوصية أعمل عليها، فقال لها: أوصيك بحفظ

نفسك من نفسك وأذكرك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾[1] [الأنعام: ٦٠]

أيُّها الحبيب:

الزم الجادة وعليك بتقوى الله والبعد عن محارمه فإنَّ في ذلك صلاح قلبك وفلاح آخرتك.. ولا يكفي أن تقول نعم بل استقم كما أُمرت وجاهد نفسك واحرص على حفظ نظرك من الحرام في كل مكان ولا تكن كمن يريد النجاة وهو مستمر على معصيته مقيم على ذنبه.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لا تجري على اليبسِ

قال شعبة: عن منصور، عن إبراهيم، كلَّم رجل من العباد امرأة فلم يزل بها حتى وضع يده على فخذها، فانطلق فوضع يده على النار حتى نشت (احترقت)[2].

أخي المسلم:

لقد كان العرب قبل الإسلام يعدون غض الطرف أدبًا عظيمًا بل ويتفاخرون به، ومن ذلك قول عنترة:

وأغُضُّ طرفي ما بَدَتْ لي جارتي
حتى تواري جارتي مأواها

كان هذا حالهم وهم مشركون بالله ـ تعالى ـ يعدُّون ذلك أدبًا رفيعًا وخلقًا عظيمًا، فكيف بنا نحن المسلمين وبأيدينا كتاب الله وسنة نبينا

---

(١) الإحياء: (٣/ ١١٤).
(٢) روضة المحبين: (٣٩٧).

فيهما التحذير من الوقوع في شر النظر وإطلاق البصر فيما لا يحل.

فكم جرح النظر من قلب، وأوقع في غفلة، وأشعل نار الفتنة، ورُبَّ نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزنًا طويلاً.

وحقٌّ لمن غضَّ طرفه، وقاوم شهوته أن يقول الشاعر فيه:

ليس الشجاع الذي يحمي مطيته
يوم النزال ونارُ الحرب تشتعلُ
لكن فتى غضَّ طرفًا أو ثنى بصرًا
عن الحرام فذاك الفارس البطل[1]

وانظر إلى أدب الاستئذان لدخول المنازل فإن فيه من الآداب البعد عن إطلاق النظر وعدم الوقوف أمام الباب مباشرة بل يتنحى يمنة ويسرة حتىَّ لا يرى ما بداخل الدَّار من المحارم أو غيرها قال رسول الله ﷺ: «**إنَّما جعل الاستئذان من أجل البصر**» [متفق عليه].

وأهدر العلماء عين من نظر في دار قوم بغير إذنهم، وقالوا لا قصاص فيها ولا ديَّة قال رسول الله ﷺ: «**لو أن امرءًا اطَّلع عليك بغير إذنٍ فحذفْتَه بحصاةٍ ففقأت عينه لم يكن عليك جناحٌ**» [متفق عليه].

إنَّها آداب إسلامية رفيعة فيها من العفة وغض النظر الكثير..

قال **ابن عمر**: من تضييع الأمانة، النظر في الحجرات والدور[2].

روي عن **بكر بن عبدالله المُزني**: أن قصَّابًا أولع بجارية لبعض جيرانه، فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلى قرية أخرى فتبعها وراودها عن

---

(١) ذم الهوى: (١١٩).
(٢) الورع لابن أبي الدنيا: (٦٦).

نفسها فقالت له: لا تفعل لأنا أشدُّ حبًّا لك منك لي ولكني أخاف الله، قال: فأنت تخافينه وأنا لا أخافه! فرجع تائبًا فأصابه العطش حتَّى كاد يهلك فإذا برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل فسأله فقال: مالك؟ قال: العطش. قال: تعال حتَّى ندعو الله بأن تظلَّنا سحابة حتَّى ندخل القرية، قال: مالي من عمل صالح فأدعو الله، فادع أنت، قال: أنا أدع وأمِّنْ أنت على دعائي فدعا الرسول وأمن هو فأظلتهما سحابة حتَّى انتهيا إلى القرية، فأخذ القصَّاب إلى مكانه فمالت السَّحابة معه فقال له الرَّسول ـ صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم ـ: زعمت أن ليس لك عملاً صالحًا وأنا الذي دعوتُ وأنت الذي أمنت فأظلتنا سحابة ثمَّ تبعتك، لتخبرني بأمرك، فأخبره، فقال الرَّسول: إنَّ التَّائب عند الله ـ تعالى ـ بمكان ليس أحد من النَّاس بمكانه[1].

كا ابن السَّماك ينشد:

يـــا مـــدمـــن الـــذَّنـــب أمـــا تستحـــي
والله فـــي الخلـــوة ثـــانيكـــا
غـــرَّك مـــنْ ربِّـــك إمهـــالُـــه
وستـــره طُـــول مســـاويكـــا

دخل بعضهم غيضةً ذات شجر فقال: لو خلوت ههنا بمعصية من كان يراني؟ فسمع هاتفًا بصوت ملأ الغيضة: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[2] [الملك: ١٤].

---

(١) الإحياء: (٣/ ١١٤).
(٢) جامع العلوم والحكم: (١٦١).

أيُّها الحبيب:

كثير من الناس يتسامحون في أمور يظنونها قريبة. وهي تقدح في الأصول، كاستعارة طلاب العلم جزءًا لا يردونه. وقصد الدخول على من يأكل ليؤكل معه، والتسامح بعرض العدوِّ التذاذًا بذلك واستصغارًا لمثل هذا الذنب. وإطلاق البصر في المحرم استهانة بتلك الخطيئة.

وأهون ما يصنع ذلك بصاحبه أن يحطه من مرتبة المتميزين بين الناس، ومن مقام رفعة القدر عند الحق، أو فتوى من لا يعلم لئلا يقال: هو جاهل ونحو ذلك مما يظنه صغيرًا وهو عظيم.

وربما قيل له بلسان الحال: يا من اؤتمن على أمر يسير فخان. كيف ترجو بتدليك رضا الديَّان؟

قال **بعض السلف**: تسامحت بلقمة فتناولته فأنا اليوم من أربعين سنة إلى خلف.

فالله الله، اسمعوا ممن قد جرَّب، كونوا على مراقبة، وانظروا في العواقب، واعرفوا عظمة الناهي، واحذروا من نفخة تُحتقر، وشردة تُستصغر فربما أحرقت بلدًا.

وهذا الذي أشرتُ إليه يسير يدل على كثير، وأنموذج يُعرَّف باقي المحقّرات من الذنوب[1].

رأى **محمد بن المنكدر**: رجلاً واقفًا مع امرأة يكلمها فقال: إن الله يراكما سترنا الله وإياكما.

قال **الحارث المحاسبي**: المراقبة علم القلب بقرب الربِّ.

---

(١) صيد الخاطر: (١٨٧).

وسُئل **الجنيد** بما يستعان على غض البصر، قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق إلى ما تنظره[١].

وذكر **أبو الفرج** وغيره أن امرأة جميلة كانت بمكَّة، وكان لها زوج، فنظرت يومًا إلى وجهها في المرآة فقالت لزوجها: أترى أحدًا يرى هذا الوجه ولا يفتن به؟ قال: نعم، قالت: مَنْ؟ قال: عبيد بن عمير، قالت: فائذن لي فيه فلأفتنَّه، قال قد أذنت لكِ.

قال: فأتته كالمستفتية، فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام فأسفرتْ عن وجه مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أمة الله استتري، فقالت: إنِّي قد فتنت بك، قال: إني سائلك عنْ شيء فإنْ أنتِ صدقتني نظرتُ في أمركِ، قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك.

قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك أكان يسرك أن أقضي لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو دخلتِ قبرك وأجلست للمساءلة أكان يسرُّك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك أكان يسرك أني قضيتها لك قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو أردت الممرَّ على الصراط ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو جيء بالميزان وجيء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

---

(١) جامع العلوم والحكم ص (١٦١).

قال: فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: اتقي الله فقد أنعم عليك وأحسن إليك، قال: فرجعتْ إلى زوجها فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطَّال ونحن بطَّالون، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة فكان زوجها يقول: مالي ولعبيد بن عمير أفسد عليَّ امرأتي، كانت في كل ليلة عروسًا فصيَّرها راهبة[١].

وإذا كنت لا ترضى بأن يراك مَنْ تجلُّه وتحترمه وأنت على هذه المعصية، فكيف ترضى بأن يراك خالقك ورازقك، ومن بيده أمر هذا الكون وأنت على حال تغضبه ـ جلَّ وعلا ـ.

قال **ابن عباس**: يا صاحب الذنب لا تأمن من فتنة الذنب وسوء عاقبته. ولخوفك من الرِّيح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذَّنب، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب.

والرَّجل هو من عمَّر قلبه بمراقبة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كما قال ابن **الجوزي**: والرَّجل والله من إذا خلا بما يُحب من المحرم وقدر عليه وتقلقل عطشًا إليه، نظر إلى نظر الحق إليه فاستحى من إجالة همه فيما يكرهه فذهب العطش[٢].

قال **أبو الجلد**: أوحى الله ـ تعالى ـ إلى نبيٍّ من الأنبياء: «قل لقومك ما بالكم تسترون الذُّنوب من خلقي وتظهرونها لي إن كنتم ترون أنِّي لا

---

(١) روضة المحبين.

(٢) صيد الخاطر ص (١٣٧).

أراكم فأنتم مشركون بي، وإن كنتم ترون أنِّي أراكم فلم تجعلوني أهون النَّاظرين إليكم»[١].

يـــا مـــن يـــرى مـــدَّ البعـــوض جنـــاحهـــا
فـــي ظلمـــة الليـــل البهيـــم الأليـــل
ويـــرى نيـــاطَ عـــروقهـــا فـــي مخِّهـــا
والمـــخَّ فـــي العظـــام النُّحَّـــل
اغفـــر لعبـــدٍ تـــاب مـــنْ زلاتـــه
مـــا كـــان منـــه فـــي الـــزَّمـــان الأول

قال **أبو عياش القطان**: كانت امرأة بالبصرة متعبدة يقال لها منيبة، وكانت لها ابنة أشدُّ عبادة منها، فكان الحسن ربما رآها وتعجَّب من عبادتها على حداثتها، فبينما الحسن ذات يوم جالس إذ أتاه آتٍ فقال: أما علمت أن الجارية قد نزل بها الموت فوثب الحسن فدخل عليها فلمَّا نظرت الجارية إليه بكت، فقال لها: يا حبيبتي ما يبكيك؟ قالت له: يا أبا سعيد الترابُ يُحْثى على شبابي ولم أشبع من طاعة ربي، يا أبا سعيد انظر إلى والدتي وهي تقول لوالدي: احفر لابنتي قبرًا واسعًا وكفنها بكفن حسن، والله لو كنتُ أجهز إلى مكة لطال بكائي، كيف وأنا أجهز إلى ظلمة القبور ووحشتها وبيت الظلمة والدود[٢].

قالت **عائشة بنت سعيد بن إسماعيل** لابنتها: لا تفرحي بفان، ولا

---

(١) جامع العلوم والحكم ص (١٦١).
(٢) صفة الصفوة: (٤/ ٢٩).

تزعجي من ذاهب وافرحي بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ، واجزعي من سقوطك من عين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ[١].

وهـذه قصة تروي النَّهاية السَّيئة لطريق الفساد والضِّياع بل ربَّما يكون آخر كلامه من الدُّنيا الهذيان بمحبوبة نظرها وتعلق قلبه بها.. وهي قصَّة معروفة مشهورة يردِّد صاحبها: كيف الطَّريق إلى حمام منجاب..

وهذا الكلام له قصَّة، وذلك أنَّ رجلاً كان واقفًا بإزاء داره، وكان بابها يشبه باب هذا الحمام، فمرت به جارية لها منظر، فقالت: أين الطَّريق إلى حمَّام منجاب؟ فقال: هذا حمام منجاب، فدخلت الدَّار ودخل وراءها، فلمَّا رأت نفسها في داره وعلمت أنَّه قد خدعها أظهرت له البشرى والفرح باجتماعها معه، وقالت له: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وتقرُّ به عيوننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين، وخرج وذهبت، ولم تخنه في شيء، فهام الرجل وأكثر الذكر لها، وجعل يمشي في الطريق والأزقة ويقول:

يـــا رُبَّ قـــائلـــةٍ يـــومًـــا، وقـــد تعبـــتْ
كيـــف الطـــريـــق إلـــى حمَّـــام منْجـــابِ؟

فبينما هو يومًا يقول ذلك، وإذا بجارية أجابته من طاقٍ:

هـــلا جعلـــتَ ســـريعًـــا إذ ظفـــرتَ بهـــا
حِـــرزًا علـــى الـــدار أو قفـــلاً علـــى البـــاب

(١) صفة الصفوة: (٤/ ١٢٥).

فازداد هيمانه واشتد، ولم يزل على ذلك، حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا.

ولقد بكى **سفيان الثوري** ليلة إلى الصباح، فلمَّا أصبح قيل له: كل هذا خوفًا من الذنوب؟ فأخذ تبنة من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا، وإنما أبكي من خوف (سوء) الخاتمة.

وهذا من أعظم الفقه: أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

وقد ذكر الإمام أحمد عن **أبي الدرداء** أنَّه لمَّا احتضر جعل يغمى عليه ثمَّ يفيق ويقرأ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

فمن هذا خاف السَّلف من الذنوب أن يكون حجابًا بينهم وبين الخاتمة الحسنى.

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق الإشبيلي: واعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به ولله الحمد، وإنما تكون لمن له فساد في الأصل أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويصطلم قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصَّدمة، ويختطفه عند تلك الدَّهشة، والعياذ بالله.

أخي الحبيب:

إليك بعضًا من قصص أصحابها أردتْ بهم نظرةٌ وذهبت بعقولهم لفتةٌ فأصبحوا من الخاسرين.

* يروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجدًا للأذان والصَّلاة وعليه بهاء

الطاعة وأنوار العبادة، فرقى يومًا المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان، ونزل إليها، ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك؟ وما تريد؟ قال: أريدك. قالت: لماذا؟ قال: أتزوجك. قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية وأبي لا يزوِّجني منك. قال: أتنصَّر. قالت: إن فعلت أفعل، فتنصَّر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم في الدار. فلمَّا كان في أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان في الدار فسقط منه، فمات فلم يظفر بها، وفاته دينُه[1].

إنَّها النظرة الحرام التي ساقته إلى أن يترك ملَّة محمَّد ﷺ ويتنصَّر لأجل امرأة رآها..

تفنى اللذاذة ممنْ ذاق صفوتها
من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوءٍ في مغبتها
لا خير في لذَّة من بعدها النَّار[2]

* قال **عبدُ بن عبد الرحيم**: خرجنا في سرية إلى أرض الروم فصحبنا شاب لم يكن فينا أقرأ للقرآن منه ولا أفقه ولا أفرض، صائم النهار قائم الليل، فمررنا بحصن فمال عنه العسكر ونزل بقرب الحصن فظننا أنه يبول فنظر إلى امرأة من النصارى تنظر من وراء الحصن فعشقها فقال لها بالرومية: كيف السبيل إليك؟ قالت: حين تتنَّصر يفتح لك الباب وأنا لك، ففعل فأدخل الحصن، قال فقضينا غزاتنا في أشدِّ ما يكون من الغمِّ

---

(١) الجواب الكافي: (١٩٨).
(٢) روضة المحبين: (٤٤٢).

كأن كل رجل منا يرى ذلك بولده من صلبه، ثم عدنا في سرية أخرى فمررنا به ينظر من فوق الحصن مع النصارى فقلنا: يا فلان ما فعلتْ قراءتك؟ ما فعل علمك؟ ما فعلت صلواتك وصيامك؟ قال: اعلموا أني نسيتُ القرآن كلَّه ما أذكر منه إلا هذه الآية: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر: ٢، ٣].

* قال منصور بن عمَّار: حججتُ حجَّةً، فنزلتْ سكة من سكك الكوفة، فخرجت في ليلة مظلمة، فإذا بصارخٍ يصرخ في جوف الليل وهو يقول:

إلهي! وعزتك وجلالك ما أردتُ بمعصيتي مخالفتك، وقد عصيتك إذ عصيتك وما أنا بنكَالِكَ جاهل، ولكن خطيئة عرضت لي أعانني عليها شقائي وغرَّني سترك المرخي عليَّ، وقد عصيتك بجهدي وخالفتك بجهلي ولك الحجة عليَّ؛ فالآن من عذابك من يستنقذني؟ وبحبل من أتصل إذا قطعتَ حبلك منِّي؟ وا شباباه! واشباباه!

قال: فلمَّا فرغ من قوله تلوتُ آية من كتاب الله: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ . . .﴾ [التحريم: ٦] الآية. فسمعت حركةً شديدة، ثمَّ لم أسمع بعدها حسًّا، فمضيتُ. فلمَّا كان من الغد رجعت في مدرجتي، إذا بجنازة قد وضعت، وإذا بعجوز كبيرة، فسألتها عن أمر الميت، ولم تكن عرفتني، فقالت: هذا رجل لا جزاه الله إلا جزاءه! مرَّ بابني البارحة، وهو قائم يصلي، فتلا آية من كتاب الله؛ فلمَّا سمعها ابني تفطَّرتْ مرارته فوقع ميتًا[1].

الرغبة في الله وإرادة وجهه، والشوق إلى لقائه هي رأس مال العبد

---

(١) كتاب التوابين: (٢٨٩).

وملاك أمره وقوام حياته الطيبة، وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه وقرَّة عينه، ولذلك خُلق، وبه أمر، وبذلك أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب[١].

* ويُروى أن رجلاً علَّق شخصًا، فاشتد كلفه به وتمكن حبه من قلبه حتى أوقع، ولزم الفراش بسببه، وتمنَّع ذلك الشخص عليه، واشتد نفازة عنه، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده بأن يعوده، فأخبره بذلك الناس، ففرح واشتد فرحه وانجلى غمه، فجعل ينتظره للميعاد الذي ضرب له فيما هو كذلك إذ جاءه الساعي بينهما، فقال: إنَّه وصل معي إلى بعض الطريق ورجع، ورغبت إليه وكلمته فقال: إنَّه ذكرني وفرح بي، ولا أدخل مدخل الرَّيبة، ولا أعرض نفسي لمواقع التُّهم، فعاودته فأبى وانصرف فلمَّا سمع البائس أسقط في يده، وعاد إلى أشد مما كان به وبدتْ عليه علائم الموت فجعل يقول في تلك الحال:

أسلـــــم يـــــاراحـــــة العليـــــل
ويـــــا شفـــــا المـــــدنـــــف النحيـــــلِ
رضـــــاك أشهـــــى إلـــــى فُـــــؤادي
مـــــن رحمـــــة الخـــــالـــــقِ الجليـــــلِ

فقلتُ يا فلان: أتق الله، قال: قد كان، فقمتُ عنه فما جاوزتُ باب داره حتى سمعتُ صيحة الموت، فعياذًا بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة[٢].

أيُّها الحبيب:

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى

---

(١) روضة المحبين: (٤٠٥).
(٢) الجواب الكافي: (١٩٩).

مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ [البقرة: ٢٥].

فتأمل جلالة المُبشر ومنزلته وصدقه وعظمة من أرسله إليك بهذه البشارة وقدر ما بشَّرك به وضمنه لك على أسهل شيء عليك وأيسره، وجمع ـ سبحانه ـ فيه هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثِّمار ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ونعيم القلب وقرَّة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه، والأزواج جمع زوج والمرأة زوج للرجل وهو زوجها، والمطهرة من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا فطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة وطهر لسانها من الفحش والبذاء وطهر طرفها من أن تطمح به إلى غير زوجها وطهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس أو وسخ.

قال عبد الله بن المبارك ثنا شعبة عن قتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: **من الحيض والغائط والنخامة والبصاق**».

قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود: «**أن رجلاً أصاب من امرأة قبلةً، ثُم أتى النَّبيَّ ﷺ، فذكر ذلك له فسكت النَّبيُّ ﷺ حتَّى نزلتْ هذه الآية، فدعاه فقرأها عليه، فقال رجل: هذا له خاصَّة؟ قال: بل للنَّاس عامَّةً**».

وقد وصف الله المتقين في كتابه بمثل ماوصى به النَّبيُّ ﷺ في هذه

الوصيَّة[١] في قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٦].

فوصف المتقين بمعاملة الخلق بالإحسان إليهم بالإنفاق وكظم الغيظ والعفو عنهم، فجمع بين وصفهم ببذل الندى واحتمال الأذى، وهذا هو غاية حسن الخلق الذي وصى به النبي ﷺ لمعاذ[٢].

ثم وصفهم بأنهم ﴿إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ ولم يصروا عليه. فدل على أن المتقين قد يقع منهم أحيانًا كبائر وهي الفواحش، وصغائر وهي ظلم النفس، لكنهم لا يصرُّون عليها بل يذكرون الله عقب وقوعها ويستغفرونه ويتوبون إليه منها، والتوبة: هي ترك الإصرار.

ومعنى قوله: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾: ذكروا عظمته وشدة بطشه وانتقامه وما يوعد به على المعصية من العقاب، فيوجب ذلك لهم الرجوع في الحال والاستغفار وترك الإصرار.

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ

---

(١) وهي ما جاء في الحديث: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحوها، وخالق الناس بخلقٍ حسن» رواه الترمذي، وحسَّنه.

(٢) في الحديث السابق.

﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «**إذا أذنب عبدٌ ذنبًا، فقال: ربِّ إنِّي عملتُ ذنبًا فاغفرْ لي فقالَ الله: عَلِمَ عبدِي أنَّ له ربًّا يغفرُ الذَّنب ويأخذُ بالذَّنب قد غفرْتُ لعبدي، ثمَّ إذا أذنب ذنبًا آخر إلى أنْ قال في الرَّابعة فليعملْ ما شاء**» يعني: مادام على هذه الحال كلَّما أذنب ذنبًا استغفر منه[1].

أيُّها الحبيب:

مَتِّعْ نظرك بقراءة القرآن وأطلق بصرك ليرى عظمة صنع الخالق ـ جلَّ وعلا ـ ليكن ذلك في ميزان حسناتك. . واغضض بصرك عمَّا حرَّم الله تهنأ نفسك وتؤجر على فعلك وتجد حلاوة ذلك في قلبك.

جعلني الله وإيَّاك ممَّنْ إذا زلَّ ثاب وتاب وإذا أخطأ استغفر وعاد وغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين،،.

---

(١) جامع العلوم والحكم: (١٦٣).

المصادر

١ ـ أحكام النظر إلى المحرمات لمحمد أحمد العماري، دار المعراج، ١٤١٣هـ.

٢ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد العزالي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٣ ـ أدب الدنيا والدين للماوردي، دار الكتب العلمية.

٤ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.

٥ ـ تزكية النفوس وتزكيتها كما يقرره علماء السلف، ماجد ابن أبي الليل وآخر، دار القلم.

٦ ـ تفسير ابن كثير للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ.

٧ ـ الجامع لأحكام القرآن.

٨ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم الجوزية.

٩ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.

١٠ ـ حكم النظر للنساء لابن قيم الجوزية، دار الجيل، بيروت.

١١ ـ ذم الهوى لابن الجوزي.

١٢ ـ ذم الهوى واتباعه لابن القيم.

١٣ ـ روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية.

١٤ ـ الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح، محمد بن

١٨ ـ العاقبة في ذكر الموت والآخرة، الإمام أبي محمد عبد الحق الأشبيلي، تحقيق الشيخ خضر محمد خضر مكتبة دار الأقصى، ط١/ ١٤٠٦هـ.
١٩ ـ فتح القدير للإمام محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة.
٢٠ ـ الفوائد لابن القيم، دار النفائس.
٢١ ـ كتاب التوابين لموفق الدين ابن قدامة، دار الكتب العلمية.
٢٢ ـ مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١/ ١٤٠٣هـ.
٢٣ ـ المجموع المنتخب من المواعظ والأدب، زامل الزامل.
٢٤ ـ الورع للإمام أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٥ ـ الورع لابن أبي الدنيا، دار السلفية، الكويت.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

ففيهما فجاهد

المقدمة ٧
مدخل ٩
صور من العقوق ٥٤
فضل بر الوالدين ٦٧
بر الوالدين بعد موتهما ٦٩
الخاتمة ٧٣
المصادر ٧٥

اللهم سلم

المقدمة ٨١
مدخل ٨٣
الخوف الحقيقي ٨٥
هل تخاف الله؟ ٨٦
الوقوف خمسين ألف سنة ٨٧
القدر الواجب من الخوف ٨٩
أكثر الناس فرحًا ٩٠
ما يبكيك ٩٠

الموضوع	الصفحة
حقوق الله	٩٧
الرجل يتعلق بالرجل	٩٩
الخوف يقمع الشهوات	١٠١
يا مغرورًا بالأماني	١٠٣
القلب الخرب	١٠٧
الخوف والرجاء	١١٠
البكاء عشرة أجزاء	١١٢
العبرة	١١٢
البكاء على الخطيئة	١١٤
إذا أصبح العبد وأمسى	١١٧
الخوف المحمود	١١٨
أبشر بالخير	١٢٠
فروا إلى الله بالتوبة	١٢٣
واقع الناس اليوم	١٢٤
أيهما أفضل الخوف أوالرجاء	١٢٥
الزهد في الدنيا	١٢٩
طول الأمل	١٢٩
رب ارجعون	١٣١
إياك والغفلة	١٣٦
هلم إلى الدخول إلى الله	١٣٨

الموضوع **الصفحة**

علامات الخوف من الله ١٤٠
الخوف من رد الحسنة ١٤٣
المصادر ١٤٣

أيسر العبادات

المقدمة ١٤٩
مدخل ١٥١
أثر الخلق الطيب ١٥٢
التوجيهات ١٥٢
علامات حسن الخلق ١٥٤
أصل الأخلاق المذمومة ١٥٦
علو الشأن ١٦١
استقامة النفس ١٦٢
ست كلمات ١٦٦
تعاهد نفسك ١٧١
من حسن الخلق ١٧٣
أحب الناس إلى الله ١٧٩
قضاء الحوائج ١٨٤
حدود الأخلاق ١٩٠
خير الأمور ١٩١
الخاتمة ١٩٣
المصادر ١٩٥

الموضوع **الصفحة**

الأنفاس الأخيرة

كلمة صادقة ٢٠١
المقدمة ٢٠٣
مدخل ٢٠٥
نصائح غالية ودرر نفيسة تقدم لمن أراد النجاة وأراد الآخرة ٢٤٦
الخاتمة ٢٥١

سهم إبليس وقوسه

المقدمة ٢٥٥
مدخل ٢٥٧
النظرة سهم ٢٥٨
فتنة النظر ٢٦٠
النظر والمرأة ٢٦٨
إطلاق البصر ٢٧١
قصة العابد ٢٧٤
النظرة الثانية ٢٧٧
الحمو الموت ٢٨٠
فوائد غض البصر ٢٨٤
يا معشر الشباب ٢٨٦
فانكحوا ٢٩٠
ترك المعاصي ٢٩٤

الموضوع	الصفحة
قبل الإسلام	٢٩٨
المحاسبة	٣٠١
عبرة	٣٠٦
بشارة	٣١٠
المصادر	٣١٣
فهرس الموضوعات	٣١٥

* * *